اَلدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَةُ

مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ

اَلْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةِ

بعد مضي الفتوحات النبوية

تأليف

السيّد أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة

ويليه

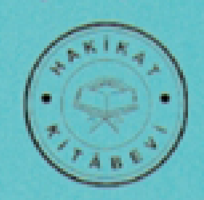
المسلمون المعاصرون

محمّد سيّد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

قد اعتنى بطبعه طبعة جديدة بالأوفست

مكتبة الحقيقة



HAKÎKAT KİTÂBEVİ
Darüşşefeka Cad. 57 P.K.: 35 34083
Tel: 0212 523 45 56-532 58 43 Fax: 0212 523 36 93
http://www.hakikatkitabevi.com
e-mail: info@hakikatkitabevi.com
Fâtih-İSTANBUL
2005

اَلدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ

مِنَ الْجُزْءِ الثَّاني مِنْ كِتَابِ

اَلْفُتُوحَاتُ اْلإِسْلاَمِيَّة

بعد مضي الفتوحات النبوية

تأليف

السيد أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة المكرمة

ويليه

اَلْمُسْلِمُونَ الْمُعَاصِرُونَ

محمّد سيّد گيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

قد اعتنى بطبعه طبعة جديدة بالأوفست

مكتبة الحقيقة



يطلب من مكتبة الحقيقة بشارع دار الشفقة بفاتح ٥٧ استانبول–تركيا

هجري قمري	هجري شمسي	ميلادي
١٤٣٣	١٣٩٠	٢٠١٢

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**) وقال ايضا (**خذوا العلم من افواه الرجال**)

ومن لم تتيسّر له صحبة الصالحين وجب له ان يذكّر كتبا من تأليفات عالم صالح وصاحب إخلاص مثل الإمام الرباني المجدد للألف الثاني الحنفي والسيد عبد الحكيم الاروا سي الشافعي واحمد التيجاني المالكي ويتعلم الدين من هذه الكتب ويسعى نشر كتب أهل السنة بين الناس ومن لم يكن صاحب العلم أو العمل أو الإخلاص ويدعي أنه من العلماء الحق وهو من الكاذبين من علماء السوء واعلم انّ علماء أهل السنة هم المحافظون الدين الإسلامي وأمّا علماء السوء هم جنود الشياطين[١]

(١) لاخير في تعلّم علم مالم يكن بقصد العمل به مع الإخلاص (الحديقة الندية ج: ١ ص: ٣٦٦، ٣٦٧ والمكتوب ٣٦، ٤٠، ٥٩ من المجلّد الأوّل من المكتوبات للإمام الرّبّاني المجدّد للألف الثاني قدّس سرّه)

تنبيه: إنّ كلاً من دعاة المسيحية يسعون إلى نشر المسيحية والصهاينة اليهود يسعون إلى نشر الادعاءات الباطلة لحاخاماتها وكهنتها ودار النشر - **الحقيقة** - في استانبول يسعى إلى نشر الدين الاسلامي وإعلائه اما الماسونيون ففي سعي لإمحاء وازالة الاديان جميعا فاللبيب المنصف المتصف بالعلم والادراك يعي ويفهم الحقيقة ويسعى لتحقيق ما هو حق من بين هذه الحقائق ويكون سببا في إنالة الناس كافة السعادة الابدية وما من خدمة اجلّ من هذه الخدمة اسديت إلى البشريّة

Baskı: İhlâs Gazetecilik A. Ş.
29 Ekim Cad No 23 Yenibosna-İSTANBUL
Tel 0212454 30 00

اَلدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِيْ مِنْ كِتَابِ اَلْفُتُوحَاتُ الإِسْلاَمِيَّةُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدولة العثمانية وفتوحاتها ثبت الله عليهم ووفقهم لما يحبه ويرضاه

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الإسلامية، يعلم علما قطعيا أن الدولة العثمانية من أحسن سير الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة، صحيحوا العقيدة ناصرون لأهل السنة، قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين، ليس عندهم شيء من الزيغ والابتداع ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة، قائمون بشعائر الإسلام لا سيما في الحرمين الشريفين، فإن لهم فيها الصدقات والخيرات الكثيرة وقائمون أيضا بشعائر الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار فيجب على كل مسلم أن يدعو لهم بالتثبيت والتأييد والإعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه واشتهر أنهم من التركمان، وإن كان نسبهم ينتهي إلى يافث بن نوح عليه السلام، وقيل: أن أصلهم من العرب فقد ذكر العلامة السنجاري في تاريخه نقلا عن صاحب دور الأثمان في أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنورة، وأن جدهم الأعلى هاجر من بلاد الحجاز، قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله أفندي لا نريد أن ندخل في هذا البحث لكن غاية ما نقول أن هذه العائلة الشريفة هي أشرف العشائر الإسلامية، ثم ذكر أن جدهم هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وسليمان شاه سلطانا في بلاد ماهان بالقرب من بلخ، فلما ظهر التتر أفسدوا في الأرض وخربوا البلاد، وكان من جملة ما خربوه بلخ وأعمالها، فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم

وقصد بلاد الروم، وكان قد سمع بدولة السلجوقية التي في الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الكفار فخرج وتبعه في ذلك خلق كثير فلما وصلوا إلى أذربيجان تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيئا كثيرا، ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء، فغرق سليمان شاه، ومات غريقا شهيدا فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره هناك مشهورا يزار ويتبرك به، وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدى وأرطغرل، فلما وصلوا إلى موضع يقال له ياسين أو مسى رجع سنقور وكون طوغدى أبناء سليمان شاه إلى بلاد العجم وتختلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزآلب وصاروييي وعثمان ومكث أرطغرل في ذلك المواضع يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صاروييي إلى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقي يستأذنه في الدخول إلى بلاده ويطلب منه موضعا يترل فيه فعين له جبال طومالج وجبال أرمنك وما بينهما موضعا للسكنى، فأقبل أرطغرل مع أربعمائة بيت من قومه فتوطنوا في قره جه طاغ.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة نازل السلطان علاء الدين السلجوقي بعساكر كثيرة ومعه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية وهي يومئذ بيد الكفار ففوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل وسار هو إلى قتال التتر بسبب تعرضهم لبعض بلاده، ولم يزل الأمير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئا كثيرا فازداد عند السلطان علاء الدين قربا ومترلة ولم يزل الأمير أرطغرل يجاهد في سبيل الله حتى توفي في سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمائة فتأسف عليه وعين مكانه ولده الأمير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده في الجهاد وعلم نجابته في فتح البلاد فأكرمه وأمده بأنواع الإضافة والإمداد وجعله سلطانا مشاركا للسلطان علاء الدين في السلطنة وأرسل إليه الراية السلطانية، والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدي (**السلطان عثمان**) نهض قائما على قدميه إعظاما للسلطان

علاء الدين وما زال قائما حتى فرغوا، فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة في الأسفار والأعياد، وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمائة، وكانت سلطنته على البلاد التي افتتحها أبوه والتي افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قره حصار وحصن قره وقصبة يني كوي وقلعة بلاجك ومدينة يني شهر وغير ذلك ولما تسلطن جعل كرسي سلطنته قره حصار، ثم نقله إلى يني شهر وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له، قال بعض المؤرخين: أن الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الإسلام، فإن كل واحد منهم فعل أفعالا باهرة وغزا غزوات قاهرة يستحق أن تخلد في بطون الأسفار لكي يقتدي بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ويعلموا أن أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الأكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم في كتب التواريخ ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التي قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم، فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك برا وبحرا إلى أبعد مكان، فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الأفرنكية ويعطونهم الطاعة والخضوع وكان السلطان عثمان جدهم واسطة عقدهم ومؤسس دولتهم، وكان السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن في السن حين أن أشرك معه السلطان عثمان لأنه تولى السلطنة سنة ٦٥٤ أربع وخمسون وستمائة واستمر إلى أن توفي سنة ٧٠٠ وبقي بعض ممالكهم تحت يد بنيه وأبناء عمه مع ضعفهم عن حفظها وآخر من بقي في السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس وتوفي مسعود سنة ٧١٨ فاضمحلت دولتهم وكان لهم من التتر عساكر كثيرة كانوا متغلبين عليهم فاستولى عليهم السلطان عثمان وبنوه من بعده وصارت الممالك كلها

بأيديهم، ومن الممالك التي افتتحها السلطان بعد سلطنته حصن الصفصاف المعروف بقلعة بلاجك وكان الخليفة هارون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ثم استولى عليه الكفار واستمر بأيديهم إلى أن افتتحه الغازي السلطان عثمان المذكور وسيأتي ذكر بقية فتوحاته، وكان السلطان عثمان المذكور عادلا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة شجاعا مرابطا في سبيل الله مجاهدا يراعي الأبطال ويحسن للأيتام والأرامل ومن زهده في الدنيا أنه توفي لم يترك من المال شيئا وإنما ترك بعضا من الخيل وشيئا من الغنم التي ترعى في نواحي بروسا باسم السلاطين العثمانية وهي من نسل تلك الأغنام وترك أيضا بعد وفاته قفطانا وعمامة وبعض مناطق من القطن وملعقة ومملحة فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين العظام الذين شيدوا الإسلام وكان صحيح العقيدة على عقيدة أهل السنة، يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن إليهم ويعظمهم ويقوم بحقوقهم وكان شديد التعظيم لشعائر الدين وللقرآن العظيم. ويحكى أنه قبل أن يتسلطن سافر إلى موضع نزل في طريقه ضيفا عند إنسان فلما أراد النوم هيأ له صاحب المنزل موضعا لينام فيه فلما دخل ذلك الموضع رأى مصحفا معلقا في جدار ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف معلقا بذلك الموضع ورأى أن ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف على قدميه قائما إلى الصباح مستقبلا للمصحف ويداه على صدره وذلك دليل على قوة إيمانه وصحة اعتقاده رحمه الله تعالى وكان كثير التردد على الشيخ العارف بالله تعالى أدبالي القرماني فرأى السلطان عثمان ليلة في منامه أن قمرا خرج من حصن الشيخ المذكور فدخل في حصنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأى تحتها جبالا راسيات وتجري عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه ويملأون منها وينتفعون من المياه فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال له الشيخ وكان من المكاشفين لك البشرى بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك وإني زوجتك ابنتي هذه. فقبلها السلطان عثمان وتزوج بها فولدت له

أولادا منهم السلطان أورخان وهو جد سلاطين آل عثمان أيد الله دولتهم على ممر الزمان وبسط الكلام على فتوحات السلطان عثمان الغازي وغزواته مذكورة في التواريخ المبسوطة لاسيما التواريخ التي باللسان التركي وكذلك مناقبه وبقية سيرته كل ذلك شيء طويل مذكور في التواريخ المذكورة وإنما الذي يمكن ذكره هنا من ذلك شيء يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته فمن غزواته وفتوحاته قره حصار وجعلها كرسي ملكه كما تقدم إلى أن فتح يني شهر فنقل كرسي ملكه إليها ثم فتح حصن يارحصار وقصبة اينه كول ويني شهر وأظهر فيها شعار الإسلام.

وفي سنة ٧٠٠ اشتغل بقتال الكفار في طرف ازنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين فأرسل صاحب ازنيق إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به فأمده بجيوش كثيرة في سفائن عديدة فلما وصلوا إلى الساحل من طرف يلاق أوه كمن هم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فلم ينج منهم إلا الشاذ النادر وفي غضون ذلك توفي السلطان علاء الدين السلجوقي سنة سبعمائة وكثر الهرج والمرج في بلاده فالتحق أكثر عساكره بالغازي السلطان عثمان كذلك.

وفي سنة ٧٠٧ فتح السلطان عثمان مرمرة وفي هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور فاجتمعوا في جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفا فقاتلوا المسلمين أمام قيسون حصاري فكان يوما شديدا على الكفار، قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن أعمال بروسا وفاز المسلمون بالغنائم واستولوا على حصن كستل، ثم ساروا إلى أولوبار فغلبوا عليها واصطلح معهم صاحبها على خراج يؤديه. وفي هذه السنة أيضا استولى على حصن كتة والبلاد الملحقة بها وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم إياها واستقر هو في يني شهر وتمكن بها وجعلها دار الأمان وبنى فيها البقاع وأشاد القلاع وأسكن فيها الجند.

وفي سنة ٧٠٨ فتح حصن لفكة وحصن آق حصار وحصن توق حصار وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين. وفي هذه السنة أعني سنة ٧٠٨ كان أول

حدوث البارود وأما حدوث المدافع فكان سنة ٧٦٢.

وفي سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوة وحصن طرقلويني جه سي وحصن تكور بيكاري وغيرها، وفي سنة ٧١٣ افتتح حصن أونوس وبلادها وعينه كلي وراوبناس حصار وغير ذلك، وفي سنة ٢٢ نازل الغازي السلطان عثمان المذكور مدينة بروسا وحاصرها مدة، ثم لما اشتد الحصار أمر ببناء قلعتين في طرف المدينة وأسكن فيها الجند وأمرهم بالتضييق على أهل البلد وقطع الميرة عنهم وجعل في إحدى القلعتين أحد بني عمه وفي القلعة الأخرى أحد الشجعان من عبيده، ثم رجع السلطان إلى يني شهر، وفي سنة ٧٢٣ وسبعمائة فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارنى وبلاد أقيازي، وفي سنة ٢٠ فتحت يلاق أباد وحصن قاندرى وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة إلى فاتحها لأن الأمير الذي فتحها يقال له قوجه ومعناه باللغة التركية شيبة. وفي هذه السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن بولى وحصن صحانونى وما ينضم إليها وفيها فتحت بلاد قره مرسل على يد الأمير قره مرسل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها وهي بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها إلى القسطنطينية وفي هذه السنة أيضا أرسل السلطان عثمان ابنه أورخان إلى فتح بروسا وصحبته عساكر كثيرة وكان السلطان عثمان إذ ذاك مريضا بعلة النقرس فتخلف عن ذلك الغزو وقعد في يني شهر، وفي مدة حصار ابنه مدينة بروسا توفي السلطان عثمان المذكور وقيل بل عاش بعد فتح المدينة أياما فكانت وفاته سنة ٧٢٦ ومولده سنة ٦٥٦ وعمره ٦٩ سنة ومدة ملكه ٢٦ سنة. ولما توفي كان بيده الممالك التي افتتحها هو وأبوه أرطغرل والممالك التي افتتحها السلجوقية فكانت بأيديهم وكان ملكهم لها على التدريج في سنين متعددة وهي قونية ووان وآقصراي وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطموني وأنكورية وملطية ومرعش وألبستان وتوقات وأماسيه ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعنتاب وتسلطن بعده ولده أورخان في ابتداء سنة سبع وعشرين ولما توفي السلطان

عثمان جاء الخبر لابنه السلطان أورخان وهو محاصر مدينة بروسا كما تقدم.

ذكر فتح بروسا

ثم أنه بالغ وبذل جهده في حصار أهلها وقتالهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها دارا للإسلام بعد أن كانت معقلا لأهل الأوثان والأزلام ونقل كرسي ملكه إليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والأيتام والغرباء وهذه المدينة من أعظم المدن الإسلامية وأعمرها وهي مدينة كثيرة الثمار والعيون.

ذكر فتوحاته في بلاد اليونان

ولما نقل السلطان أورخان كرسي الملك إلى مدينة بروسا أخذ في الاهتمام والاستعداد الافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالشفقة والرحمة حتى أن كثيرا من النساء الروميات اللاتي فقدن أولادهن ورجالهن في تلك الحروب كنّ يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن المساعدة والرعاية فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت إليه قلوب الناس وما زال يتقدم في فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولي واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعة وفتح مدينة كليبولي وهي مفتاح القسطنطينية.

وفي سنة ٧٣١ سار السلطان أورخان بعساكر ففتح حصون قيسون حصاري وفتح إزميد وفتح مدينة أزينوب وكانت من أعظم مدائن الكفار ومجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وفتح حصونا كثيرة.

وفي سنة ٧٥٨ أمر السلطان أورخان ولده الأمير سليمان أن يجتاز البحر الأبيض إلى طرف روم إيلي للجهاد ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحا شبه السفن فركبوا عليها في الليل من موضع يقال له كمر فوصلوا إلى ذلك البر فصادفوا حصنا يسمى جمنا فاستولوا عليه بما فيه ثم هجموا على قلاع أخرى فاستولوا عليها قهرا.

ذكر القتال مع كليبولي

وكان الأمير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدالة فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به فسار أمر المسلمين ينمو وصيتهم يسمو فخرج لقتالهم صاحب كليبولي في عسكر كبير وكان المسلمون في عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقاتلوهم قتالا شديدا فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولي وهي مدينة جليلة على شاطئ البحر وبينها وبين القسطنطينية ٨٦ ميلا ونصف ميل ومنها قلعة قره جك وقلعة خيره بول وهي بلاد متسعة ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغي وغير ذلك وخرب الكنائس والبيع وبنى مكانها مساجد ومعابد.

وفي سنة ٧٦٠ خرج الأمير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فمات لوقته فجزع عليه أبوه جزعا شديدا وفي هذه السنة عبر الأمير مراد الغازي ابن السلطان أورخان إلى طرف روم إيلي من خليج كليبولي ففتح مدينة جورلي وهي من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ولم يزل مراد الغازي يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهي من كبار البلاد الإسلامية.

وفي سنة ٧٦١ توفي السلطان أورخان وعمره ٨٣ سنة ودفن بمدينة بروسا ومدة ملكه ٣٥ سنة وكان ملكا جليلا ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفواد، عدوا لأهل الكفر والإلحاد وكان كثير الغزو والجهاد وبنى كثيرا من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده (**السلطان مراد الأول**) فلما جلس على سرير الملك وحاصر مدينة أنقورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون، فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشي على بلاده فجمع جموعا من التتر وورشق وطورغود والتركمان وغيرهم وسار بجموع لا يحصى لقتال السلطان مراد المذكور فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد، ثم انجلى الأمر عن هزيمة ابن قرمان وانتصر السلطان مراد.

ذكر فتح أدرنة

وفي هذه السنة أيضا جهز السلطان مراد جيشا وأرسله لفتح أدرنة، وجعل عليه شاهين لالا الأتابك، فاقتتلوا قتالا شديدا وعجزوا عن أخذها، وسألوا السلطان مراد أن يقدم عليهم بنفسه فسار السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر، فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم، فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا السلطان فحمد بذلك الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة، وهي من أعظم مدن الدنيا تجري من تحتها ثلاثة أنهار وبينها وبين القسطنطينية سبعون ميلا، ثم أرسل لالا شاهين الأتابك ففتح مدينة قلبه ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا إلى مدينة بروسا. ومن غزواته أنه سار إلى إقليمي الصرب والبلغار وفتح فيها فتوحات وأثخنهم قتلا وأسراً وكان ببر الأناضول جملة من أمراء الأتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكدونيا وبلاد الأرناؤود وفتح كثيراً من بلاد اليونان وعبر بحر مرمرة وفتح مدنا وقلاعا جهة تاساليا.

ذكر ابتداء اختراع عسكر الإنكشارية

وفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الأسارى من الغانمين على زقاق كليبولي وكان الغزو والجهاد في بلاد الروم إيلي متتابعاً، فكانت تسبى الأسارى وتأتيه كالسيل الهامي والبحر الطامي فاجتمع منهم عند السلطان طائفة كثيرة، فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمي بالبندق فتعلموا ثم ميزهم وأرسلهم إلى خدمة الشيخ الحاج بكتاش ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعوا لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند العارف بالله تعالى الشيخ قطع كم قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جري والجاري على الألسن انكشاري ومعناه العسكر الجديد لأن السلطان عثمان كان أكثر عساكره

من فرسان التركمان و لم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري ولا انتظام لهم حال القتال فاستصوب السلطان أورخان ترتيب عساكره على هذا الوجه فأحدث وجاق الإنكشارية ورتبه و لم يتممه وصار تمام انتظامهم على يد ابنه السلطان مراد واستمر وجاق الإنكشارية إلى زمن السلطان محمود الثاني فأبطله وأبادهم كما سيأتي سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف وأحدث النظام الجديد الموجود الآن.

وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة اشترى السلطان مراد خان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهي بلواج ويني وآق شهر وقره شهر أغاج وسيدي شهر.

وفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خرج السلطان مراد المذكور إلى قتال رئيس الكفار ابن لازقا وكان قد تجمع لقتاله أهل اليونان والصرب والأفلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار وتحزبوا جميعا عليه فاتفق موافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصو ببلاد الروم إيلي فالتحم بين الفريقان القتال إلى أن هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس القوم الكافرين وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين.

ذكر استشهاد السلطان مراد الأول

ثم أنه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش في خيله ورجله مظهراً للطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان في كمه فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك أحد من طرف كمه وآخر من كمه الآخر احترازاً من ذلك، فمات السلطان سنة سبعمائة واثنتين وتسعين من ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هناك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسا وقتلوا ذلك الكافر الذي ضربه وقطعوه بالخناجر وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكا جليلا عارفاً وكان أفنى عمره في الجهاد وكان شجاعا مقداما عالي الهمة توفي وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة وتسلطن بعده ولده (**السلطان السعيد يلدرم بايزيدخان**) وبعد جلوسه أخذ في محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم وتقوت عساكره إلى أن وصلت إلى ودين وتملكوا مدينة أسكوب

والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجا سنويا. ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين فتملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى وآخر الأمر انتزعها هذا السلطان منهم.

وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فتح السلطان المذكور قرطوة وهي معدن الفضة الخالصة التي لا نظير لها وفتح بلاد أسكوب وهي من أجل البلاد الإسلامية وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه إليه وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرسى وصاروخان وفيها هرب صاحب قسطموني وهو ابن منتشا فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد قرمان وبلغ السلطان أنه أغار على بعض بلاد أناضولي هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آق جارى فأسر هو وابناه فنازل السلطان مدينة قونية وهي كرسي مملكته وحاصرها وكان وقت إدراك الغلال، فرسم السلطان بأن لا يتعرض أحد لشيء من الغلال وأن لا يظلموا أحداً وأذن لأهل القلعة بأن يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ما شاؤا فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا فلما شاهدوا ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إن ملكا بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغي أن نعصيه، ونخرج عن طاعته. فحضروا برمتهم طائعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا أنت أحق بها وأهلها فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية، وهي عمدة بلاد قرمان رغبوا في المتابعة بمفاتيح قلاعهم وهي بلدة آق سراي ونيكدة وقيصرية ودولي قره حصار وسلموها إلى السلطان المذكور ثم رجع إلى مقر مملكته بروسة بعد ما قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة وبقيا إلى أن أطلقهما الخارجي تيمور.

وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة استولى السلطان المذكور على سيواس وأماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم وفي آخر هذه السنة بلغه أن صاحب قسطموني أغار على بعض البلاد التي

بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهبا وتخريباً فلما بلغه ذلك وكان قد جاز البحر لغزو الكفار إلى طرف روم إيلي فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطموني فمات قبل أن يصل إليه السلطان بايزيد وتملك ابنه وأرسل إلى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول: إن أبي قد جنى وقد مات وأنا مطيع لأوامر مولانا السلطان ومن جملة مماليكه فالمناسب لعدله أن لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره وأرجو من مكارمه أن يترك لي مدينة سينوب وهي مدينة أبي ومسقط رأسي ويجعلني فيها نائبا عنه فأجابه السلطان إلى سؤاله وعاد إلى مدينة بروسة ثم أرسل السلطان بايزيد إلى صاحب القسطنطينية يقول له: إما أن تخرج من البلاد وتسلمها وإما سرت إليك فأتيتك في أعز مساكنك فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسل معه إلى أن قر الأمر بينهما بأنه يدفع خراجاً في كل سنة عشرة آلاف ذهب وأن يبني للمسلمين في داخل المدينة محلة يسكنون فيها، ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يقضي لهم الخصومات فرضي بذلك وفعله واستمر ذلك إلى وقعة تيمور، فنقض العهد وأخرب الجامع، وأخرج المسلمين من البلد وساقهم إلى الروم. قال الحافظ ابن حجر في كتابه (**أنباء الغمر في أنباء العمر**): واشتهر يلدرم بايزيد بالجهاد في الكفار حتى بعد صيته وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه، ووفد إليه أمير بعد أمير بالهدايا، ولم يبق أحد من ملوك الأرض حتى كاتبه وهاداه. قال الحافظ: وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول: إنما نخاف أن تتملك مصر من ابن عثمان. وكذا كان يقول الظاهر برقوق: أنا لا أخاف من الكفار فإن كل أحد يساعدني عليهم وإنما أخاف من ابن عثمان. والحاصل أن هذا السلطان افتتح أيالات كثيرة في الأناضول وروم إيلي واستولى على مدينة سلانيك ثم شن الغارة على البلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنج ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية وأخذ في تدبير ذلك وشرع في محاصرتها ثم قدر الله بمسير التيمور إلى قتاله. وفي سنة ٨٠٢ اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم بايزيد وسار إلى تيمور مستغيثين به يشكون إليه من السلطان بايزيد

ويرغبونه في المسير إلى الروم ويستنجدون به عليه في رد ممالكهم فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده والكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوط وكان السلطان بايزيد محاصرا القسطنطينية وقد قارب فتحها وأشرف عليه فتركها وتوجه بعساكره لقتال تيمور، وكان غالب عسكر السلطان من التتر فأرسل تيمور إلى زعمائهم والكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فوعدوه بالمعاونة، وكان تيمور قد نازل أنقورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب أنقرورية واشتد القتال فانهزم التتر الذين مع السلطان بايزيد فتعبهم كثير من العسكر في الانهزام فانهزموا وبقي السلطان بايزيد يقاتل بنفسه إلى أن وصل إلى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه أسيرا وكان رحمه الله من خيار الملوك، وكان مجاهدا مرابطا قد فتح بلاد الكفار ومدنهم الكبار ما لم يمسها من المسلمين خف ولا حافر وكان قوي النفس شديد البطش عالي الهمة ولما أخذ السلطان بايزيد أسيراً صحبه تيمور معه إلى بلاد العراق قاصداً خراسان ومكث في أثره إلى أن توفي في تبريز سنة ٨٠٥ ثم وقعت فتن كثيرة في أراضي الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم واستمرت إلى سنة عشرة وثمانمائة فتم الملك والسلطنة (**للسلطان محمد الأول ابن بايزيد**) وكان أصغر إخوته فالله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء ولا يُسئل عما يفعل وكان دأبه الاشتغال بالحروب وكان من جملة من خرج عليه وحارب (قره دولقشاه) من التتر في نواحي ماسية فسار عليه وهزمه وبدد شمله ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شديد انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة واستولى السلطان محمد على جميع ممالكه، ثم بعد ذلك صفى له الدهر وانتظم له الأمر و لم يبق من ينازعه في ملكه وفتح مدينة أزمير ونقل كرسي السلطنة إلى أدرنة وأتته رسل ملوك الإنفرج بالهدايا وبالتهاني وعقدوا معه صلحا خوفا منه وأعاد رونق

السلطنة ووسع نطاقها، ثم لما بلغه أن ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد سار إليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فأحضر بين يدي السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق أن لا يخونا بعد ذلك واستولى على عدة قلاع لابن قرمان فيها قلعة صوري حصار وقلعة قيرشهر وقلعة نيكده وقلعة آقشهر وقلعة سيدي شهر وقلعة أوغازي وقلعة يني شهر وقلعة سعيد إيلي، ثم سار واستولى على صامسون وغالب هذه البلاد، وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد ثم لما قدم تيمور إلى بلاد الروم ردها إلى أصحابها فارتجعها منهم السلطان المذكور، وكان السلطان محمد المذكور ملكا جليلا، مهابا، محبا للعلماء والصلحاء وهو أول من عين الصرة لأهل الحرمين واستمر في ملكه ثمانية أعوام وعشرة أشهر وتوفي سنة أربع وعشرين وثمانمائة وعمره ثمان وأربعون سنة وعهد بالسلطنة لولده مراد الثاني، كان ولده المذكور إذ ذاك غازيا في أقصى بلاد روم إيلى فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة إحدى وأربعين يوما حتى وصل ولده (**السلطان مراد**) إلى مدينة بروسة واستقر على التخت ثم بعد ذلك أظهروا موت السلطان.

وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة ظهر رجل ادعى أنه مصطفى بن السلطان يلدرم بايزيد وكان مصطفى المذكور فقد في محاربة التيمور فادعى أنه هو وأقام في نواحي سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على جميع بلاد الروم إيلي وعلى مدينة أدرنة، ثم اجتاز البحر إلى طرف أناضول ليقاتل السلطان مراد، وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة إلى أدرنة لقتال الخارجي المذكور فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجي وانهزم عسكر مراد وأسروا الوزير بايزيد باشا وقتله الخارجي فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة فقدر الله أن الخارجي المذكور أصابه الرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جداً وجعل يخلط في الكلام واختل عقله فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره

تيقنوا خذلانه فداخلهم الخوف فتفرقوا شذر مذر وهرب الخارجي مع ضعفه إلى طرف روم إيلي فلما شاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقا كثيرا وقتلوا غالبهم وغنموا منهم أموالا ودواب كثيرة ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجي بقرب أدرنة فظفر به فقتله وانتظم الأمر للسلطان مراد وارتجع جميع ممالكه، وكان حريصا على فتح القسطنطينية فأقام بمائتي ألف مقاتل وحاصرها حصارا شديداً فقاومه أهلها أشد مقاومة ثم رفع الحصار عنها ورجع إلى دار ملكه لتسكين الفتن التي أضرمها الروم بتلك النواحي فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن وما زال يتقدم حتى داخل بلاد المورة فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهوداً بين ملوك الفرنج على محاربته فأجاب إلى ذلك الفرنسيس وجرمانيا والمجر وبولونيا فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة في بعضها لهم وفي بعضها له ثم عقد معهم صلحا سنة ٨٤٧. وفي سنة ٤٩ نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسيا فانتقل إليها واعتزل عن الملك وشاع هذا الخبر في الآفاق وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض أن ملك المسلمين قد صار شيخا كبيرا فاعتزل الملك وجعل منصبه لولده وهو صبي صغير لا يخشى منه فاتفق قرال أنكروس وقرال الألمان وقرال جه وقرال له وأميرل طين وأمير بوسنة وصاحب أفلاق وبغدان وطوائف الإفرنج على قتال المسلمين وأن لا يدعو من بلاد الإسلام حجرا على حجر، فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان مراد من مغنيسيا ليكون معهم لأنه سلطان شاع بذكره الأخبار وطال ما أنكى الكفار فأرسلوا يطلبونه فامتنع وقال سلطانكم دونكم فخذوه وخلوني فلم يزالوا يدخلون عليه حتى رضي.

ذكر غزوة عظمى

سار مع ولده السلطان محمد إلى طرف العدو فلما تصاف الطائفتان الجمعان تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطردونهم ويقتلونهم

ولم يبق إلا السلطان مراد خان في القلب، فلما شاهد ذلك الحال رفع يده إلى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبي صلّى الله عليه وسلّم فلم تمض ساعة حتى اغتر قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عساكره فانفرد وجعل يدعو السلطان مراد لمبارزة ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه فسار إليه المسلمون فقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رمح، وجعلوا يصيحون هذا رأس قرال الملعون فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم قتلا ذريعا، وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين. وأما الغنائم والأسرى فلا تحصى ولا تحصر، ثم إن السلطان مراد لما رجع من الغزو وأمضى سلطنة ولده السلطان محمد خان على ما كان عليه. وسار هو إلى طرف مغنيسيا واستمر الحال إلى أن تحرك طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها وكان ذلك في سنة ٨٥٠.

ذكر غزوة أخرى

فعند ذلك رأى الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراد إلى الملك ليسترهبوهم فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك وعاد ابنه السلطان محمد إلى مكان أبيه مغنيسا وبقي بها إلى أن توفي أبوه فجلس بعده واستمر على تخت السلطنة السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار وسار إلى بلاده المورة وباقي الأقاليم المجاورة بها فأخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على آثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الأرناؤوط والمجر إلى أن توفي سنة ٨٥٥ وعمره تسع وأربعون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة. وكان ملكا جليلا صالحا يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء مهد الممالیك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين، وكان مقداما فاتكا شجاعا كريما واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار وللشرفاء من خزينته في كل عام مثل ذلك رحمه الله تعالى وأوصى ابنه محمد أن يهتم بفتح القسطنطينية ويوجه إليها جنوده فتسلطن بعده ولده (**السلطان محمد الثاني**) فاتح

القسطنطينية وهو السلطان الظليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهادا وأقواهم إقداما واجتهادا وأكثرهم توكلا على الله واعتمادا وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين وصارت كالطوق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام ولما تسلطن كان عمره ١٩ سنة فخرج إلى قتال صاحب قرمان فخاف منه صاحب قرمان وصالحه فعاد إلى مقر ملكه.

ذكر فتح القسطنطينية

ثم لم يكن له هم إلا فتح القسطنطينية فشرع في مهماتها ومقدماتها وهي من أعظم البلدان وأكبرها وأمنعها حصنا لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا طرف الغربي وهو طرف يسير، وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية وذلك سنة ست وخمسين وثمانمائة ثم طلب من طرف بلاده أرضا مقدار جلد ثور يهبها له فاستقل ذلك صاحب القسطنطينية، وقال سبحان الله ما يفعل به، فهو له فأرسل السلطان المزبور جماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الأسود إلى بحر الروم فقدوا جلد الثور قدا رقيقا، فبسطوه على وجه الأرض على أضيق محل من فم الخليج فبنوا على القدر الذي أحاط ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا باذخا، فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية، ثم بنى السلطان في مقابلة ذلك الحصن في بر أناضولي حصنا آخر وهو في طرف بلاده فشحنه بالآلات النارية والمرامي الرعدية حتى ضبط فم الخليج، فلم تقدر يسلكه بعده شيء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم ثم وجه عزمه إلى مدينة أدرنة فأمر بإنشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا في بنائها ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الأسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انتقضت المسالمة التي

كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لأسباب جرت فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ فكان ذلك سببا للاستعداد لقتاله وقوة عزمه على ذلك ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل إلى ملوك الإفرنج يستنجد بهم وواعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية إلى الكنيسة الرومانية الغربية، ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه، وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الإفرنج فلم يجد ذلك نفعا إذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معا ومن ذلك الوقت جرت البغضاء في قلوبهم لملك القسطنطينية وتخلوا عنه في المدافعة والمحاماة حتى قال بعض أكابرهم: أحب أن أرى في القسطنطينية تاج السلطان ولا أرى أكليل البابا. فنهض في أوائل شهر جمادي الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفا بعزم صارم ورأي حازم في أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات فخيم على القسطنطينية وبازلها من طرف الشمال وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ فأرسلها عند الحصن الذي أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغازكسن فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجلة وشحنها بالرجال والأبطال ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت في ريح شديد موفقة فساروا في البر على هذه الهيئة حتى انصبوا إلى الخليج الواقع شمالي البلد من طرف مدينة غلظه فامتلأ الخليج من تلك الأغربة، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل، فصار جسرا ممدودا ومعبرا لطيفا وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصونها وإنما كان خوفهم من جهة البر فكانوا حصونها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر يريده الله تعالى فشرع المسلمون في الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة واحد وخمسين يوما حتى أعيد المسلمين أمرها، وما زالوا مثابرين الحصار والقتال، فجمع ملك القسطنطينية أعيان الأمراء والقواد، لما اشتد عليهم الأمر وأخذ يحرضهم على القتال وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع، ثم قصدوا الأسوار وتحصنوا فيها.

ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها

فلما كان اليوم التي فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها قاتل ملكهم قتالا شديدا إلى أن قتل في المعركة، وقتل معه خلق كثير، فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها، يقال إن عدد ما فقد منها مائة وعشرون ألف مجلد وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا ابن ولي الدين باشا قبل هذا التاريخ إلى خدمة العارف بالله الشيخ آق شمس الدين وإلى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما للجهاد والحضور معه في فتح القسطنطينية فحضروا، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقالا: ستفتح إن شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين في هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني من هذا العام وقت الضحوة الكبرى، وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد. فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح، فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول إليه لأنه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكي فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة إلا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال: الحمد لله الذي منحنا فتح هذه المدينة. قال الوزير: فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت الذي أشار به كانت دعوته تخرق السبع الطباق فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولي الدين ويقف عنده فقال: هذا ما أخبر به الشيخ وقال: ما فرحي بهذا الفتح، وإنما فرحي بوجود مثل هذا الشيخ في زماني.

(ومن مناقب) هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوي الأبدان كما هو طبيب لدواء الأرواح. يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع للمرض الفلاني وكان فتح مدينة القسطنطينية نهار الأربعاء لعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين

وثمانمائة، وكانت أيام محاصرتها واحدا وخمسين يوما فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله في عصر من الأعصار لأن السلطان لما شاهد العي والفتور من العسكر في الحصار أمر بأن ينادى أن الغنائم كلها لهم، ويكفيني فتح المدينة فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة فلما شاع خبر هذا الفتح في الآفاق هابه ملوك العالم فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنئونه بالفتح ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه المدينة وصرفوا هممهم وبذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم، وعساكرهم فلم ينالوه إنما حباه الله تعالى لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية وطوية وأحسنهم سيرة وضمن بعضهم هذا المعنى في تاريخ الفتح فقال:

رام أمر الفتح قوم أولون * حازه بالنصر قوم آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخا بفتح المدينة المذكورة بعدد حساب الحروب ٨٥٧ وقيل في تاريخها أيضا بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة بأربعمائة وذلك جائز عن بعضهم وهي كذلك في طيب الهواء ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع بالتوجه إلى كنيستها العظمى أياصوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلى فيها ودعا الله تعالى وحمده وأثنى عليه وجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وعين له أوقافا ومرتبات ثم إن السلطان محمداً التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال الشيخ: إني شاهدت في موضع نورا لعل قبره هناك فجاء إليه وتوجه زمانا ثم قال: اجتمعت مع روحه فهنأني بهذا الفتح وقال: شكر الله سعيكم الذي خلصتموني به من ظلمة الكفر فأخبر السلطان بذلك فحضر بنفسه إلى هناك وقال: ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تريني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي فتوجه الشيخ ساعة ثم قال: احفروا في هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبراني.

فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبراني فقرأه من يعرفه وفسره فإذا هو قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط لولا أن أمسكوه ثم أمر ببناء قبة عليه وقد روى الإمام أحمد بإسناد حسن في مسنده والحاكم عن بشر الغنوي (**لتفتحن**) بالبناء للمفعول (**القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها**) وهذا حديث معجزة من معجزات النبي صلّى الله عليه وسلّم وعلم من أعلام نبوته لأن فيه الأخبار بالغيب ووقع كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه وإن كان الغزو إلى القسطنطينية وقع في زمن الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا طرفا منها في خلافة معاوية رضي الله عنه في الغزوة التي استشهد فيها أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ثم استرجع الروم الطرف الذي افتتح في ذلك الزمن فالفتح التام إنما هو هذا الذي في زمن السلطان محمد الفاتح ففي الحديث منقبة عظيمة له وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أم حرا بنت ملحان رضي الله عنها أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (**أو جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**) فهذا يحمل على أول غزوة وجهت القسطنطينية وهي التي كانت في زمن معاوية رضي الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وكان فيها كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم رضي الله عنهم وكان في ذلك الجيش يزيد ابن معاوية قيل كان هو أمير الجيش وقيل كان الأمير سفيان بن عوف وقوله (**مغفور لهم**) مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمنا فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش، ومات كافرا كان خارجا من عموم تلك المغفرة وهكذا يقال في كل حديث يذكر فيه، أن من فعل كذا (**يغفر له**) أو دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان ومثل ذلك قد يرد في كلام بعض الأولياء بأن يقول أحدهم مثلا: من رآني دخل الجنة أو من أكل طعامي دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان فلا يشكل عليك شيء من ذلك. وبنى السلطان محمد

عند قبر أبي أيوب جامعا عظيما وبعد تمام بنائه ذهب إليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه وقلده الشيخ شمس الدين سيفا بيده ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذي يجلس على تخت الملك يذهب إلى هذا الجامع ويتقلد بالسيف وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى.

ذكر الغزو إلى بوسنة

وفي سنة ثمان وخمس وثمانمائة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم ولم يقم للكفار قائم بعد ذلك هناك.

وفي سنة إحدى وستين وثمانمائة وجه همته إلى افتتاح جزيرة رودس فهدد أهلها وطلب منهم الخراج فامتنعوا وأرسلوا إلى البابا صاحب رومية يستجدون به فأخذ يحث ملوك الإفرنج على محاربة الدولة العثمانية، فلما بلغ السلطان محمداً هذا الخبر نهض بمائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كاد يفتحها فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن ملك المدينة فاستمال نحو أربعين ألفا من العساكر النمساوية وقادهم قائد من المجر فأضر بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة، واستمر السلطان محمد أربعين يوما، وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها، وأما قائد جيشهم الذي هو من المجر فجرح جرحا بليغا هلك به وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أثينا من بلاد اليونان ففتح دوكة وأثينا وهي المدينة الشهيرة فيها.

ذكر الغزو إلى بلاد الصرب والبوسنا والأرناؤوط

وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة توجه إلى بلاد الصرب وفتح فيها فتوحات.

وفي سنة ست وستين فتح أيالة طرابزون وولاية سينوب وأتى بصاحبها أسيراً إلى القسطنطينية فقتله السلطان محمد وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه، وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه على السلطان محمد. وفي سنة سبع وستين وثمانمائة توجه إلى إتمام تملك إقليم بوسنة، وشن الغارات على ولاية الأفلاق

والبغدان والصقالبة، ثم صوب عزيمته إلى فتح بلاد الأرناؤوط وهم صنف من النصارى يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة. قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا من الشام بعد ما أتى الله بالإسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد. وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب إلى هذا الصوب، ثم غلب عليهم الجهل فتنصروا فدخل السلطان بلاد الأرناؤوط فنهبها واستولى على عدة قلاع هناك، وأمر ببناء قلعة حصينة في ثغر عظيم هناك كالسد بينها وبين الكفار وشحنها بالرجال وسماها آق حصار وأودع فيها من المدافع والمكاحل ما يقيها.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ثم استولى على قلاع عاصيه هناك مثل قلعة اركلي وقلعة آق سراي وقلعة كولك وقلعة بولي وجعل الجميع لابنه المذكور. وفي سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغبوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ثم استولى على بقية بلاد الأرناؤوط بأسرها.

ذكر إغراء العجم والتتر على الإغارة والنهب

وفي سنة ٨٧٦ بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر التتر إلى نهب بلاد العثمانيين فجاؤا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ثم اغتر يوسفجه بك فهجم على بلاد قرمان وأغار عليها وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى ابن السلطان محمد، وكان في غاية من الشجاعة فقاتل العدو فهزمه وأسر رئيسهم يوسفجه بك وكبله في الحديد وأرسله مع عدة من الأسارى إلى أبيه السلطان محمد فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر.

وفي سنة ٨٧٧ وقع قتال بين السلطان مصطفى بن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم وظفر بزينل شاه فقتله، ثم صار مصطفى إلى قره حصار الشرقي وهو من بلاد حسن الطويل فاستولى عليها وأدرجها

في جملة ممالكه، وفي هذه السنة بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة فحاصرها حتى غلبها وفتحها ثم افتتح هناك عدة حصون وقلاع.

ذكر الغزو إلى بغدان

وفي سنة ٧٩ سار السلطان محمد إلى قتال كفار البغدان فخاف منه كبيرهم استفان فهرب إلى أقصى بلاده فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر عليه فكانوا خلقا لا يحصى وأسر وسبى ونهب حتى أذعن رئيسهم استفان المذكور بالطاعة وأعطى الجزية. وفي سنة ٨٨٥ صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس فأرسل إليها أساطيل بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر فلم يتيسر فتحها لأنها كانت حصينة ثم ارتحلوا عنها. وفي ٨٦ جهز جيشين عظيمين أحدهم لمحاربة جزيرة قبرص، والآخر لقتال العجم وأدركته الوفاة قبل تمام الأمر. فتوفى ليلة الجمعة آخر شهر ربيع الأول من سنة ٨٨٦ وعمره إحدى وخمسون سنة ومدة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه ٣١ سنة وشهران. وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه، وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه تعالى، قال العلامة القطبي عن بعض أوصاف السلطان محمد المذكور، وللمرحوم المقدس قلادات: منن لا تحصى في أعناق المسلمين لا سيما العلماء الأكرمين قلدها في أجيادهم فهي باقية إلى يوم الدين ولو ذكرت مناقبه لشحنت بها مجلدا أسكنه الله تعالى فسيح الجنان وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان، وتسلطن بعده ولده (**السلطان بايزيد الثاني**) ونازعه أخوه السلطان جم ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها وكان الانتصار للسلطان بايزيد واستقر الملك له، وكان رحمه الله ملازما للغزو في سبيل الله مظفرا على أعداء الله محبا لفعل الخيرات، مكرما للعلماء والصلحاء.

وفي سنة ٨٨٨ سار بعساكره إلى بلاد قره بغدان فافتتح قلعة كلي وقلعة آق كرمان وفيها أيضا فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة وقلعة

كولك. والحاصل أنه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرها مما في تلك الأطراف. وفي سنة ٨٩٧ توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوسنة فظفر بملكها درنجيل وقيده في وثاق وأرسله إلى السلطان بايزيد.

وفي سنة تسعمائة وثلاث بعث جيوشا إلى بلاد الأرناؤوط برا وبحرا وخرج في أثرها بنفسه ومعه أيضا جيوش كثيرة قاصدا السرب وبلاد الأرناؤوط وحارب في تلك الغزو بولونيا وأوقع بها واستولى على جانب عظيم منها وأخذ منها عشرة آلاف أسير ثم عاد إليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة.

وفي سنة خمس وتسعمائة سار السلطان بايزيد بعساكره فاستولى على قلعة اينه بختي، وعلى قلعة قرون وكان السلطان بايزيد ابن السلطان محمد من المجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فما زال غازيا في سبيل الله مظفرا على أعداء الله فكانت به كلمة الإسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وكان محبا لنيل الخير مثابرا على بذل الأنعام والصدقات، محبا للعلماء والمشايخ والأولياء من أهل الكرامات ودخل في طريق السادة الصوفية ودخل الخلوة وجلس الأربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين، ولما دخل الخلوة كان معه والد مولانا أبي السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محيي الدين أفندي وبنى السلطان بايزيد المذكور الجامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكيات والزوايا والخانقاه ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتي الأعظم ومن في رتبته من العلماء العظام في زمنه في كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد في كل عام سبعة آلاف عثماني ولمدارس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثماني وكل واحد من مدرس شرح التجريد ألفى عثماني وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله تعالى من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه وهذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها وغير كسوة الشتاء من الفرو والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته وصار ذلك قانونا

جاريا مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحسانا كثيرا ورتب لهم صررا في كل عام غير ما كان مرتبا من آبائه الكرام وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ولم يكن حكم الحرمين في ذلك الوقت عنده فكانوا يتسعون بها ويرتقون بها ويدعون له فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتي إن شاء الله تعالى وكان إذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن إليه ويرجع عنده بصلات عظيمة ومواهب جزيلة.

ذكر ظهور إسماعيل شاه سلطان العجم

مما كان من العجائب في زمن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ظهور إسماعيل شاه في بلاد العجم وكان ظهروه واشتهار أمره سنة ٩٠٥ وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الأعاجيب فانتشر أمره وفتك في البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والإلحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق وصار يدعو الناس إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد وظهر من أتباع إسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعم الفساد والقتل وقويت شوكته وعظمت على المسلمين فتنته، فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم علي باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغي فاستشهد علي باشا في ذلك القتال ولكن قتل الله ذلك الباغي وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم وكفى الله شر أولئك الأشرار وذلك سنة ٩١٥.

وإسماعيل شاه المذكور هو إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم ابن سلطان خواجه بن علي بن صدر الدين موسى بن صفي الدين إسحاق الأردبيلي وكان أهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي المذكور آنفا وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل الألوية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق

والسلوك والزوايا وسلسلة طريقهم تنتهي إلى الإمام أحمد الغزالي أخي الإمام أحمد حجة الإسلام الغزالي. وقيل إن لهم نسبا ينتهي إلى موسى الكاظم وكان جدهم الشيخ صفي الدين له شهرة كبيرة في مشيخة الطريق وتوفي سنة ٧٣٥، ثم صارت المشيخة إلى ولده صدر الدين ثم في ولده علي ثم في ولده سلطان خواجه ثم في ولده إبراهيم ثم في ولده جنيد ثم في ولده حيدر، ولما كانت المشيخة في جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والأتباع.

وكان جهان شاه التركماني صاحب شروان وأذربيجان متغلبا على ملك العراق وبغداد فتوهم من جنيد وكثرة أتباعه وخشي أنه يتغلب عليه وينتزع الملك منه فأخرج جنيدا ومن معه من أردبيل فتوجهوا إلى دياربكر ثم قوى أمرهم فقاتلوا سلطان شروان فانهزم الشيخ جنيد ثم قتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضا سلطان شروان فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه إسماعيل شاه وكان صغيرا واستمر محبوسا هو وإخوانه وهرب بعض إخوانه من الحبس سنة ٨٩٦ ثم هرب إسماعيل شاه سنة ٩٠٦ وعمره ١٣ سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير في أبيه حيدر فغير اعتقادهم إلى مذهب الرافضة فقصد بجموعه الأخذ بثأر أبيه وجده وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وسرى إليه وهو صغير حين كان في الحبس قيل في تاريخ ظهور مذهبنا حق ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة فقال: مذهبنا حق على النفي فإن نافي الفارسي أداة نفي فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ثم أسروه فأتوا به إلى إسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك في تلك الأزمان من التركمان وغيرهم فما كان يهزم له جيش ولا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم إلى أن ملك

تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان وتعاظم أمره حتى كاد يدعي الربوبية وكان ظالما غشوما أفنى وأباد من الأمم بالقتل ما لا يحصى من العدد وكان عسكره يسجدون له إذا خرج إليه ويأتمرون بأمره.

قال العلامة القطبي في تاريخه: قتل خلقا لا يحصون ينوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية من القتلى ولا في الأمم السابقة مثل ما قتله إسماعيل شاه وقتل من أعاظم العظماء خلقا كثيرا ولم يبق أحدا من علماء أهل السنة الذين كانوا في بلاد العجم وأحرق كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة وكان كلما مر بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه وإخراج عظامه ثم يحرقها وإذا قتل أميرا من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر، ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره أنه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخي والسماط والأطواق والفراش الحرير وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند إليها كالأمراء وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه.

ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرة من يده منديلا إلى البحر وفعل ذلك قصدا وكان في جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم في البحر خلف المنديل ليأتوه به تقربا إليه وليلتمسوا بركة المنديل الذي مسته يده حتى أحصي من رمى نفسه منهم فكانوا نحو ألف صاروا يتخبطون في البحر حتى غرقوا، قيل إنهم كانوا يعتقدون فيه الألوهية وأنه لا ينهزم له جيش إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي كانوا يعتقدونها فيه.

ومما يحكى عن إسماعيل شاه سلطان العجم أنه كان في ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضا للقتال بل ينهزم معهم.

فاتفق أنه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاما حارا في صفحة فشرع الشاه إسماعيل يأكل من وسط القصعة وهي حارة

والمرأة تنظر إليه فقالت: له ما أشبهك أيها الرجل إلا بإسماعيل شاه الذي ظهر في هذا الزمان فإنه يريد أن يقصد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه وذلك خطأ فينبغي له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط فأنت كل من الأطراف حتى يبرد الوسط ثم كل منه فتنبه من قولها وعمل بإشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ما صار وملك جميع إقليم العجم وبواسطته انتشر التشيع وظهر في العجم وسلاطين العجم الموجودون إلى وقتنا هذا من ذريته.

وسيأتي ذكر ما وقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال وكذا ما وقع بينهم وبين ذريته وإنما أطلت الكلام في بيان أحوال إسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك أن كثرة بغيه وطغيانه من جملة الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى قتاله الذي سنذكره مع ما انضم إلى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التي سنذكر أسبابها.

ذكر الحرب والقتال الذي كان بين السلطان بايزيد وولده سليم

لا بد قبل ذلك من ذكر الأسباب الإلهية الخفية التي كانت بتقدير الربوبية ليعلم بذلك أن الأسباب الظاهرية لابد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الأزل، قال العلامة القطب في تاريخه: أن منجما حاذقا كان في عصر السلطان بايزيد الثاني قد أطلعه الله على أمر يتعلق بالسلطان بايزيد فأخبره به وهو أن هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له، وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل إخبار المنجم وكان إخباره له بذلك قبل أن يولد السلطان سليم فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوآت وهي قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات، فقال لها: إذا وضعت إحدى الجواري بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا وإذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتي وأكد عليها في ذلك غاية التأكيد، فاستمرت على ذلك إلى أن ولدت واحدة منهن صبيا، فلما رأته أمه التي ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة، فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة

جميلة ووقع حبه في قلبها فرقت له وقالت في نفسها: بأي وجه ألقى الله تعالى إذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله فأظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد: إنه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة فلما أخبرته بذلك سماها سليمة واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه إلا الله تعالى والقابلة وأم الولد، وصار كلما كبر واتنشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر وإذا اجتمع البنات وجلس بينهن لطم من كان منهن إلى جانبه وهب ما وجد بأيديهن من معلومات الأطفال وغير ذلك وكن يحذرن منه فدخل السلطان بايزيد يوما إلى داخل السراية وكان يوم عيد واستدعى ببناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدي كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة، فشرع في فعل ما كان يفعله مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له فعجب السلطان بايزيد وصار يتأمله جيدا ويفكر في أمره وفي أثناء ذلك دار بينهن يعسوب كبير وأردن أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد إمساكه فهربوا منه فهابوه، فمد الغلام المسمى سليمة يده إليه وهو طائر فأمسكه ومرسه وعقصه ورماه من يده فازداد تعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات: هذا لا يكون أنثى اكشفوا لي عنه، فبادرت القابلة وقالت: نعم هذا صبي وليس ببنت، فقال لها: كيف خالفت أمري وما قتلتيه؟ فقالت: خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتي من قتل معصوم ولا ذنب له، فتفكر طويلا ثم قال: ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه، وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور وسماه سليما إلى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا، ولما أراد الله براز ما أراده وقدره من الأزل من ذهاب ملك السلطان بايزيد على يد ولده سليم أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بإيجاد أسباب لا يحكم العقل فيها بأنها ينشأ عنها الحرب والقتال وذلك أن السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله

عن الحركة بعلة النقرس فأراد النزول عن الملك لولده أحمد وكان أكبر أولاده وأحبهم إليه وقد جعله قبل ذلك أمير أماسية ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد إليهم بأن ولده أحمد ولي عهده فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع طاعته وقتاله وكان قد ولاه أبوه أدرنة فجمع العساكر وتوجه بهم إلى القسطنطينية مظهرا أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راض بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولي العهد وأنه ليس له غرض في الملك وأطلع أبوه بقرائن الأحوال على مراد ولده سليم وأنه إنما يريد السلطنة والملك فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلا ولده المذكور فلاقاه بين القسطنطينية وأدرنه والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنة وجرى بينهما حرب شديد ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه فمنعهم أبوه السلطان بايزيد وقال: اتركوه لعله ينصلح وتوجه سليم هاربا وركب البحر وقصد بلاد كفرة فبينما هم فيه إذ بعث السلطان بايزيد إلى ولده أحمد يدعوه إلى أن يقلده الملك ويترل له عن السلطنة حالا فامتنع وقال إنه لا يمكن أن يقبل ذلك في حياة والده تعظما لوالده وقال أيضا: إنه يخاف من عسكر الإنكشارية لأن هواهم رغبتهم في سليم، فلما علم أبوه إنه ليس لابنه أحمد نصيب في الملك وأن الملك لله يؤتيه من يشاء وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبي أرسل إلى ولده سليم يدعوه ليترل عن الملك ويسلمه له فقدم سليم بالرأي الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الأمراء والوزراء فاستقبلوه وهنئوه بالملك ولما دخل على أبيه قبل يده فدعا له بخير وسلمه الملك وأوصاه بأشياء تليق بالسلطنة، ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لأبيه للإقامة بمدينة ديمتوقه وقال: السيفان لا يجتمعان في قراب واحد فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له السم في الماء فلما توضأ تساقط شعر لحيته فأحس بذلك فقال: ردوني فردوه فتوفى قبل أن يصل إلى القسطنطينية ثم حمل إليها ودفن

أمام مدرسته التي أنشأها بالمدينة المذكورة وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياما، لأن وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمائة وولايته كانت سنة سبع ثمانين وثمانمائة وعمره اثنتان وستون سنة لأن مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وله رحمة الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها.

ومن مناقبه أنه كان يجمع في كل مترل حل فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن ففعلوا ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله صلّى الله عليه وسلّم (**من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار**) ولما توفي السلطان بازيد المذكور واستقر ابنه سليم (على تخت الملك) نازعه في ذلك أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمائة بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة يني شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق وكان إسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامي فلما خنق أحمد هرب بعض أولاده والتجأوا إلى السلطان الغوري وبعضهم إلى إسماعيل شاه فأرسل له السلطان سليم يطلب منه أن يبعثهم إليه فامتنع فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم وإسماعيل شاه مع ما تقدم من انتشار ظلم إسماعيل شاه وسفكه الدماء وإهلاكه الحرث والنسل.

وكان للسلطان بايزيد أيضا أولاد غير أحمد نازعوا سليما وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا إلى ذكر ذلك.

ذكر الحرب بين السلطان سليم وإسماعيل شاه سلطان العجم

ذكر كثير من المؤرخين: أن السلطان سليما كان سلطانا قاهرا قوي البطش عظيم القتل كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفا بمسالك الطرق والمهالك يغير زيه ولباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار وله عدة

مصاحبين يدورون تحت القلعة، وفي الأسواق والجمعيات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروه له في مجلس المصاحبة، فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوثوق منهم، ولما استقر له الملك بعد قتال إخوته وانتصاره عليهم شرع في قهر الملوك والاستيلاء على الأقاليم والملك وبدأ بقتال شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي وكان ذلك سنة عشرين وتسعمائة وكان السبب في قتاله أن بعض أولاد أخي السلطان سليم التجأ إلى إسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع مع ما انضم إلى ذلك من بغي إسماعيل شاه وطغيانه وإفساده في الأرض حتى أهلك الحرث والنسل كما تقدم بيان ذلك في ترجمة إسماعيل شاه فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف، وسار نحو الشرق لقتال إسماعيل المذكور فالتقيا في مكان يقال له جالدران، وكان جيش السلطان مائة وأربعين ألفا في أول خروجه من مقر سلطنته حم أردفها بأربعين ألفا التقى الجيشان واشتد القتال ثم انهزم عسكر العجم واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم إلا القليل وفر إسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ومنع العسكر من المسير خلف المنهزمين، ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهي كرسي مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه وكان مراده أن يطيل الإقامة ببلاد العجم ليفتح جميع بلادهم ويدخلها في ملكه ويرتبها، ولكن اشتد عليه الغلاء لأن السلطان الغوري قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها إليه لأنه كان بينه وبين إسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة حتى أن بعضهم اتهم السلطان الغوري بأنه يعتقد مذهب الرافضة وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم ان إسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر، فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فأحرقت. قال القطبي: وكان من أمر اشتداد الغلاء أن العليقة بيعت بمائتي درهم وبيع الرغيف بمائة درهم. قال العلامة: وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم وكانوا يكثرون مجالسته وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف

معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه في اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه على فصحاء الطائفتين ثم قال العلامة القطبي: ورأيت بينتين بالعربي بخطه الشريف كتبهما في علو المقياس في الكشك الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة والبيتان هما هذان:

الملك لله من يظفر بنيل منى * يردده قسرا ويضمن بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة * فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وتحتها ما صورته وكتبه سليم.

قال العلامة القطبي: ولعمري إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة ونهاية في التمكن من الصناعة، فيدل على مملكته رحمه الله في اللسان العربي أيضا لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربي الفصيح البليغ المنسجم وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية في حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه بها، وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها، ولما فرغ السلطان من قتال إسماعيل شاه واشتد عليهم الغلاء رجع إلى الروم وشتى في مدينة أماسية ولما دخل الربيع رجع إلى بلاد الشرق وافتتح قلعة كماخ وهي أمنع الحصون، ثم افتتح مدينة بيبورد وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير إلى قتال ملك مرعش البستان فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد.

وفي هذه السنة أحب أهل آمد أن يدخلوا في طاعة السلطان سليم فأخرجوا إليهم الذي كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميرا من السلطان فعين لهم بيقلو محمد بيك الآمدي فوصل إلى تلك البلاد.

ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوما وافتتحها ثم افتتح بلاد الموصل وجانة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجمشزك حصن سوران وسائر بلاد الأكراد وعامة جزيرة الأكراد فدخلت هذه البلاد كلها في طاعة السلطان سليم ولم تكن

قبل من الممالك العثمانية بل كان بعضها عند العجم وبعضها عند ملوك من غير العجم تغلبوا عليها.

ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغوري

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغوري صاحب مصر والشام وحلب لأنه كان متواطئا مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره مائة وخمسون ألفا وخرج الغوري من مصر بجيش كثيف لمحاربته والتقى الجيشان في مرج دابق بقرب حلب، واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغوري في المعركة ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم يستقبلون السلطان سليما ويهنئونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل، ودخل مدينة حلب وخطب له فيها وكان الخطباء يقولون في أوصاف سلاطين مصر حامي الحرمين الشريفين فلما خطب الخطيب بحلب قال: في وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين، ففرح بذلك واستبشر مولانا السلطان سليم وعلم أن الله تعالى ينصره على الغوري حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين له، وخلع على الخطيب حلته التي كانت عليه، وكانت تساوي خمسين ألف غرض ثم سار إلى الشام فاستقبله أهلها بالإكرام والاحترام وسألوا منه اللطف والإنعام. فعاملهم بالجميل، وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفا، ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح في مسيره مدينة بيت المقدس ثم سار وفتح مدينة غزة وطبرية وصفد واللجون والرملة ووصل إلى مصر في الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وكان قد تسلطن بمصر بعد مقتل الغوري السلطان الأشرف طومان باي، قيل أن الغوري خاله وكان معه أربعين ألفا من الجراكسة فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر فوقع القتال بين العساكر فانهزم طومان باي وعسكره وقتل منهم خلق عظيم

ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم في باب زويلة وأقام السلطان بمصر نائبا عنه خير الدين بك الجركسي وخرج السلطان سليم من مصر في شعبان من السنة المذكورة وقدم إلى دمشق وعين لأمارتها مع أعمالها الأمير جان بردي فاستولى على مدينة ملطية وديوركي ودارنوه وبهسنى وكركر وكاخته البيرة وعنتاب وأنطاكية وقلعة الروم وأطاعته قبائل العرب المجاورين للشام ومصر.

ولما رجع السلطان سليم إلى القسطنطينية أخذ في تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة فطلع له دمل في جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمل حتى اتسع وصار جرحا عظيما واتسع الخرق على الراقع وتعطل السلطان عن الحركة وعجزت حذاق الأطباء في علاجه وكانت توضع الدجاجة في جرحه فتذوب واستطال به ذلك المرض إلى أن توفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة تاسع شوال وعمره أربع وخمسون سنة ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر.

فائدتان استطراديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا

(الأولى) ذكر كثير من المؤرخين: أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الإشارة إلى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمائة وعشرين وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين وأن السلطان سليمان منهم فقال ابن كمال باشا: أن ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والإيماء والإشارة من قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** * الأنبياء: ١٠٥﴾ وبيان ذلك أن قوله ﴿**وَلَقَدْ**﴾ إذا حسبت على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مائة وأربعين ويقابله لفظ سليم فإن حساب عدد حروفه يبلغ مائة وأربعين وقوله ﴿**مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ إشارة إلى أن ذلك بعد تسعمائة وعشرين لأنه عدد حروف ذكر بعد إسقاط أداة التعريف على قاعدتهم في ذلك فتكون الإشارة في ذلك سليم بعد تسعمائة وعشرين مكتوب في الزبور ﴿**مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾، قيل أن السلطان سليما لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر

وكان ذلك من أقوى الأسباب لخروجه لقتال الغوري وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج ولله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أسرار كثيرة وله في كل شيء حكمة والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها.

الفائدة الثانية

إن مولانا السلطان سليما لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتقات نفسه إلى تملك الأقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين فأراد أن يجهز جيشا ويسيره إلى الحجاز وينتزعه من عمال السلطان الغوري، وكان أمير مكة في ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان وقد كان في سنة ٩١٨ أرسل ولده الشريف أبا نمي إلى مصر لمقابلة السلطان الغوري فأكرمه وأشركه مع أبيه في إمارة مكة وكان عمر أبي نمي في ذلك الوقت ثمان سنين وكان السلطان الغوري حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة منهم العلامة القاضي صلاح الدين بن أبي السعود ابن ظهيرة، وكان سبب حبسه مع من معه أن الغوري طلب منهم مالا مصادرة وظلما مبلغه عشرة آلاف دينار فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم إلى مصر واعتقلهم في الحبس ولما قتل الغوري وتسلطن طومان بك أطلقهم وقيل إنما أطلقهم السلطان سليم، فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش إلى الحجاز اجتمع القاضي صلاح الدين بن ظهيرة بوزيره مولانا السلطان سليم وقال له: لا حاجة إلى تجهيز جيش فإن الشريف بركات يكفيكم هذا الأمر ويحصل لمولانا السلطان المطلوب وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والغلم وأنه أول من يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والأقطار الحجازية ويكفي بدلا عن الجيش أن تبعثوا له توقيعا شريفا من مولانا السلطان فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وأن يكون ولده أبو نمى مشاركا له كما كان في مدة السلطان الغوري وكتب القاضي صلاح الدين للشريف بركات الأخبار

بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبي نمى وجعل ذلك صحبة الأمير مصلح بيك وبعث معه محملا وكان ذلك على إقبال شهر الحج، فلما قدم الأمير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة للكعبة المعظمة خرج لمقابلته إلى الزاهر الشريف بركات وولده أبو نمى وكثير من الأشراف وغيرهم في موكب عظيم ولبس الشريف وولده الخلعتان ودخلوا مكة وأخذوا البيعة لمولانا السلطان سليم ودعوا له في الخطبة وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضى والقبول، ثم أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمى سنة ٢٣ إلى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات، ثم توفي بركات سنة ٩٣١ واستقل ولده أبو نمى بالإمارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم واستمر الشريف أبو نمى مستقلا بإمارة مكة إلى أن توفي سنة ٩٩٢ وعمره ٨٩ سنة لأن ولادته كانت سنة ٩١١ وكانت مدة ولايته إمارة مكة مشاركة لأبيه استقلالا ٧٣ سنة ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاءوا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة، ولما ورد الأمير مصلح بيك إلى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجرى له خيرات كثيرة يرجع ثوابها إليه.

منها أنه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمائة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك وكتب دفترا قرر فيه أسماء جماعة من المجاورين ورتب لكل شخص منهم مائة دينار تؤخذ من خزينة مصر وقرر ثلاثين نفرا يقرؤون كل يوم ختمة وعين لكل واحد اثنى عشر دينار وقسم الأمير مصلح أيضا الذخيرة وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة، فأبقاها السلطان سليم ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف إرْدَبّ حب لأهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل المدينة، وجاء الأمر للأمير مصلح بيك أن يوزع ذلك فجلس في الحرم الشريف

وطلب حضور المفاتي وبقية العلماء والأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطاني واستشارهم في توزيع ذلك، فقالوا له: لابد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات فكتبوا صورة الأمر السلطاني وأرسلوه إلى مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالي في ذلك فكتب إليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف السلطاني وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجلس، فاجتمعوا ثانيا بعد وصول الجواب من مولانا الشريف، واتفق رأيهم على بيع شيء من ذلك القمح ليصرف في نقله من جدة إلى مكة وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد ما يخصه فكتبوا بيوت كل محلة وما في بيوت كل بيت من عدد الأنفار رجالا ونساء وأطفالا وخدما ماعدا التجار والسوقة والعسكر فبلغ عدد الأنفار الذين كتبوهم اثنا عشر ألفا فخص كل نفر ست رباعي بكيل الربع الكبير الذي هو أربع كيل من أربع وعشرين قدحا بالكيل المصري ودفعوا لكل نفر دينارا من قيمة القمح الذي باعوه لأجل نقله من جدة إلى مكة وجعلوا لكل واحد من المفاتي الأربعة ثلاث أرادب وزيد في أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت.

قال العلامة القطبي: وهذه الصدقة أو صدقات الحب الشريف السلطاني، ثم قال: فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدى الزمان فإن دولتهم الشريفة عماد الإسلام وإحسانهم ما زال متواصلا إلى كافة الأنام سيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام فإنهم فازوا بالإنعامات الوافرة في أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة في نوبة هذه السلطنة القاهرة ما لم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا إحسانهم اهـ. كلام القطبي. وقال العلامة ابن علان: أن السلطان سليما كان كثير المحبة لأهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر وهو أول من بعث إليهم صدقة الحب انتهى.

ثم إن السبعة الآلاف الأرادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون

فيها حتى صار لأهل مكة اثنا عشر ألف أردب ولأهل المدينة سبعة آلاف أردب فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها لكل خصلة حميدة مرضية.

ومما فعله الأمير مصلح بيك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفي بمكة فإنه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفا على أربعة أعمدة في صدره محراب وكان صنعة التسقيف المذكورة سنة ثمانمائة واثنتين في مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق، واستمر كذلك إلى أن جعله الأمير مصلح قبة سنة تسعمائة وثلاث وعشرين واستمر على ذلك خمسا وعشرين سنة، ثم هدمت القبة وبني المقام مربعا وجعلت الطبقة العليا للمكبرين، وموضع هذا المقام كان في الجاهلية موضع دار تجتمع فيها قريش للمشورة ويسمونها دار الندوة، ثم اشتراها معاوية رضي الله عنه في زمن خلافته، وصارت يترلها الخلفاء إذا قدموا للحج، ويخرجون منها إلى المسجد للصلاة والطواف، ثم خربت وتهدمت وعمرت في خلافة المعتضد سنة مائتين وثمانين وأدخلت في المسجد وفتحت جوانبها إلى المسجد وجعلت سقوفها على أساطين، ثم غير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمائة وست ثم سنة ثمانمائة واثنتين إلى أن كانت عمارة الأمير مصلح، ثم غيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتي ذكر ما يكون بعد ذلك وقد كانت مذاهب الأئمة الأربعة عليها العمل والاعتماد في الحرمين وغيرهما من أول ظهور الأئمة الأربعة إلى ما بعدهم قد كان الأئمة المجتهدون كثيرين ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم وإنما بقيت مذاهب الأئمة الأربعة وتحررت وتوارد عليها أنظار العلماء حتى أن أهل السنة والجماعة أوجبوا تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها، نقل العلامة السنجاري عن التقي الفاسي أن صلاة هذه الأئمة على هذه الصفة قديمة لكن قال: لا أعلم في أي وقت كانت ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودين مع الشافعي سنة أربعمائة وسبع وتسعين وأن الحنبلي لم يكن موجودا وإنما كان إمام

الزيدية ثم قال: ووجدت على ما يدل على أن الحنبلي كان موجودا في عشر الأربعين وخمسمائة. وفي البحر العميق وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة، وأما كيفية الصلاة في هذه المقامات فإنهم يصلون مرتين الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي وكلام ابن جبير يقتضي أن المالكي كان يصلي قبل الحنفي ثم تقدم عليه الحنفي من بعد سنة تسعين وسبعمائة واضطرب كلام ابن جبير في الحنفي والحنبلي لأنه ذكر ما يقتضي أن كلا منهما يصلي قبل الآخر، وهذا كله في غير صلاة المغرب أما فيها فإنهم يصلون جميعا في وقت واحد ثم بطل ذلك كله في موسم سنة إحدى عشرة وثمانمائة بأمر الملك الناصر ابن برقوق، وصار الشافعي يصلي بالناس المغرب وحده واستمر ذلك إلى أن ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر بأن يصلي المغرب الأئمة الثلاثة في وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك وأول وقت فيه ذلك ليلة السادس من ذي الحجة سنة عشر وثمانمائة انتهى.

(**والحاصل**) أن الأمر كان مختلفا في تقدم بعضهم وتأخر بعضهم واستقر الأمر في عصرنا هذا بعد خروج الوهابي من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين أن الشافعي يصلي في الصبح أولا، ثم المالكي ثم الحنبلي ثم الحنفي وأما بقية الأوقات فيصلي أولا الحنفي ثم الشافعي ثم المالكي لكن لا يصلي في المغرب إلاّ الحنفي ثم الشافعي فقط وكان الحنبلي لا يصلي في مقامه إلى الصبح فقط.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة وألف صدر الأمر من سيدنا الشريف عون الرفيق ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والى ولاية الحجاز السيد عثمان نوري باشا بأن الحنبلي يصلي أيضا بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلي المالكي واستحسن الناس ذلك لأن مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لا يدركون صلاة الأئمة الثلاثة فيصلون جماعة متفرقة، فلما صار الحنبلي يصلي أيضا صاروا يصلون معه ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبي في تاريخه حيث ذكر: أن

عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم إلى أن قال: وكنت أشاهد في سن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتى أبي أدركت الطواف وحدي من غير أن يكون معي أحداً مراراً كثيرة كنت أترصده خليا لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده في جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط وأما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافيا عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على هذه العبادة كثير من الصلحاء لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد في جميع الدنيا ولا يشاركه غيره في تلك العبادة بعينها إلا الطواف فإنه يمكن أن ينفرج به شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر حتى حكى لي والدي رحمه الله إن وليا من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع وإذا بحية تشاركه في ذلك الطواف فقال لها: من أنت من خلق الله تعالى؟ فقالت له: إني من الجن وإني أرصد ما رصدته قبلك بمائتي عام فقال لها: حيث كنت أنت من غير البشر فإني فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه قال: وحكى لي شيخ في معمر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندي وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خاليا من الباعة وكنا نرى القوافل تأتي بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشتري منهم جميع ما جاؤا به فكانوا يبيعون ما جاؤا به بالأجل اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الأسعار رخيصة جدا لقلة الناس وعزة الدراهم، وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون في ظلال السلطنة الشريفة خائضون في بحر إنعامها وإحسانها ونعمتها الوفيرة أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة.

أما بناء المقامات في المسجد الحرام

فأما مقام الحنفي فقد علمت بناءه مما سبق وأما الشافعي فيصلي في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأما مقام المالكي والحنبلي ففي البحر العميق كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وفي تاريخ القطبي بعد أن ذكر عمارة الحريق الواقع في زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ذكر أن فراغ العمارة كان سنة سبع وثمانمائة في مدة إمارة مكة للشريف حسن بن عجلان وأنهم في تلك العمارة عمروا ما في صحن المسجد من المقامات الأربعة التي وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة اهـ. ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا التعمير ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ فعله وعبارة البحر العميق تقتضي أن التعمير الواقع سنة سبع وثمانمائة هو أول إحداث مقام المالكي والحنبلي حيث قال: كان عمل هذه القامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ومقام المالكي بين الركن اليماني والركن الغربي ومقام الحنبلي على حذاء الركن الذي فيه الحجر الأسود في سنة ١٣٠٠. قال كثير من الناس: أن المقام المذكور منحرف وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه فيكون سببا لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف وسببا لانحراف صف الشافعي الأول خلف مقام إبراهيم عليه السلام فإن الصف الأول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلي يحصل فيه انحراف وعدم استقامة فلو جعل مقام الحنبلي متوسطا بين الركن اليماني والركن الذي فيه الحجر الأسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى، ورفع الأمر إلى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالي ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نوري باشا ثم وقع الإشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطا فأنهى الأمر إلى باب السلطنة السنية وجاء الإذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثاني فهدم المقام المذكور سنة ٣٠٠ وجعل متوسطا كما هو موجود الآن فجاء في غاية الحسن، هذا وقد طال

الكلام الإستطرادي لإرتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثيراً للفوائد فلنرجع إلى إتمام الكلام الأول فنقول: إن الأمير مصلح بيك لما أتم ما كان مأموراً بإجرائه بمكة من الخيرات توجه إلى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وقسم الصدقات التي لأهل المدينة المنورة وأجرى كثيراً من الخيرات ثم توجه إلى دار السلطنة السنية.

ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان

ولما توفي السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولي عهده، وكان غائبا في سروخان واليا عليها فأخفى الوزراء موت السلطان سليم إلى أن حضر ولده السلطان سليمان فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم، وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع، وكان محبا للجهاد ولنصرة دين الله ومرغما أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه وكان مؤيد ان في حروبه ومغازيه، مشهوداً في وقائعه ومراميه أبان سلك ملك وأين توجه فتح وفتك وأين سافر سفر وسفك وصلت سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة والواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب وأيد الدين الحنيفي بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنفية وأحيى ما لها من مآثر ونصر مذهب السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع ودفع أهل الإلحاد وقمعهم فما لهم من ناصر، وكان رحمه الله سلطانا رفيع القدر حسن الطبع في الحرب والسلم موصوفا بالعلم والحلم والحزم.

قال العلامة القطبي في وصفه: وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر فقد ورد (**أن لكل قرن مجدداً**) شأنه ظاهر، هذا مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الغض الذي يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر، وكان يعرف الألسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية وينظم نظما بارعا حسنا، وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة وله ديوان فائق بالتركي وآخر عديم النظير بالفارسي يتداولهما بلغاء الزمان، وكان رؤوفا شفوقا صادقا صدوقا إذا قال صدق وإذا قيل

صدق لا يعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوئ الأخلاق بل هو صافي الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الإيمان سليم القلب خالص الجنان لا يرتاب أحد في كمال ديانته ولا يشك في صلاحه وولايته. قال القطبي بعد ما ذكر:

وما تناهيت في بثي محاسنه * إلاّ وأكثر مما قلت ما أدع

ولد رحمه الله سنة تسعمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمائة في شوال وأطال الله عمره وطول دولته حتى بلغت ثمانية وأربعين سنة وشهوراً وعاش أربعا وسبعين سنة، وكان رحمه الله شجاعا كريما حسن الخلق والخلقة فإنه كان ذا صورة جميلة ظاهرا وباطنا وهو الذي أسس قواعد الدولة العثمانية ومهد الملك لهم وسهل الأمور وفتح البلاد ووضع كثيرا من القوانين الموافقة للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة وكان شديد المحبة للغزو والجهاد للكفار فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات.

ذكر أول فتح له وانتصار

أول فتح لمولانا السلطان سليمان وانتصار انتصاره على والي دمشق لما خلع طاعته عند سماعه بموت أبيه وأراد أن يكون سلطانا وهو الأمير جان بردي بيك الغزالي وأصل ذلك أن المرحوم السلطان سليمان استخدم من أصحاب الغوري أميرين وهما خير الدين بيك وجان بردي بيك الغزالي وكلاهما من الجراكسة، وكان بينهما وبين الغوري عداوة، وكان يكرههما وهما يكرهانه فلما كان القتال بين الغوري والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغوري أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجابا أمامه ووقف الغوري مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهم متأخرين عنهما وأراد بذلك أن يقتلا بالبنادق في أول القتال فيسلم هو ومن معه فتفطن خير الدين بيك والغزالي لذلك، فأرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه الأمان فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وتعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن

يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك القتال، فلما تلاقى العسكر فر خير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفر الغزالي بمن معه من الميسرة وبقي السلطان الغوري ومن معه في القلب فهلك من هلك وهرب من هرب وقتل الغوري تحت سنابك الخيل، فلما تم الأمر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرب خير الدين بيك والأمير جان بردي وأدناهما ثم ولي الأمير جان بردي دمشق والأمير خير الدين مصر فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما فلما بلغ الأمير جان بردي والي دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها فجمع جموعا، وسار إلى مدينة حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة فلم يقدر عليها، وكان نائب حلب إذ ذاك قرجه أحمد باشا فجد في دفعه واجتهد فرجع جان بردي إلى دمشق وزاد في تحصين القلعة وترميمها فأرسل إليه السلطان سليمان وزيره فرهاد باشا في عسكر كثير فالتقوا مع عسكر جان بردي في موضع يقال له المصطبة بأرض القابون وذلك في صفر سنة ٩٢٧ فانهزم جان بردي وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل و لم يبق له ولا لجنوده أثر. وقال القطبي: أنهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الباب العالي فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع إلى دار السلطنة فخلع عليه السلطان وزاد في قدره ورتبته.

ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان

الغزوة الأولى قتال قرال انكروس لارش ويقال لهم المجر كان من سعودات السلطان سليمان بن سليم، أنه في أول ولايته كان بين دول الإفرنج اختلاف واضطراب وفتن بين الفرنسيسي وأسبانيا وإيطاليا فاغتنم السلطان سليمان هذه الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة ٩٣٧، وكان رحمه الله محبا للجهاد في سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه لإعلاء كلمة الله لم ترتفع راية الإسلام على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر منه جهادا ونصرة للدين فبرز بجيوشه بنفسه من القسطنطينية براً لإحدى عشر ليلة مضت من جمادي الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر

جرار وجيش كثير وأمر بتجهيز أساطيل كثيرة بحراً فجعل منها ٥٠ للمجاهدين وأربعمائة للدواب والأثقال وسيرهم حتى دخلوا في نهر الطونة فأرسلوا بقرب بلغراد وهي مدينة حصينة لها سور منيع وقد أحاط بها نهران عظيمان، وهما نهر الطونة ونهر منارة، قيل أن السبب في هذه الغزوة أن المجر قتلوا المباشر الذي كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخراج فكان ذلك سببا لغضب السلطان وجعل السلطان خروجه على طريق وارنة ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشا حاصروا قلعة بوكردلوه وهي قلعة حصينة على شاطئ نهر صاوه فحاصروها حتى ملكوها ثم توجهوا إلى بلغراد ثم لحق بهم السلطان وصاروا جميعا محاصرين بلغراد ولم يزل يشتد الأمر ويعظم القتال حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيرا من الكفار وفازوا بغنائم لا تحصى واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب كثيرا منها، فلما شاهد الكفار هذا الفتح العظيم جاؤا له بمفاتيح ثمان قلاع منيعة هناك ثم أمر السلطان بتعمير ما تهدم من قلعة بلغراد وعين لها أميرا وقاضيا ورجع إلى كرسي سلطنته سالما غانما في شهر ذي القعدة الحرام من سنته.

الغزوة الثانية غزوة رودس

وهي جزيرة في وسط البحر ما بين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصنا حصينا فكان في غاية الاستحكام مكينا جعلوه لأخذ المسلمين وأتقنوه في غاية الإتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين، وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة إلى السفائن التي تمر في البحر من مسافة بعيدة فيتهيئون للتحصن إن كان ذلك عسكرا من المسلمين ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبدا يجهزون أموالهم إليه لتصرف في استحكام بنائه وإتقانه وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمي على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة في وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب

ويهيئون أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة إذا أحسوا بسفينة في البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا إليها تلك الأغربة وأخذوها وغنموا ما فيها من الأموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم، وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك، فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الأذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم وكان سفره الميمون إليها ونزوله ومخيمه الشريف في أسكدار متوجها إلى هذا الغزو لعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة وكان عدة الجيش الذي جهزه مؤلفا من مائتي ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمائة سفينة فأحاطت الجيوش برا وبحرا بجزيرة رودس وحاصرها فأرسل ملكها يستنجد بملك الفرنسيس وملك أسبانيا فلم يجيباه لما كان بين ملوكهم من الفتن فأرسل البابا صاحب رومة إليهما يحثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة لأنها من الحصون المانعة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين، فلم يلتفتا إلى كلام البابا وفي رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآها قلعة حصينة كان بانيها ماهرا في الهندسة بحيث أنه بنى سور القلعة تحت الأرض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وجعل للبلد سورين في عرش سبعة أذرع وملأ ما بينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ولها من جانب البحر ميناء عظيمة مدورة كالحوض ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ولها بعض بروج تناغي في الرفعة والإحكام سمك السماء وحضر خير الدين بيك صاحب مصر في أربعة وعشرين غرابا إمدادا للمسلمين واستمروا في أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق والمدافع مدة تزيد على ثلاثين يوما وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيئا. قال العلامة القطبي: وما أمكن من في البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذي

حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ولا أمكن أيضا القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر والرمي على من يقربها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبال وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا إلى أن وصل التراب في الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه فصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق ونقب الأسوار من تحت الأرض، ثم أنهم ملأوا الثقوب بالبارود وأضرموها بالنار فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها إلى القلعة، فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الأمان فأمنهم السلطان ثم رجعوا عن ذلك لأنه أتاهم مدد من الكفار في عدة مراكب في الليل فشرع المسلمون في الحرب ثانيا.

قيل إنهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت خرابا حتى اضطر الكفار وطلبوا الأمان وأرسل أمير القلعة خمسين نفرا من كبارهم بالرسالة فقبل السلطان سؤالهم فأمنهم وأذن لهم في المسير مع جماعة وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عددا كثيرا مأسورين عندهم من الأشراف والأعيان والعباد من مدة متطاولة في سلاسل وأغلال فأطلقوهم وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة ويتسربه من بلاد إيطاليا فأقاموا فيها إلى أن نقلهم الملك شركان إمبراطور أسبانيا إلى جزيرة مالطة فنسبوا إليها فكانوا يقال لهم شقالرية مالطة وصارت من ذلك العهد دار إقامتهم إلى أن استخلصها منهم بونابرت وهو آت إلى مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة، ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينة رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقي بها وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسعمائة وتسع وعشرين وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس بذلك

تواريخ ألطفها يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللهِ ٩٢٩ وفتحت عدة قلاع في ذلك العام ورجع السلطان إلى القسطنطينية كرسي ملكه سالما غانما.

ذكر عصيان أحمد باشا والي مصر وخلعه السلطان وأخذ البيعة من الناس لنفسه

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربى معه ونشأ في خدمته وملازمته اسمه إبراهيم باشا وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا فظن أن وزارة الصدارة لا تتعداه إلى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه فأعطى السلطان سليمان الصدارة لإبراهيم باشا فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة في كثير مما يتعلق بالصدارة، فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان ودبر في إزالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعا كثيرة يستجلب بها خاطره فمضى إلى مصر واليا وصار يتعقبه إبراهيم باشا في أشياء كثيرة للعداوة السابقة ويرميه عند السلطان بما يوجب قتله فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه في محله بالأمر الشريف السلطاني ويتولى أحدهم مكانه إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة من يختاره السلطان وأرسلت هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المذكورين فجمعهم في ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطاني ورد إليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوي إلى جبل يعصمه من السلطان وإنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر. فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر في أيام الجمع ورتب عسكرا بمصر من العوانية وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى أهل قلعة الجبل وجمع عليهم الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوي ومحمود بك وأراد قتلهما وقد أخر الله

أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقا سلطانيا ونا ديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه، فاجتمع تحت الصنجق السلطاني خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمود بك وجانم الحمزاوي بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجل النصف الثاني هجوم العسكر السلطاني عليه فهرب إلى السطح وتخلص من مكان إلى مكان وخلص إلى البر والتجأ إلى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية يسمى عبد الدائم وقوى العسكر السلطاني ونهبوا ما جمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا إليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فآتاهم فقطعوا رأسه وطافوا بها مصر وعلقوها في باب زويلة، ثم جهزوها إلى الأعتاب السلطانية وذلك في سنة تسع وعشرين وتسعمائة وضبط مصر محمود بك وجانم الحمزاوي إلى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة متواليا مصر واستمر إبراهيم باشا في وزارته العظمى، ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم إلى مصر لإصلاحها فجاء إليها بغاية العظمة والإقبال ونظر في أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ورجع إبراهيم باشا إلى دار السلطنة فكان مقبولا معظما عند السلطان نافذ الأمر والنهي إلى أن أفرط في الدلال وزاد في الإدلال فاستبد بالأمور واستقبل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وإدلاله وكثر حاسدوه فوشوا به إلى السلطان سليمان وقالوا له إنه يريد قتل السلطان والجلوس على تخت السلطنة، فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الأمر، فقال يوما لإبراهيم باشا وهما في مجلس أنس: إني أريد أن أجعل السلطنة لك، فقال: العفو يا مولانا السلطان فإن العبد لا يبلغ مرتبة السيد، فقال له السلطان: لابد من ذلك، فقال إبراهيم باشا: يكفي أن يتفضل مولانا السلطان عليّ بأن يأمر في دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمي فإني أكتفي بالمشاركة في السكة فلما أطلع السلطان على صحة ذلك الأمر بالقرائن التي ظهرت

له أمر بقتله فطلبه السلطان في ليلة من ليالي أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جاري عادته بنفائس وإنعامات وافرة ووهب له جميع ما كان في مجلسه من أواني الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده في مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه إلى أن غلب سلطان المنام على مقتلته وأماقيه فأمر بذبحه فذبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيرا وكان السلطان قريبا من موضعه، وقد صمم في أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفى نبراسه وأخمدت أنفاسه.

ولعل كثرة إحسانه إلى الناس ونشر مكارمه التي زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى في الدار الآخرة ولعله صدقت نيته في بعضها فصادفت قبولا وصارت له عند الله ذخرا، فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء الأبرارا، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** * فصلت: ٤٦﴾، وكان قتله في الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمائة وإحدى وأربعين وفي قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولي الأبصار والمستبصرين ورحم الله القائل:

ومصاحب السلطان مثل سفينة * في البحر ترعد دائما من خوفه

إن أدخلت من مائها في جوفها * أدخلها وماءها في جوفه

وفي سنة ثلاثين وتسعمائة هلك سلطان العجم إسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طهماسب شاه.

ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسلطان سليمان

في سنة اثنتين وثلاثين حضر إلى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان مضمونها الشكاية إليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده وذكر في تلك الكاتبة تفخيما وتبجيلا وتعظيما كثيرا لمولانا السلطان يستعطفه به فأجابه إلى مطلبه وأنجده وجهز له جيوشا كثيرة برا وبحرا، فكانت تلك الجنود مع

الفرنسيس إلى أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدما وأتباعا للدولة العثمانية.

الغزوة الثالثة إلى الأنكروس

في سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الأنكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ولم ينجح فيهم التخويف والموعظة، فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهز لهم جيشا يبلغ مائتي ألف مقاتل، وقيل ثلاثمائة ألف، وخرج بنفسه، فلما وصل إلى بلغارد لم يزل مشغولا بفتح الحصون والقلاع جاء أكثر أهلها يطلبون الأمان وسلموا مفاتيح القلاع، ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى إلى نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا، فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسرا ممدودا أمام قلعة هرسك فاجتاز العسكر منه إلى البلاد الكفار ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع فبقي المسلمون في بلاد الكفار وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم، ولما سمع القرال لارش ويقال له أيضا لارس وهو رئيس كفار أنكروس أعني المجر جمع جنوده، وسار بهم من كرسي مملكته إلى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وأن يبادرهم في القتال اغترارا بمن معه من الجند وخيم في مفازة هناك تسمى صهارج وأشرف المسلمون محل الكفار وربوة القتال فرتبوا الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب وتضرع السلطان إلى الله تعالى رسالة النصر وتوجه إليه بالنبي صلّى الله عليه وسلّم وجعل أمام العسكر في هيئة الحاجزين العسكرين مائة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الكبار وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ووقف عساكر السلطان الانقشارية تسع صفوف كما هي عادتهم في الحرب وهجم الكفار بأجمعهم على القلب فرأوا أنه لا سبيل إلى العبور بسبب العجلات فانحازوا إلى طرف اليمين فوقع بينهم وبين عسكر المسلمين أهل روملي مقتلة عظيمة، فلما علم الكفار أنهم لا طاقة لهم بهم انحازوا إلى طرف عسكر

أناضولي فاقتلوا أيضا معهم قتالا شديدا، وكان قد أصاب رئيس الكفرة القرال لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه فتضعضعت جنوده عن المقاومة وامتد القتال إلى غروب الشمس، ثم انتصر المسلمون وانهزم الكافرون وصاروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى صارت أجساد الكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل وغنم المسلمون من الأموال والدواب شيئا لا يحصى، قيل أن القتلى من الكفار عشرين ألفا ثم أغار الجند على بلاد أنكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤا بالأسرى والغنائم واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع في الجهة الجنوبية من تلك المملكة، ثم رجع قافلا إلى القسطنطينية في أواخر شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة.

الغزوة الرابعة إلى البلاد النمسا وقرادنز

كانت هذه الغزوة سنة ٩٣٥ وسببها أنه اجتمع كفار النمسا والألمان وقرادنز وأغار على قلعة للمسلمين تسمى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة فلما بلغ الحضرة السلطانية ما فعلوه استشاط غيظا وأمر بالتجهيز للغزو ليحصل قمعهم فبرز من دار السلطان إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر راحلا بجيوش كثيرة إلى أن وصل إلى المخيم العالي فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت بخراج أنكروس كل عام فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالأمان وعادت إلى بلادها واستمر الوطاق السلطاني وتوجه كثير من العساكر إلى محاصرة قلعة بدون التي كانوا أخذوها فحاصروها وضيقوا على من فيها إلى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وكان فتحها بعد حرب شديد، ثم ولوا هاربين ومأسورين ومقتولين لأربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ثم فتحت قلعة تياق حصاري ثم توجه العساكر إلى محاصرة قلعة أخرى قريب تخت النمسا كانت من أعظم قلاع الكفار فأحاط الجند بها وحاصروها

فطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة مولانا السلطان، ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الإسلام غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت وأخربت ونهبوا من كانوا نازلين بأطرافها وحواليها وسبيت أولادهم ونساؤهم وعاد السلطان إلى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة.

الغزوة الخامسة إلى بلاد النمسا أيضا

في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من القسطنطينية بمائة وعشرين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع لحرب النمسا ونازل مدينة فينا عاصمة مملكة النمسا وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال وحصلت أمطار شديدة تأذى المسلمون منها وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر وصعد بعضهم على الأشجار هربا من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم في مشقة شديدة حتى انكشفت المياه، ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة وقتلت عسكر الانكشارية الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ولما وصل مولانا السلطان إلى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه وأجلسه عن يمين كرسيه ولما أراد الانصراف خلع عليه خلعة ثمينة وأعطاه ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ورجع السلطان إلى مقر سلطنته سالما.

الغزوة السادسة إلى بلاد الألمان

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن قرال النمسا جمع طائفة من كفار الألمان وأراد الإفساد والطغيان فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى المبادرة إلى قتال هذا اللعين فجهز الجيوش برا وبحرا وأرسل في شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظة وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غرابا مشحونة بالعساكر الأبطال فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبى كثيرا منهم وتوجه مولانا السلطان برا من

دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة، فوصل بجيوشه إلى مملكة الألمان وأحاط بما فيها من الحصون والقلاع بعساكره وضيقوا عليها ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيرا من زراري الكفار وغنموا ما لا يحصى من الأموال وقتلوا من الرجال ما لا يخطر بالبال وهرب ملوكهم وتركوا صعلوكهم وبذلوا ما بقي معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة السنية إلى سؤالهم وكتب لهم توقيع الأمان وعاد مولانا السلطان إلى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة.

الغزوة السابعة إلى بلاد السرب

في سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمائتي ألف مقاتل لمحاربة السرب فافتتح في طريقه أربع عشرة قلعة واستولى على أكثر حدود بلاد النمسا ثم رجع إلى القسطنطينية سالما غانما.

وفي سنة أربعين عقد صلحا مع ملوك الفرنج أهل أوروبا ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل بينهم.

الغزوة الثامنة إلى بلاد العجم

في سنة أربعين وتسعمائة توجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى محاربة العجم فجهز جيوشا كثيرة وأرسلها مع الصدر الأعظم في أوائل شهر ربيع الأول فافتتح كثيرا من القلاع والحصون والمدائن ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه في ثامن ذي القعدة حتى انتهى إلى تبريز فاستقبل الصدر الأعظم قبل وصوله إلى تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم وهرب سلطان العجم وصار ينتقل في الجهات والأطراف حتى انتهى في هربه إلى خراسان ولما وصل مولانا السلطان إلى تبريز استقبله أهلها وهنئوه بالقدوم، فلما جاء الشتاء توجه إلى مدينة بغداد، وكانت بيد سلطان العجم، وكان له نائب بها وهو بكلو محمد خان فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث إليه بالطاعة ثم هرب إلى بلاد

العجم فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان إسماعيل شاه نقض تربته وهدمها فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهدا عظيما وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام وبنى في بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر، وكان دخول مولانا السلطان بغداد في ثامن عشر جمادي الأولى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ولما أقبل الربيع نزل مترلا يقال له صاروجه قمش، ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل في بلاده حتى وصل إلى مدينة دركزين فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح وكتب إليه سلطان العجم أنه لا يقاتل أبدا ويرجوه من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأل العفو وأن يعود مولانا السلطان إلى بلاد الروم وأعطى العهود أنه لا يخون وتكون البلاد التي أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبدا وأنه يكون تحت خدمته يلبيه كلما دعاه فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحا وأمر العساكر بالرجوع فرحل بهم ورجع إلى مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وزينت المدينة واستبشروا بقدومه وألطف تاريخ قيل في ذلك: فتحنا العراق.

الغزوة التاسعة إلى مملكة أسبانيا وجزائر الغرب

كانت هذه الغزوة في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة كما في التاريخ القبطي وذكر بعض المؤرخين: أنها كانت في سنة خمس وأربعين وحاصلها أن مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمائة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا فافتتح عساكر البر البحر قلاعا وحصونا كثيرة بعد حروب كثيرة وتملكوا أربعة وثلاثين حصنا وخمسا وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا وضربوا مراكب البندقية، وكانت مائة وسبعة وستين فشتتوها وسلمت البندقية لمولانا السلطان قلاع نابولي وورمانيا وغيرهما ودفعت لمولانا

السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع سالما منصورا مظفرا وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم مما لا يحصى.

الغزوة العاشرة إلى البغدان

وكان هذه الغزوة في سنة أربع وأربعين وتسعمائة توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة إلى بلاد البغدان وقتل فيها وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالا كثيرة وأسر نفوسا عديدة غير محصورة وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيدا من عند الله سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل إلى دار السلطنة لست بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وتسعمائة.

الغزوة الحادية عشرة إلى اسطبور من بلاد أنكروس

سبب هذه الغزوة أن مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها أردل بانو بتلك البلاد ثم توفيت فأراد قرال النمسا أن تتملك تلك البلاد فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة إلى قتال قرال النمسا، فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطاني فر هاربا إلى الجبال وتقهقر عن القتال فتبعته الأبطال ففر منهم فجالت العساكر المنصورة في تلك البلدان وقتلوا أهل البغي والعدوان وسبوا الأولاد والأطفال والنساء وتركوا ديار الكفر قاعا صفصفا وغنموا مغانم كثيرة وفتحوا قلعة اسطبور وفتحت أيضا قلعة رشوة وقتلوا من الكفار ما لا يحصى وعاد مولانا السلطان بعساكره إلى مقر سلطنته منصورين مؤيدين.

الغزوة الثانية عشرة غزوة استرعون

كانت هذه الغزوة سنة ٩٥٠ وذلك أن مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد الروملي من طوائف الكفار بالغزو والجهاد فتوجه من دار سلطنته بالجيوش المتواترة وسار إلى أن أحاط بقلعة واليوه وقلعة شقلا ولاشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون فحاصرها إلى أن فتحهما في غرة ربيع الأول من العام المذكور ثم افتتح قلعة استرعون وهي قلعة في غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والأموال

مملوءة بالعدد والعدد الوافر فحاصروها وألقى الله الرعب في قلوب أهلها، ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذا وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الأموال وسبيت النساء والأولاد والأطفال وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع والقلاع وكذلك فتحت قلعة استولين ببلغارد وهي قلعة سامية العماد وعين لها ولغيرها من القلاع الأمراء الحفاظ النبلاء الأيقاظ ونصب لكل منها قاضيا يجري الأحكام الشرعية وسنجقا للاستحفاظ، وصارت من الممالك المحروسة السلطانية وصارت البيع والكنائس مساجد للصلاة والعبادات، ورجع مولانا السلطان إلى كرسي ملكه مظفرا منصورا.

الغزوة الثالثة عشرة سنة أربع وخمسين وتسعمائة

هذه الغزوة كانت إلى الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وإنما جهز الجيوش وأرسلها إلى طائفة من الفرنج يقال لهم البرتوقال وسببها كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم في بحر الهند، فأرسل سلطان الهند إلى مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو إليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا على ممالكه ويطلب نجدة من مولانا السلطان فجهز إليه عساكر في مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا فوصل بها إلى الهند ودفع البرتوقال فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين إلى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها ورجع سليمان باشا إلى اليمن ثم إلى دار السلطنة غانما سالما.

الغزوة الرابعة عشر إلى بلاد العجم

كانت هذه الغزوة أيضا سنة أربع وخمسين وتسعمائة إلى بلاد العجم وسببها أن سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمى القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ثم وقع بينهما اختلاف آل الأمر منه إلى القتال ولم يكن للقاسب طاقة لمقاومة أخيه وجيوشه ففر هاربا مع جماعة من خواصه إلى الروم ملتجئا إلى مولانا السلطان سليمان فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الأحمر شيئا كثيرا ووهب له عدة أحمال من الأقمشة وعدة

خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه إلى المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر، وفي الثامن من شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمائة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصدا بلاد العجم، فلما قرب من حدود أذربيجان نزل ببرهان واستخلص شروان من يد جماعة طمهاسب، وفي عشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة وصل إلى تبريز وفوض أمرها إلى القاسب ميرزا أخي سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه، فلما تولى القاسب إمارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم على عادة ملوك العجم فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه، وكان قصد السلطان أن يسير على مدينته وأن يخلصها منه لأنه ملكها من نواب السلطان بعد أن ملكوها فوصل إليها في عاشر رجب، وكان طهماسب شحنها بالرجال والأبطال وأحصنها غاية الإحصان ولم تزل العساكر يعالجون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها، فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلى بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع إليه واستشفع به فشفع القاسب عند السلطان سليمان في إعطائهم الأمان والعفو عنهم فقبل شفاعته فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الأعلام الإسلامية وولى السلطان إسكندر باشا الدفتري أمير الأمراء بها، ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير إلى طرف دياربكر فسار يشتي حتى وصل إلى مدينة آمد فبينما هو مخيم فيها إذ ورد أن العجم لما بلغهم عود السلطان دخلوا مدينة أذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع، فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير إليهم وعضده بجماعة من العسكر واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم، ثم أن القاسب أخا سلطان العجم تضرع إلى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم إلى بلاد أصفهان وقم

وقاشان لأن بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه فأجابه السلطان سليمان سؤاله وعضده بطائفة من عساكر الأكراد والأعجام واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل إلى حلب ووصل القاسب بمن معه إلى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل إلى حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ثم عاد إلى بغداد وشتى بها ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولي بغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت أن عرض محمد باشا إلى السلطان سليمان بأن القاسب ترفض ورفض طاعة السلطان و لم يكن الأمر على حقيقته وإنما هي مكيدة فعلها في حقه بغضا وعداوة فلما اطلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب إلى بلاد الأكراد و لم يزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة.

الغزوة الخامسة عشرة إلى بلاد العجم أيضا

وفي سنة ستين وتسعمائة كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب في غرة ذي الحجة، ولما وصل إلى أذربيجان كتب إلى سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره على ترك الحرب والاختفاء في الكمون ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل إلى مدينة وان وهي من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعا وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ثم لم يزالوا كذلك حتى وصلوا في سادس عشرين شعبان من سنة إحدى وستين وتسعمائة إلى مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور شامخة لأركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته، فلما دخلها العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها فصارت البلد كأنها أرض قفراء ما عمرت قط وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدروا على قتله، ثم أغاروا على مراغة فنهبوا وأحرقوا واقتتلوا مع

ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم وأخذوا تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم، وفي أثناء ذلك وصل وفد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب محصله أنه ندم على ما أظهر من عداوة وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ إلى عتبة السلطان يطلب منه الصلح فأجابه إلى مسئوله وخلع على الوافد ثم توجه السلطان وشتى بمدينة أماسية ثم رجع إلى كرسي مملكة القسطنطينية.

الغزوة السادسة عشرة إلى سلطان المغرب

لهذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق وهو يدل على ضخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلو همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وإن لم يخرج فيها السلطان بنفسه فينبغي ذكره لغرابته تتميما للفوائد وهو ما ذكر في تواريخ أهل المغرب منها التاريخ المسمى نزهة الحادي في أخبار أهل القرن الحادي وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبد الله الأفراني المراكشي وذلك أنه ذكر هذا الخبر في ترجمة السلطان الملقب بالشيخ أبي عبد الله محمد المهدي بن أبي عبد الله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش وفارس.

(**وحاصل**) ذلك الخبر أن السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه تلقب بالمهدي وتاقت همته إلى بلاد المشرق فكان يقول لابد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج الأتراك من أحجارهم وأنازلهم في ديارهم فبلغت مقالته مولانا السلطان سليمان العثماني وكان أبو عبد الله لا يسمي سلطان العثمانيين إلاّ سلطان الحواته لكون الغالب على الأتراك سفرهم في السفاين فأنهى ذلك للسلطان سليمان العثماني فبعث له أناسا برسالة فلم يحتفل بهم بل قال: اخبروا صاحبكم إني مقتحم عليه بلاده ومتوجه للقائه. فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبي عبد الله الشيخ وما قاله لهم، بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين بالجزائر أن يأتوا برأس أبي عبد الله، فبعثوا رجلا من أبطال جندهم في شرذمة من

الأجناد مظهرين أنهم هربوا من السلطان العثماني ورغبوا في خدمة أبي عبد الله ونيتهم المكيدة به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك، فلما قدموا على السلطان أبي عبد الله فرح بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه وكان عنده جماعة من الأتراك استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم، فلما حضر هؤلاء الأتراك فرح بهم الأولون، إذ كل غريب للغريب نسيب وأن من الغريب يعجب الغريب. فلم يزل الأتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبون المكيدة للفتك بأبي عبد الله فسافر للقتال بعض العصاة عليه فلما كان بجبال درنة بموضع يقال له أثلاثة دخلوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسكر وبقية الخدم فضربوا رأسه بشافور ضربة واحدة أماتوه بها واحتملوه في مخلاة وذهبوا به في الظلماء عامدين إلى جهة سجلماسة كأنهم رسل إلى تلمسان لئلا يفطن بهم أحد ثم أدركوا في بعض المواضع فقاتل معهم طائفة حتى هلكوا وهرب بعضهم بالرأس إلى أن أبلغوه للسلطان سليمان بالقسطنطينية فلم يزل الرأس معلقا بها إلى أن تلاشى وكان قتله في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة وحمل جسده إلى مراكش ودفن في قبور الأشراف انتهى.

الغزوة السابعة عشرة لم يخرج فيها السلطان بنفسه

في سنة أربع وستين أيضا سارت جيوش السلطان سليمان إلى اليمن لإصلاح اليمن وتملكه ودفع المتغلبين فيه فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وتمام الإصلاح دفعوا البرتقال التي كانت تقطع البحر وتغير على بلاد الإسلام بعد امتداد الفتن إلى سنة ثمان وستين وتسعمائة.

الغزوة الثامنة عشرة

وفي سنة سبع وستين وتسعمائة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة إلى جزيرة جربا في إفريقيا وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيرا وأتى به إلى القسطنطينية، فلما بلغ ذلك ملك أسبانيا ركب على البلاد الجزائر وأخذ بعض

قلاع ومراكب تخص الدولة فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة ففي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة خرج القبطان سنان باشا من ميناء القسطنطينية بعمارة تحتوي على مائة وإحدى وثمانين مركبا ومعه السر عسكر مصطفى باشا فلما وصلوا إلى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا في عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد إلى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين وسمروا على أخشاب وطرحوا في البحر أمام المدينة وهي محاصرة وكان قد وقع في يد حاكم المدينة أسرى من الإنكشارية فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤوسهم ووضعها في المدافع وضرب بها المحاصرين ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا.

الغزوة التاسعة عشرة

وفي أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر فأرسلوا يطلبون الصلح و لم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم فغضب السلطان وأمر بحبس رسولهم وعزم على السفر إليهم بنفسه فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة فعفا عنهم وأمنهم.

الغزوة العشرون

وفي سنة أربع وسبعين وتسعمائة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة النصارى المجر تسمى سكدوار والحال أنه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النقرس وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين فمنعه الأطباء عن السفر فلم يقبل منهم لمحبته الجهاد وقال: أريد أن أموت غازيا فخرج لتسع مضين من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة فسار بعسكر كثير متزاحم الأفواج متلاطم الأمواج، وبعث وزيره برتو باشا إلى فتح قلعة كولة فلم يلبث إلا قليلا حتى فتحها وأما السلطان فإنه وصل إلى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذي به وكثرة الأمطار وسار منها إلى سملين فتسلمها وفتح جملة قلاع وبلدان وأما قلعة سكدار

فهي قلعة في غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء في حضيض الماء شامخة الارتفاع في الهواء إلى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بجيوش النصارى وأبطالهم فكانت في المتانة إلى حد الغاية وقد أحاطت بها المياه والأوحال من كل جانب فلم يزدد أمر القلعة إلا استصعابا واشتد مرض السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يجعل بالفتح ونصر المؤمنين وقال: قد تحقق عندي الفتح يتيسر إن شاء الله ويكتب في التواريخ أن سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت، فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله وهو أوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثاني ثم انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأخفى الوزير الأعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ودعا رئيس الأطباء فشق بطنه وملأه بالأجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ثم لم يزالوا يجدون في أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا صاحبها وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه وكان من جملة أسباب فتحها أن النار اشتعلت في خزينة بارود الكفار وهي مخزونة في القلعة المذكورة، فأخذت جنبا كبيرا من القلعة رفعته إلى عنان السماء زلزلت الأرض زلزلة هائلة وتطايرات جلاميد الصخار إلى الهواء ورمت شررا ولهبا ودخانا إلى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيرا من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقي منهم فتزاحم المسلمون على دخلوها والهجوم على من فيها فاقتلعوها من أيدي الكفار ووضعوا السيف في جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار وما ذكرنا من أن الفتح إنما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام، هو ما في بعض التواريخ وفي تاريخ القطبي أن الفتح كان قبل وفاة السلطان وأنه لما جاءه خبر الفتح وهو في غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة ٩٧٤ ولم يزل العسكر هناك في ترميم القلعة وإصلاحها حتى بعث محمد باشا إلى السلطان سليم يدعوه إلى سكدوار، وكان يومئذ على إمارة كوتاهية فلما

جاء الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك في التاسع من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وتمت له البيعة واطمأن الناس، ثم خرج في اليوم الثالث وتوجه إلى اسكدوار فلحق العسكر ولم يختل عليهم شيء فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى في العجلة ونقلوه إلى القسطنطينية ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة، وكان قدوم ولده السلطان سليم إلى القسطنطينية من سكدوار في شهر جمادي الآخرة من السنة المذكورة، وكان الحرب لم يزل قائما بين العساكر العثمانية وملك النمسا.

ومن العجائب التدبير الذي حصل من الوزير الأعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان فإنه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات وأعطى الأمراء الترقيات، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات بحصول النصر والظفر وأرسل سرا يستدعي ولي العهد السلطان سليمان الثاني ويستعجله في سرعة الوصول وكتم ذلك عن جميع العسكر والأمراء والوزراء والأنام وأحسن التدبير في هذا الكتم، واستمرت أمور المملكة في غاية الانتظام وهو في ديار الكفار وذلك من كمال العقل التام والرأي الصائب إلى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم وقع الصلح على الهدنة ثمان سنين ودفع ملك النمسا لخزينة السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع مولانا السلطان سليم إلى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطنها ورثت الشعراء مولانا سليمان بقصائد كثيرة.

ذكر خبر عجيب

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى أنه قبل وفاته أحضر بُقْشَة وأوصى أن تجعل معه في القبر فلما أخبر بذلك شيخ الإسلام المولى أبو السعود العمادي رحمه الله قال: لابد من الإطلاع على ما في هذه البقشة قبل أن نجعلها معه في القبر، فلما فتحوها وجدوا فيها الأسئلة التي كان مولانا السلطان يسأل عنها شيخ الإسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه فبكى شيخ

الإسلام المذكور وقال: إن مولانا السلطان أراد ليبرئ ذمته عند السؤال عن هذه الأحكام وجعل السؤال متوجها إلى من كتب ما فيها فأسأل الله النجاة والخلاص.

الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان التي لم يحضرها بنفسه

هذه الغزوة وكانت في الحجاز وهي مما ينبغي أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وإن كان المباشر لها مولانا الشريف أبا نمى، وحاصلها أن طائفة البرتوقال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الإسلام فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب، وكان ذلك في أواخر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيرا من بنادر الإسلام وخربت وأفسدت فيها ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبي الدوائر في خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمى أمير مكة بنفسه وترك الحج ونزل إلى جدة في جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء بالجهاد في نواحي مكة وقال من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة، فبلغ المبادرون للجهاد مبلغا عظيما لا يحد ولا يعد ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عددا وعيشا رغدا وخدم مولانا الشريف أبي نمى يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام ويشترونه بأغلى الأثمان حتى فرغت الحبوب والأقوات وكادت تعدم فأقبلوا على نحر الإبل، فكان مولانا الشريف يأمرهم بأن ينحر لكل مائة نفس بعير أو ناقة واستمر الأمر على ذلك مدة فقال له بعض الناس أن هذا الفعل يستأصل ما عندك من الإبل فأجابه بأني نويت أن أنحر ما عندي من الإبل فإذا فنيت أمر بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله، فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة ويلبس الخلعة الواردة ويحج الناس على عادة أجداده الكرام، فلما وصل

أمراء الحج قابلهم وفعل مثل ما أمره والده، وحج بالناس، فلما قضوا الحج توجهوا إلى جدة لمقابلة مولانا الشريف أبي نمى وإلباسه الخلع الواردة فلاقاهم وهو شاكي السلاح لابسا درعه في هيئة المقاتل، ولما قدموا عليه أمر بإطلاق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمائة مدفع فكان مشهدا عظيما فألبسوه الخلع الواردة وأضافهم وأكرمهم غاية الإكرام وانصرفوا راجعين ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد في إكرام مولانا الشريف أبي نمى وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل إليه غير ذلك من الإنعامات التي لا تحصى وهذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبي نمى تدخله في عداد الغزاة المجاهدين في سبيل الله ولم تكن لأحد غيره من أسلافه وأحفاده وأمراء مكة فرحم الله الجميع رحمة واسعة.

تنبيه

ذكر العلامة الفاسي في «**الأعلام بأخبار بلد الله الحرام**» أن الحبشة جاءت إلى جدة في خلافة الرشيد سنة ١٨٣ فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين إلى مكة فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمد بن إبراهيم المخزومي، فلما رأت الحبشة ذلك هربوا إلى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة في البحر وقيل إن هذه القصة كانت سنة ١٧٣ وقد ورد في فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة منها ما ذكره شيخ الإسلام حافظ بن حجر العسقلاني في كتابه المسمى لسان الميزان عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم (**إذا كان على رأس السبعين والمائة فالرباط بجدة من أفضل الرباط**) وفي رواية عن ابن عمر أيضا (**يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة**) وروى أيضا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (**أربعة من أبواب الجنة في الدنيا الإسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت**) وفي شفاء الغرام للعلامة الفارسي عن عبد الله ابن عمر

رضي الله عنهما قال: قال رسول صلّى الله عليه وسلّم (**مكة رباط وجدة جهاد**) وكان عطاء يقول: إنما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج إلا منها. وروى ابن جريج (**أن فضل مرابطي جدة عن المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان**) وعن فرقد السنجي أنه يكون في آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الأرض مثلهم شهداء. وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين: أن بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اهـ. قال صاحب السلاح والعدة: ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوي الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعناد بالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد إذ العبادات متوقفة على النية لقوله (**إنما الأعمال بالنيات**).

ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات وإجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين في كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان في ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك أنه جدد عمارة مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم سنة ٩٣٥.

وفي سنة ٩٥٦ أرسل منبرا من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه (**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** * النمل: ٣٠)، وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام. وفي سنة ٩٦٠ جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب علي والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام وبنى أربع مدارس للمذاهب الأربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر تعميرا كثيرا في الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبإصلاح رخام المطاف، ثم في سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة

فجدد. وفي سنة ٩٦٧ أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة في تحصيل الماء وكان تمام هذا التعمير في مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط في التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطانهم على الأنام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام.

ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان في الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لأهل الحرمين وهي مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهي وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام إلا أنه هو الذي ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغا كبيرا وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم، فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرد لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة ألفي أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحة قضاة العسكر بالديوان الشريف العالي، ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالي وهي جمع جالية ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها وهي من أجل الأموال إذا أخذ على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء، فلما كانت أيام مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان بحث عنها وتحرى فيه ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد في تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها للمذكورين وزاد على ذلك قدرا كثيرا وأخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط حوالي مصر والشام وحلب غير ذلك من الممالك الإسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء

الموجودين في الممالك الإسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الأطعمة للفقراء وناهيك بكثرة وهذه المصاريف في وجوه الخيرات فالله تعالى يبقي هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة إلى أن تنقضي الدنيا وتقوم الآخرة. ومن خيرات مولانا السلطان سليمان وفتوحاته أنه وقف أوقافا كثيرة متفرقة في ممالك الإسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة في جميع ممالك الإسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الأوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ. وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم في العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا إلى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكورا وعمله مبرورا.

ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثاني
ابن مولانا السلطان سليمان

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٧٤ وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده في شهر جمادي الآخرة كما تقدم. وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفي المذهب كبقية أسلافه، مكرما للعلماء والصالحين محبا لهم مواظبا على الصلوات الخمس في الجماعات وكان إحسانه يصل إلى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن، فلما جلس على كرسي السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات.

ذكر أول غزوة من غزواته

شاع في أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثاني على تخت السلطنة عصيان بني عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم

وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين في أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة.

وفي سنة ست وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم إلى اليمن لإتمام الإصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ثم أردف بستان باشا وغيره فانتصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتوقال وملكوا صنعاء وغيرها

الغزوة الثانية إلى قبرس

وهي تتضمن غزوات لا يزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور إلى التجهيز على جزيرة قبرس، فجهز عساكر كثيرة في البحر بثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، فلما وصلت العساكر إلى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولا إذا هي مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها. وقتلوا كثيرا من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤوسهم في طباق من فضة إلى أهل قلعة كرينة فلما شاهدوها خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفاتيح القلعة فتسلمها، ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبنى ما خرب منها وتوجه إلى حصار قلعة ماغوسة وهي من أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت في هذه القلعة من المدافع سبعمائة وأربعة وستون مدفعا كبيرا ومن البنادق ما لا يعلم عددها إلا الله تعالى فحاصرها العسكر حصارا شديدا وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والأحجار المنجنيقية وشقوا بطون الأرض شقا وفتقوا قعورها فتقا وبعث أهل قبرس إلى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الأمان فأمنهم الوزير المذكور وطلب كثير منهم المسير إلى بلادهم، فمكنهم من ذلك، وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الإسلام، وعمروا ما تخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم سارت

الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانها ثم إلى جزيرة كورفس وهي مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهبا وتحريقا، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك، فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا أن العدو ما قابلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر، وقد ملؤوا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقته العساكر مرسين في الميناء، فوصل إليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم، فها هم سائرون عليكم وواصلون إليكم في جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك أسبانيا مع البندقية على حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض، فكان رأي الوزير الأعظم برتو باشا في ذلك أن لا يقابلهم ولا يقاتلهم، وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان جبانا إلى الغاية وكان ما رآه هو الأنسب بمقتضى الحال وخالفه كاشف البحر علي باشا في ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغوارا فقال لا بد من لقاء الكفار فإن وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالإسلام، وزاد فينا قوة وبسطة فلو سارت أغربتنا وهي خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر ما يفي بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم فاتفق الجميع على لقاء العدو فالتقى الجمعان في السابع عشر من جمادي الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان في طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين وألجأتهم إلى البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس إلى الغروب، وقتل المرحوم علي باشا المذكور وجماعة كثيرة لا تحصى وغنم الكفار ما معهم من الأموال والأسباب والأغربة والشواني وما فيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الإفرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك الغلبة عيدا يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذي يفعل ما يشاء.

الغزوة الثالثة إلى قبرس أيضا

لما كان ما تقدم اهتم السلطان في إنشاء مراكب وسفائن أخرى مع ما يناسبها من المدافع فجدوا حتى تم لهم ما راموا في مدة سبعة أشهر وما كان ذلك إلا

عناية من الله تعالى كأن لم يمسهم ضر ولا شر.

وفي سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطيني صحبة كاشف البحر قلج علي باشا القبودان في مائة وخمسين غرابا غير ما انضم إليهم من المراكب، فسار يحمي البلاد عن هجوم العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الإفرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفي هذه السنة أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود إلى شرف الدولة فصدر الأمر بالقبول وتوقف الحرب.

الغزوة الرابعة إلى البغدان

في تلك الأيام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج فأرسلت إليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيرا ولما حضر ضربوا عنقه.

الغزوة الخامسة إلى تونس

كانت هذه الغزوة في سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة في سفن وأغربة وغلايين وشواني مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر علي باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق الواد وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الإفرنجي وأسروا صاحبها الأصلي محمد الحفصي وكان قد تحصن فيها خوفا من العثمانية واستعان بالإفرنج الأسبانيين، فلم يغنوا عنه شيئا فأسرته عساكر السلطنة السنية وجاؤا به إلى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبي فقال: إن سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدي وأن سلطنتهم كانت بتولية بني عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثة

واستمر إلى ظهور الدولة العثمانية، قال القطبي: لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف، وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الإفرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع في تلك البلاد ويوصلون جنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولي النصارى سلطانا من الحفصيين يكون تحت حكمهم إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم للمسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان مشيدة البنيان بقرب تونس في موضع يقال له حلق الواد كأنه بناه شداد وشحنوها بالأبطال وملؤها بآلات الحرب والقتال وصارت الفرنج تمكن للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب في البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون ويرسلون منها المسافرين ويأخذون كل سفينة غصبا وكبير ملوكهم صاحب أشبيلية جزيرة الأندلس بعد أن أخذوها من المسلمين أعادها الله دار إسلام ببركة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا لما تملك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود إلى أن تملك تونس في قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصي إلى أسبانيا فبعثوا معه جنودا وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشا في مائتي سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فأحاطوا بتونس وحاصروها وضيقوا عليه ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديدا وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد، وكان عمق الخندق ستين ذراعا وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الأبطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادي الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ومن أعجب الاتفاق أن هذه القلعة بنتها النصارى في سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه في ثلاث وأربعين سنة وافتتحها

الوزير المذكور في ثلاث وأربعين يوما من أيام محاصرتها فكانت الأيام بعدد السنين التي أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور أن ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كثيرة وخزائن من الأموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لا تصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه إلى تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا إلى أن فتحوها وأسروا صاحبها الإفرنجي وصاحبها الحفصي وبعثوا بهما إلى دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة، هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار.

ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثاني المعنوية إضعافه المبرات والخيرات لأهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فإنه كان مسقفا بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصار في غاية من الخراب والوهن فبرز أمر السلطان بتعميره وأن يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قببا وطواجن كما هو مشاهد الآن، وبرز الأمر بالتعمير سنة ٩٧٩ وكان الشروع فيه في منتصف المحرم سنة ٩٨٠ وتوفي مولانا السلطان سليم المذكور قبل كمال التعمير فأتمه ولده السلطان مولانا مراد فكان التمام سنة ٩٨٤ فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ وتوفي مولانا السلطان سليم سنة ٩٨٢ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر، وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الإحكام بحيث أنه لم يبصر أحد مثله، فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشي فيه إذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسود منها جنبه الذي سقط عليه فمرض منها أياما ثم توفي رحمه الله وأقيم في السلطنة بعده ابنه (**السلطان مراد الثالث**) وكان وقت وفاة أبيه غائبا في مغنيسيا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوما إلى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه، وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا تربى في حجر السعادة، واشتغل

بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيرا من أسلافه واشتغل بعلم التصوف و لم ينقل عنه أنه صدر منه شيء من الكبائر وكان مكرما للعلماء والصالحين والفقراء محبا لهم كثير الإحسان إليهم وكان واقفا عند مراد ربه لا يتعداه عاملا في أمره بتقوى الله مراعيا للعدل والإحسان فيم استرماه لم يزل قائما بنصرة الدين وحماية بيضة الإسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه إلا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الأنام وكان له نظم فائق باللسان العربي والتركي والفارسي.

ذكر أول غزوة من غزواته إلى بلاد العجم

كان أهم شيء عنده بعد جلوسه في السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة ما يقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام بعده ولده خدا بنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه في سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير إلى بلاد الشرق فبنى قلعة فارس وشحنها بالمدافع والمكاحل، ثم سار إلى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج إلى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديدا فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس إلى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوها قديما وغلب عليها الكرج، ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجي ملكة تلك البلاد ابنها الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع فرحب بالوزير وآنسه وعين له امرأة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدي الوزير، ثم سار إلى طرف شروان بعد أن نصب أميرا على تفليس وبث سراياه إلى الأطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا بن ازدامر واليا بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا إلى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للإغارة في الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثنى عشر ألفا لقتال عثمان باشا فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره، ثم

وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك ما ينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه في شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك في شروان جعفر باشا وتوجه إلى القسطنطينية بطلب ليكون صدر أعظم وقاتل في مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم، ولما وصل إلى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه.

الغزوة الثانية إلى بلاد العجم أيضا

وفي سنة ثمان وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا إلى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل إلى حدود العجم فأرسل إليه الشاه في الصلح وبعث للسلطان أحد وزرائه يدعى إبراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الأمر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا.

وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر إلى بلاد العجم فسار وتوغل في بلاد أذربيجان واستولى على مدينة واكا وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا.

وفي سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة إلى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفي هذه السنة أيضا سار الوزير الأعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة إلى قتال العجم فشتى ببلاد قسطموني وسار إلى بلاد العجم في سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر ما لا يعلم عدده إلا الله فعارضه الأعجام في الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز في أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف، ثم شرع في بناء قلعة حصينة ثم بناء سور المدينة فأتم الجميع في مدة خمسة وثلاثين يوما، ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر في أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم

ولم ينج منهم إلا النساء والأطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها إلى بلاد الروم بعد أن أبقى في مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميراز بن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع العسكر كثير فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بلغته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح إلى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمي المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقا كثيرا من عساكر الأعجام وانجلى الأمر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير في ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لأجل إعطاء الترقي والعطية للعساكر، فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا بمدينة ران فلما رحلوا أعترضهم العدو يمينا وشمالا ووقع بينهما مناوشات فلما وصلوا إلى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور في نحو ثلاثين ألفا فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الأعجام بعد أن حصد غالبهم بالسيف.

الغزوة الثالثة إلى بلاد العجم أيضا

في سنة أربع وتسعين وستمائة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة إلى بلاد العجم وصلوا إلى مدينة تبريز وحصنوا قلعتها ورموا سورها وكانت الشاهية حاصروها مرارا عديدة وقربوا من أخذها وبنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنها رجالا وسلاحا، ولم يزل الوزير المذكور يشتي ببلاد الروم ويرجع في الصيف إلى بلاد العجم حتى مهد البلاد التي أخذت من الكرج وبنى قلاعا وحصونا كثيرة وقاتل قره باغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد إلى بلاد الروم.

والحاصل أن الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالا ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل منهم حد لا يتعداه أحد منهما وكان ذلك في مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب ابن إسماعيل وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وتسعمائة لأنه كان أعمى وأقيم بعده ولده عباس شاه.

الغزوة الرابعة إلى بلاد المجر

في سنة إحدى بعد الألف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة بستريم وقلعة طاجة وشتي بمدينة بلغراد وفي السنة الثانية فتح قلعة قُران بضم القاف وقلعة بانق وهي من أحصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهي مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها وذلك بعد أن نال المسلمون شدة عظيمة قيل أن النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصنجق النبي صلّى الله عليه وسلّم فتلقاه رجل قبل السقوط، فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتان فجعلوا يموتون في فرشهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جافت من الموتى وسر المسلمون بذلك سرورا عيظما.

وتوفي السلطان مرادخان الثالث سنة ثلاث بعد الألف وعمره خمسون سنة ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر وتسلطن بعده ولده (**السلطان محمد الثالث**) قال في خلاصة الأثر عند ذكره الملك الأعظم الباهر الشأن كان سلطانا عظيم القدر مهابا جوادا عالي الهمة مظفرا في وقائعه صالحا عابدا ساعيا في إقامة الشعائر الدينية مراعيا لأحكام الشريعة مطيعا لأوامر الله منقادا لما يقرب إليه مداوما للجماعة والأوقات الخمس قائما السنن والرواتب، ومن عادته المرضية أنه كان إذا ذكر صلّى الله عليه وسلّم نهض قائما وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة. وقال القرماني في تاريخه: كان كامل الأوصاف محبا للعدل والإنصاف محبا للعلماء والصلحاء مكرما لهم بأنواع الإكرام شديد المحبة للجهاد ونصر الإسلام.

الغزوة الأولى من غزواته

كانت هذه الغزوة إلى المجر في أول مدة سلطنته خرج عن الطاعة ميخائيل ملك الأفلاق واجتمع ملك النيمسا وبلاد الأردل وعاثوا في بلاد روم إيلى فبعث

السلطان محمد جيشا تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الأعظم فكسره الإفرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا، وكان شيخا مسنا فلم ينجح بل كسر أيضا فعزله السلطان وأعاده إلى الصدارة، فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب فخرج بنفسه في شوال سنة أربع بعد الألف بجيش غفير قاصدا بلاد المجر فوصل بلغراد وحاصر مدينة أكراد ففتحها، وكان فيها قلعة في غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره في ضربها بالمكاحل فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها في أواخر صفر سنة خمس بعد الألف، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصارى فطلب الأمداد منهم بالعساكر والذخائر فاجتمع إليه ملك النيمسا وحاكم الأردل وحاكم البغدان وحاكم الأفلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج فجاؤا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء، وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به، وكان عسكر الإسلام غير مستعدة والنصارى في غاية الكثرة جدا بحيث أن جمعهم المخذول لا يحصى فوقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا، وكان ذلك يوم الخميس ثاني عشر ربيع الأول، وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقا في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددا ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجة سعد الدين، وكان في صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى فلم يكن بأسرع من أن قوي المسلمين وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مسعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضا من

الزحام وغيره ووهب الله تعالى له النصر والتأييد و لم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأحصيت قتل المسلمين فكان الذي استشهد من القواد ما يقرب من أربعمائة ومن الصناجق أصحاب الألوية بضعة عشر رجلا ومن الأمراء الكبار أربعة أنفار ومن العساكر كثير ومن الكفار ما لا يحصى.

والحاصل ما وقع له من النصر لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير مثناه، ولقد حكي أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان صاحب القرال وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لا تسامى وأنهم على عادتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رزقها.

وفي خلاصة الأثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم في منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة فقال الصديق الأكبر رضي الله عنه أن انهزام المسلمين كان مقدرا لكن لما كان السلطان محمد سعيدا أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة حتى حصل له الظفر والتأييد ودخل السلطان على مقر ملكه ثالث جمادي الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل.

الغزوة الثانية إلى بلاد الأنكروس

في هذه السنة عين محمد باشا السطورجي سردارا على بلاد الأنكروس فتقابل مع الكفار بجيش جرار ووقع بينهما قتال ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا الترياقي إهمال في مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الكفار.

الغزوة الثالثة جهز مولانا السلطان محمد جيشا مع محمد باشا

في سنة سبع بعد الألف فتح محمد باشا المذكور قلعة واردار وفي هذه السنة استولى الكفار على قلعة يافق وبعض قلاع وفيها أيضا كبس ميخائيل اللعين على غفلة قرب نيكبولي ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزما فحاصر اللعين قلعة نيكبولي مدة، ثم رحل عنها وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجي لإهماله في

أمر المحاربة إليه السلطان وإتعابه العسكر وإسرافه في المصارف وانتزاع يافق في زمانه واقتلاع بعض قلاع فأرسل من قتله.

الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشا

في سنة ثمان بعد الألف ففتحوا قلعة فانيسره، وكان فتحها على يد الوزير الأعظم إبراهيم باشا، وكان فتحا عظيما يعادل فتح إكراي وسر بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام، وكان في أيام محاصرتها وقع إضراب عظيم فرأى بعض الصلحاء في منامه شيخ الإسلام صنع الدين جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء وهو **اللّهمّ قوّ قلوب المؤمنين بقوة الكرام البررة وألق الرعب في قلوب الكفرة الفجرة.** فشاع هذا الدعاء وداوم على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد وفي هذه السنة استولت النصارى على استون بلغراد ثم استرجعت منهم.

الغزوة الخامسة إلى بلاد المجر

في سنة عشر بعد الألف بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جفال لمحاربة المجر ففتح تلك السنة قلعة قنجة.

الغزوة السادسة إلى بلاد العجم

في سنة إحدى عشر بعد الألف جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز واضطرب أمر المسلمين فضمت تبريز إلى وان وجهتا الكافل حلب نصوح باشا وعين السلطان عسكرا جرارا وأردف بهم نصوح باشا ثم توفي السلطان محمد قبل تمام الأمر، وكان تمامه في مدة سلطنة ابنه (**السلطان أحمد الأول)** وكانت وفاة السلطان محمد سنة اثنتي عشرة بعد الألف وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وشهران وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الأول وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان والقمر ليلة الرابع عشر يسمى بدرا فلذلك قال بعضهم: إن السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدرا لأنه أضاء به الملك، فإنه لما تسلطن كان البغاة والخارجون قد كثروا في كل ناحية من أواخر سلطنة والده

فسعى السلطان أحمد في إخمادهم وجد في قطع دابرهم حتى أبادهم، وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء وآل البيت والصحابة متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل سمح الكف جوادا لا تزال إحساناته للفقراء واصلة وعطاياه لأرباب الاستحقاق مترادفة وجاء تاريخ جلوسه في السلطنة (هو خير السلاطين) ومن خيراته ومآثره أنه في سنة أربع وعشرين وألف أرسل إلى الحجرة الشريفة النبوية فصين من الألماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق الكوكب الدري وهذا الكوكب هو الذي تجاه الوجه الشريف في الجدار وهو في مسمار الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء ومن استقبله كان مستقبلا الوجه الشريف وله صدقات كثيرة في أهل الحرمين.

ذكر غزوة من غزواته

جهز جيشا في ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الأعظم علي باشا فمر إلى بلاد المجر فمات علي باشا وهو متوجه فأقام بدله محمد باشا الذي كان سردارا في الروم إيلي ثم سعى مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر والهدنة عشرين سنة ودخل إلى دار السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف فقبل مولانا السلطان أحمد ذلك.

ذكر غزوة أخرى

في سنة ثلاث عشرة بعد الألف جهز جيشا وبعثه مع محمد باشا البوسوى أحد الوزراء العظام لفتح قلعة استرغون فسار إليها و لم يتمكن من فتحها تلك السنة ثم فتحها في سنة أربع عشرة.

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

في سنة أربع عشرة بعد الألف جهز جيوشا إلى بلاد العجم، وكان عليها سنان باشا ابن جفال فوصل إليهم وقتلهم وانتصر في أول الأمر ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معه فكان ذلك سببا لانهزام الجيوش فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضا

في سنة ست عشرة بعد الألف جهز جيشا عظيما يقوده مراد باشا، وكان قد كبر وشاخ فجعل الأمر لنصوح باشا وتأخر في دياربكر ومرض ومات فتقدم نصوح لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ إلى بعض الجبال، وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا إلى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكر اسم السلطان في بلاد العجم ويدعو له في الخطبة وأن الشاه عباس يدفع مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التي أحدثها في بلاد السلطنة العثمانية فقبل الشاه عباس ذلك وانعقد الصلح ورجعت العساكر العثمانية إلى بلادها.

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضا

في سنة خمس وعشرين بعد الألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يف بالشروط ففتحت الحرب ثانيا بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشا فغلب وانتصر واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد، ثم وقفت الحرب بسبب كثرة الثلج والبرد ومات من العسكر جانب عظيم وأشيع أن الشاه إنما نقض الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالإعانة فأمر مولانا السلطان أحمد بقتل نصوح باشا فقتل سنة خمس وعشرين وألف. وفي سنة ست وعشرين توفي السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وأوصى بالسلطنة لأخيه مصطفى بن محمد لأن أولاد السلطان أحمد كانوا صغارا وأخوه أكبر منهم وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به فكان يرعاه فبويع أخوه (**السلطان مصطفى**) وخلع بعد ثلاثة أشهر لأنه كان صالحا زاهدا متقشفا فلم تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لأنه تارك للدنيا وليس يراغب فيها بحيث أنه كان في مدة سلطنته لبسه جوخة خضراء بأكمام عربية وأما أكله فإنه لم يأكل الدسم مطلقا وإنما كان يأكل الكعك الناشف واللوز والبندق وأنواع الفواكه وأما أمره في النساء فإن والدته أحضرت له جواري

عديدة فلم يقبل منهن واحدة، وكان لا يدري من أحوال الملك إلا ما يلقى إليه، فلما رأى أركان الدولة أن الأمر به لا ينتظم ذهب المفتي المولى أسعد بن سعد الدين إلى أسكدار للشيخ محمود المعتقد الصالح العالم العامل يستشيره في خلعه فأشار بخلعه وأن يولي مكانه **عثمان ابن السلطان أحمد**، ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى آغا ضابط الحرم قريب العشاء من ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول فأرسل القائم مقام إلى الصوباش إذا جاءتك في عد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الأبواب فقال: سمعا وطاعة، وكان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى وأما مصطفى آغا فإنه أول ما مضى من ليلة الأربعاء ست ساعات ذهب إلى أبواب السرايا وقفلها جميعا وكذا أبواب الأمكنة التي فيها أكابر الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذي فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفرش وذهب من حينه إلى السلطان عثمان في مجلسه الذي هو فيه وهو محل عمه مصطفى الذي كان فيه في حياة السلطان أحمد وفتح عليه الأبواب فحصل له رعب وتخوف من أن يكون عمه أرسله إليه ليقتله فقال له: لا تخف أنت صرت سلطاننا فلم يصدق ذلك فصار يحلف له أن القول صحيح ولا زال يتلطف به إلى أن أدخله إلى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا بابا بابا ويدخل من كان داخل الأبواب للمبايعة حتى لم يبق أحد في السرايا بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته، ثم أرسل مصطفى آغا للمفتي وقائم مقام الوزير فحضرا وبايعا ثم ذهبوا إلى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج إليهم وقال لهم: ما جاء بكم في هذا الوقت فكان أول من تكلم شيخ الإسلام أسعد فقال له: إن أمر المملكة اختل وإن الأعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله أنا ما طلبت منكم الملك ولا أردته وليس لي به مصلحة فقالوا جميعا لا نكتفي بقولك هذا ولابد أن تذهب معنا وتبايع ولد أخيك (**السلطان عثمان**) فإنا قد

أجلسناه على التخت فقال: جعله الله مباركا وليس عنده مخالفة وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة واشهد على نفسك بالخلع فقال لهم أفعل ذلك فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضي العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها إلى الصوباش وفيها الأمر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودي بذلك وتم الأمر وما انتطح في ذلك عنْزان وكان ذلك يوم الأربعاء ثامن من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خلقا وخلقا وأجملهم سيماء وطبعا له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية وكان ينظم الشعر التركي.

ذكر أول غزوة من غزواته

كان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى فلما بلغه خلعه رجع يطلب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى، فلما وصل إلى دار السلطنة وعلم حقيقة الأمر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم في مدة السلطان عثمان سنة ثمان وعشرين وألف ونجح في هذه التجريدة كل النجاح وارتجع من العجم للممالك التي اختلسوها وأرسل عباس شاه سلطان العجم يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان فأجابوه إلى ذلك.

غزوة ثانية إلى البغدان

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونيا والدولة وحرضهم على العصيان فأرسل السلطان عثمان إليهم إسكندر باشا فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين ألفا وأسر عشرة آلاف ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذي حملهم على العصيان وأرسله إلى دار السلطنة وألزم أهل بولونيا أن تدفع مائة ألف ريال وألزمهم أيضا بمصاريف الحرب.

غزوة ثالثة إلى بولونيا

في سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونيا وهم القزاق

وكان الذي خرج معه من الجيش ستمائة ألف مقاتل فأرسل أهل بولونيا يستنجدون بملوك الإفرنج فأنجدهم دولة الروسيا وفرنسا والبابا والمجر والنيمسا وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مائتي ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم غنائم كثيرة، ثم عقد صلحا معهم ورجع إلى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك في أيامه وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع وأمر في أيامه بتعطيل حانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها.

ذكر إرادته الخروج للحج المؤدي إلى قتله

في شهر رجب من سنة إحدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه إلى الشام وأخرج خيامه وسرادقه إلى أسكدار سابع رجب وصمم على هذا الأمر فحصل اللغط من العسكر في ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت العساكر واتفقوا على عدم السفر معه واخرجوا فتوى أن السلاطين لا يكلفون بالحج فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضبا شديدا ولم يلتفت إلى كلام المفتي فأخذ المفتي وأصحابه يهيجون العساكر ثم تجمعوا في المكان المعروف آت ميداني واتفقوا على قتل الوزير الأعظم دلاور باشا وضابط الحرم السلطاني والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرض السلطان إلى السفر للحج، ثم هجموا في ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه، ثم في وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الأعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر، وفي ثاني يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضا والعسكر كلهم بالأسلحة وآلة الحرب وذهبوا إلى الموالي وجمعوهم بالجامع الجديد الذي عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضي عسكر وقاضي دار السلطنة وبعض الموالي إلى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولا فامتنع من تسليمهم، واستمروا في مراجعته

إلى وقت الظهر وملّ العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى في الموضع المحبوس فيه نائما على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسين أمامه ومملوك يدعى درويش أغا فاستيقظ السلطان مصطفى فلما رآهم ظن أنهم يريدون قتله فمد لهم عنقه بكل خضوع فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له يا سلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجا قم فانهض بنا ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه إلى فسحة الجنينة وأركبوه على حصان المفتي وساروا به إلى جامعهم، ولما علم السلطان عثمان ذلك تحير في أمره فأخذ معه الوزير الأعظم السابق حسين باشا وذهب به إلى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان نذهب ونأخذ خاطر العسكر ونجعل لكل إنسان منهم خمسين شريفيا وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب إلى العسكر وكلمهم في ذلك فما كان جوابهم إلا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم إلى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدي السلطان مصطفى فأرسله إلى يدى قله وأحضروا دلاور باشا ضابط الحرم وقطعوا رأسيهما وعلقوا رؤوس الجميع على جامع السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة (**للسلطان مصطفى**) فجعل زوج أخته داود باشا وزيرا أعظم وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا إلى يدى قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وذلك في اليوم الثامن من رجب وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة وقيل في تاريخ قتله:

مات سلطان البرايا * فهو في الأخرى سعيد

قال لي الهاتف أرّخ * إن عــثمـــان شهــيد

٥١ ٦٦١ ٣١٩

١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة وألف ووفاته سنة إحدى وثلاثين ومدة خلافته أربع سنوات وشهر وعمره سبعة عشرة سنة، وبعد تمام البيعة للسلطان

مصطفى بيومين جمهرت العساكر الصباحية أمام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ونشأ من ذلك فتنة أخرى آل الأمر فيها إلى قتل داود باشا فقتل بعد عشرين يوما وصار البحث عن الأشخاص الذين تداخلوا في قتل السلطان عثمان فقتلوهم واضطربت أمور السلطنة والوزارة، وأقام أهل الأناضول وأمراؤها ونوابها على ساق للطلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام في ولايتهم وامتنعوا من الدخول في بيعة السلطان مصطفى ولم يزل الأمر يزداد شدة إلى أن خلعوا السلطان مصطفى رابع ذي القعدة سنة ألف واثنين وثلاثين فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر وما عاش بعد ذلك كثيرا وكانت ولادته سنة ألف رحمه الله ولما خلعوه وأقاموا في السلطنة (**السلطان مراد الرابع**) أخا السلطان عثمان بن أحمد. قال في خلاصة الأثر: وكان عمره أحدى عشر سنة وسبعة أشهر وجاء تاريخ ولايته (**مراد خان العادل**) ١٠٣٢ ومع صغر سنه كان ذا عقل ثاقب ورأي سديد، وكانت تظهر عليه أمارات شجاعة وقوة القلب فكان من أعظم أبطال ذلك الزمان وكان إسكندر الثاني في تلك الأيام بل كان من أعلى السلاطين مقدارا وأوسطهم همة واقتدارا خضعت لعظمته رؤساء الأكاسرة وذلت لحرمته وقهره تصلب في قمع المفسدين سديد الرأي في أمره لأنه ابتدأ أولا باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه، فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس إلى درقة مطبقة إحدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها فأرسلها إلى مصر وبرز أمره إلى العساكر بإخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد في علوفته فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك.

ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان وإعادة السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التي افتتحها العثمانيون وملكوها فمن ذلك مدينة بغداد وكانت بغداد في كفالة الوزير يوسف باشا فوقع بينه وبين

واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباش فحاصر بكر الوزير في قلعة بواسطة العسكر فأصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد فبعث إليه رئيس الدولة جانبا من العسكر لتأديب هذا العاصي وجعلوا أمر هذا العسكر تحت رئاسة حافظ باشا، فلما بلغه ذلك كتب إلى شاه العجم أن يحضر لكي يسلم له بغداد فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثمائة وأنعم على بكر الصوباش بعمامة قزل باش وقبل وصول العجم إلى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد فأرسل بكر الصوباش لحافظ باشا يطلب أن يلقبه بكلس بك لكي يطرد الأعجام فلم يقبل منه حافظ باشا ذلك، وفي أثناء ذلك وصل رسول العجم إلى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا أن بكر الصوباش صار يخص شاه العجم فإذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاما غليظا واشتبك القتال، فلما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه فتح بغداد لأنها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم، قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب إلى بكر الصوباش أنه والي بغداد يريد بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ففرح بذلك بكر الصوباش ورأى أنه بلغ غاية مرامه فقتل جماعة شاه العجم وعلق رؤوسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التي بعثها إليه الشاه عباس ووطئها برجليه وأرسل رسولا إلى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك، وأما الشاه عباس فإنه لما بلغه ما فعله بكر من الإنتقاض والخيانة حضر بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة فامتنع وأجابه بأنه لا يسلمها ولا يقدر الشاه عباس على فتحها ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد، فأمر بكر الصوباش بإطلاق المدافع من الأبراج على الأعجام واشتبك القتال بين الفريقين وأرسل بكر إلى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش الأعجام ويستنجده فأنجد بفرقة العساكر تحت رياسة كور

حسين باشا فلما وصل إلى قرب بغداد نزل بعساكره في موضع يقال له كروان سراي، فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع خديعة وأرسل يطلب كور حسين باشا ليتحادث معه في أمر الصلح فذهب ومعه بعض كبار العسكر فبينما هم في أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من الأعجام كانوا كامنين لهم في الطريق فقتلوهم وقدموا رؤوسهم لشاه عباس عوضا عما فعله بكر بقتله الأعجام علق رؤوسهم على شرافات السور، ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الأهالي تشكوا من الجوع، واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم وخرج كثير منهم إلى معسكر الأعجام وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه في الخيانة وكان هو المتسلم محافظة قلعة بغداد فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغتر وقبل وعد الشاه وفي الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلا للأعجام فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وألف وكان بكر نائما فانتبه مذعورا من ذلك الضجيج وصراخ الأعجام وكانوا أسعدوا ناسا منهم إلى المنائر يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وتملك بغداد فلتطمئن الأهالي وتفتح الأسواق وترجع إلى أشغالها، وذهب منهم جماعة إلى بكر في منزله فقبضوا عليه وأتوا به إلى الشاه فلما وصل أمامه رأى ولده جالسا إلى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة الأولى التي حصلت منه في حق الشاه، ثم أمر الشاه أن تسلب جميع أموال بكر وتعطى لولده، ثم أنهم أخذوه ووضعوه في قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته وفي اليوم السابع طرحوا ذلك القفص الذي فيه بكر في موقد نار لكي يقرروه عن المكان الذي اختفى فيه الأموال، ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه في قارب مشحون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب في الدجلة أمام الناس وحصل في بغداد قتال بين أهل السنة والأعجام بسبب هذه الفتنة، ولما كان بينهم سابقا من العدواة حتى جرى الدم في أزقة المدينة وأخذ الأعجام خطيبين مشهورين من أهل السنة أحدهما يدعى نوري أفندي والآخر

عمر أفندي وأمروهما أن يسبا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فامتنعا فعلقوهما في نخلة وأطلقوا عليهما الرصاص فماتا من ذلك، وأما الشاه عباس الذي كان قد وعد محمدا بن بكر بالولاية في مكان أبيه فإنه أخذه وأرسله إلى خراسان وأمر بقتله هناك فقتل وبعد ذلك أقام الشاه عباس في بغداد مدة، ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على الموصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع إلى بغداد وذهب حافظ باشا إلى القسطنطينية ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفا وسار لمحاصرة بغداد وتخليصها من العجم وانتشب فيهم القتال وطال الحصار فسئموا العساكر وقاموا على حافظ باشا فعزلوه وحبسوه في قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه وأرجعوا حافظ باشا، ثم قاموا عليه أيضا ليقتلوه فهرب منهم واختفى في موضع يقال له قلعة الإمام ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعا عن حصار بغداد فسير الشاه عباس خلفه جانبا من عساكره ليضربوه في الطريق فقاتلهم حافظ باشا وهزمهم هزيمة هائلة وقليل منهم رجع إلى بغداد ثم قام على مراد باشا فقتله لأنه السبب في اختلال الأمور ثم سار حافظ باشا بعسكره إلى الموصل فأقام مدة ثم جاءت الأوامر من الدولة أن يتقدم إلى حلب إلى أن تأتيه نجدة من العساكر، وبعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا، ثم مات وولي بدله خسرو باشا وكان الجيش الذي مع خسرو باشا ١٥٠ ألف مقاتل فجاء وحاصر بغداد وحصل قتال شديد ولم تحصل نتيجة فرجع إلى الموصل وصنع وليمة لكثير من العساكر، فلما حضروا قتلهم زاعما أنهم السبب في اختلال الأمور وأرسل يطلب أربعين ألفا وجرت أمور يطول الكلام بذكرها، ومات الشاه عباس سنة ست وثلاثين وألف وبقيت بغداد بيد العجم إلى سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها مولانا السلطان مراد بنفسه.

ذكر فتح بغداد

في سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغداد ومعه مائة ألف مقاتل ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمائة ألف، ولما خرج من دار

السلطنة كان لابسا لبس العرب القدماء وعلى رأسه خوذة من البولاد اللامع محاطة بشال أحمر مسدولة أطرافها على أكتافه، ولما وصلوا إلى بغداد أحاط العساكر بأطرافها ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثيرة لينجد بهم عساكره الذين في بغداد والتقى بعساكر الدولة على شاطئ الدجلة فقاتلوه قتالا شديدا وهزموه هزيمة قبيحة وكان يوما مهولا مشئوما على الأعجام ثم شددوا الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الأبراج وكانت مائتي برج فخرقتها وهدمت كثيرا منها، وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانبا عظيما من جدار السور، فلما رأى أهل بغداد ما داهمهم بعثوا إلى الشاه أنهم يريدون التسليم فبعث الشاه إلى السلطان في طلب الصلح فلم يقبل، ثم شدد السلطان الحصار ووالى القتال إلى أن يسر الله فتحها يوم الجمعة ثامن شعبان وكان مدة حصارها أربعين يوما، ودخلها العسكر ومولانا السلطان مراد في أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفا وأسروا كثيرا من رؤسائهم وقيل إن الذين قتلوا من العجم في هذا القتال خمسون ألفا وبقي منهم ثلاثون ألفا طرح البعض منهم نفسه في نهر بغداد والبعض تشتتوا في القفار وأمر السلطان بقتل كل من يخفى عنده رجلا عجميا فجمعوا منهم بعد ذلك ألف رجل وأتوا بهم إلى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكان الذي فقد من عسكر السلطان عشرة آلاف، ثم أمر مولانا السلطان تجديد عمارة مشهد الإمام الأعظم أبي حنيفة ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما وأزال ما كان أحدثه الأعاجم في المشهدين وأمر ببناء ما هدم من السور والقلعة وشحنها بالعساكر وترك في بغداد عشرة آلاف من العسكر وعين لكفالة بغداد وولايتها وزيرا ورجع إلى دار سلطنته ومقر ملكه سالما غانما منصورا وكان لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم مقيدين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر كما فعل أسكندر لما فتح مدينة بابل وبالجملة فقد كان هذا السلطان

من أعظم ملوك آل عثمان، ومما كان في مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوي في جميع ممالكه ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره إلى أهل الحرمين الشريفين وأمره المتولي الجهات خصوصا مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم فما من أمر يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك ومن ذلك أيضا التفاته إلى أخبار الرعية مطلقا والبحث عن أحوال ولاة البلدان التفاتا تاما بحيث أن ولاة الجهات لا يجاوزون حدا.

ومن سعادته العظمى عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها، وذلك أن في سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة اتفق العلماء المهندسون أنه لابد من تجديد الجميع فعرضوا الأمر إلى مسامع مولانا السلطان مراد المذكور فبرز أمره العالي بالتعمير فهدموا الباقي وعمروا الجميع فهذا البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد وتم التعمير في شعبان سنة أربعين وكان أمير مكة في ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن إدريس بن حسن أبي نمى وتوفي أثناء التعمير وولى إمارة مكة مولانا الشريف عبد الله بن حسن ابن أبي نمر وهو جده مولانا الشريف محمد بن عون فكان تمام التعمير في مدته وجاء تاريخ ذلك، رفع الله قواعد البيت، ولبعضهم:

١٠٤

مراد بنى بيت الإله وزاده * سناء بهاء يزدهي زيد مجده

١٠٣٩ ٢٣٠ ٨٠٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله، ثم في سنة خمس وأربعين برز الأمر السلطاني بتجديد الباب فجدد ووضع عليه حلية الباب الأول ووازنت قبل وضعها فجاءت مائة وأربعين رطلا خارجا عن الزرافين فوزنها وما شابههما مما كان على الباب ثمانية عشرة رطلا، وكتب على الباب الجديد اسم مولانا السلطان مراد وذلك موجود إلى الآن، وأرسل الباب القديم إلى دار السلطنة

وجعل في الخزائن السلطانية وكانت ولادة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٢١ وتوفي تاسع شوال سنة ١٠٤٩ وعمره ٢٩ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وإحدى عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية مولانا السلطان إبراهيم بن أحمد مع ذكر أول غزواته

لم يخلف المرحوم السلطان مراد ولدا وبقي من أخواته السلطان إبراهيم فبويع بعد وفاة أخيه. قال في خلاصة الأثر: كان ملكا معظما حسن النظر سمح الكف وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وبعد مضي سنتين من ولايته جهز جيشا لمحاربة القزاق فلم ينجحوا ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوقة فلما تضايق أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا فدخلها العساكر السلطانية وعمرتها وأقامت فيها جانبا من العساكر للمحافظة.

غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان إبراهيم جيشا في مراكب بحرية نحو أربعمائة مركب لمحاربة جزيرة كريد بمائة ألف مقاتل وسبب ذلك أن مراكب مالطة كانت قد تعدت على بعض مراكب الدولة ثم ذهبت فاحتمت عند مشيخة البندقية في كريد فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على مدينة قندية وهي من أعظم مدن هذه الجزيرة وفي أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنائسها جوامع ورجعوا إلى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها جانبا من العسكر فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدي العساكر السلطانية واستأسروا جانبا منهم، فغضب السلطان من هذا الأمر وجهز عليهم تجهيزا آخر فأخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة رتمو وكانت قلعة حصينة إلى أن ملكوها واستعانوا باللغم حتى أهلك خلقا كثيرا ثم ملكوا بقية جزيرة كريد إلا قلعة قندية وطال أمره مدة طويلة فتركوها وسيأتي ذكر فتحها في مدة سلطنة السلطان محمد بن

إبراهيم وجزيرة كريد من أعظم الجزائر وأكبرها تشتمل على بلاد واسعة ورسانيق كثيرة وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعا وعشرين ألف قرية وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوما هي ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وافرة، ثم أن رجال الدولة خلعوا السلطان إبراهيم سنة ثمان وخمسون وألف بسبب أنه كان منهمكا في اللذات والشهوات مسرفا في إنفاق الأموال وسلاطين آل عثمان إنما عظم شأنهم بزهدهم وعدلهم، وقد حكى أن بعض سلاطينهم تواعد مع شيخ الإسلام الذي كان في وقته أن يجتمعا في جامع من جوامع دار السلطنة في وقت مخصوص بالخفية للتشاور في بعض القضايا فحضر السلطان في الوقت الذي تواعد فيه وأبطأ شيخ الإسلام في الحضور وما جاء إلا بعد مضي مدة، فلما حضر سأله عن سبب تأخيره فقال: لما أردت الخروج رأيت عمامتي وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلي أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت فهذا يدل على أنه ليس عند شيخ الإسلام غيرها فقال له السلطان: لو كان عندي غير هذه التي على رأسي لأعطيتك إياها فانظر إلى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الإسلام فالأصل كله الزهد في الدنيا والعدل في بيت المال فالخلفاء الراشدون إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالزهد في الدنيا والعدل في بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام فالسلطان إبراهيم لما رأوه مسرفا في الإنفاق رأوه مخالفا لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا في السلطنة محمدا فكانت مدة سلطنة السلطان إبراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ما جهز جيشا إلى ناحية إلا انتصر ولا قصد فتح ناحية إلا افتتحها لولا ما نقموا عليه من الإسراف في بيت المال وجميع السلاطين الذين جاؤا من بعده كلهم من ذريته.

(فائدة) في خلاصة الأثر أنه اتفق للسلطان إبراهيم المذكور ما لم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر أنه

استقرى من ولي السلطنة، وكان اسمه إبراهيم فوجدوا لم يتم لأحدهم أمرها وقال الراغب في محاضرته قال أبو علي النظام: كان المهدي يحب ابنه إبراهيم فقالت له أم إبراهيم: ألا تراه بلى الخلافة؟ فقال: لا ولا يليها من اسمه إبراهيم إن إبراهيم الخليل أول نبي عذب بالنار وأن إبراهيم ابن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يعش وبويع إبراهيم بن المهدي، فلم يتم له الأمر وأحكم إبراهيم الإمام أمر الملك ليكون أول خلفاء بني العباس فقتل، قتله مروان بن محمد بن مروان وطلب الخلافة إبراهيم عبد الله بن الحسن المثنى فقتل وبايع المتوكل لابنه إبراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل فسبحان من دبر الأمور على طبق عمله وأجراها بحكمته وفي مروج الذهب للمسعودي قال إبراهيم بن المهدي: كنت أنا والرشيد على ظهر حراقه وهو يريد نحو الموصل والمداوون يمدون الشطرنج بين أيدينا فلما فرغنا، قال الرشيد: يا إبراهيم ما أحسن الأسماء؟ قلت اسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: فما الثاني بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال: فما أسمجها قلت إبراهيم فزبرني، وقال: ويلك يا إبراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من النمرود وألقي في النار قال: وإبراهيم بن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلت لا جرم لما سمي بهذا الاسم لم يعش قال: فإبراهيم الإمام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم ابن الوليد خلع وإبراهيم بن عبد الله الحسن قتل ولم أجد أحدا سمي بهذا الاسم إلا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطرودا فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا إبراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه أي بظرها قال فالتفت إلى الرشيد فضحك حتى فحص برجله اه.

ولاية السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم

كانت ولايته سنة ١٠٥٨ بعد خلع أبيه، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين، وكانت أمور الدولة في ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الأركان قد كثر حسادها وأعداؤها وكانت من جهة المالية في ضيق وعسر والعساكر غير منقادة

لأولياء أمورها وأصبح وكلاء الدولة في الولايات غير مبالين في تنفيذ أوامرها فمن هذه الأحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والأكابر، فكان الوزير يتولى أياما ثم يعزل أو ينفى واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة في تعكير والسلطان مع صغر سنه لا يزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه اللياقة لأن يتبوأ مسند الصدارة إلى أن عثروا على محمد باشا كوبرلي، وكان مسنا حاذقا ذا رأي وخبرة وسياسة كاملة لأن طول الأيام علمه ما لم يعلمه غيره فولى الصدارة سنة سبع وستين وألف وشرع في سد الخلل الذي أوقع الدولة في الانحطاط وببرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام.

ذكر غزوة في أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كوبرلي جهز جيوشا لقتال القزق والمجر وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم.

وفي سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب للبندقية وأخذ جزيرة بتفداس وجزيرة ليمنوس.

ذكر غزوة أخرى يتبعها أخرى

وجهز جيشا لقتال الصرب فانتصر عليهم وقتل منهم مائة وخمسين ألفا وخرج جماعة من الأروام في بلاد الأفلاق وأظهروا العصيان فأرسل إليهم عسكرا فقاتلوهم وانتصروا عليهم وجهز جيشا لقتال البندقية فاخترمته الوفاة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل إتمام الأمر فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل، وكان أكثر من أبيه في الحذق وحسن السياسة، وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها، وكان صائب الرأي كامل الفراسة (فراسة عجيبة) مما ينسب إليه من الفطنة أنه جاءه يوما شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوما شخص آخر برقعة، فلما رآها طلب ذلك التوقيع فجيء به فقابله على الرقعة فإذا الخط واحد ثم سأل صاحبها عن كاتبها

فأخبره به فلما مثل بين يديه أراء التوقيع، وقال: أليس هذا بخطك؟ فأقر فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه.

غزوة إيوار

فمن الغزوات التي وقعت في أيام وزارته غزوة إيوار عينه السلطان محمد لفتحها فسار بجميع العساكر وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظمية ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها.

ذكر غزوة عظمى إلى كريد

وفي سنة سبع وسبعين توجه بجيش إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما تقدم شرح ذلك فلما وصلها بنى بالقرب منها مكانا كان متهدما لتهيئة مهمات الحصار، ثم نزلها بمن معه من العساكر، وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سورا آخر عمروه من داخل السور القديم وطال الحرب بين الفريقين مدة وأرسل أهل قندية إلى فرنسا يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل وجاءهم أيضا نجدة من مالطة، ومن البابا فاجتمعت مع عساكر فرنسا ونزلوا إلى البحر وهجموا على العساكر العثمانية، واقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيه لعساكر الإسلام فقتلوا أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل، فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ثم أن أهل قندية أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك وأخرجهم منها ووضع فيها العساكر الإسلامية ورجع الوزير إلى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطية وغيرهم غنيمة، وكثير من الأسرى وفي غرة جمادي الأولى سنة ثمانين وألف وردت البشائر إلى الأطراف بالزينة، وكثرت تباشير الناس بفتحها، وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ومن نوادرها التاريخ اللفظي المعنوي للفاضل الشيخ أحمد الصفدي وهو قوله (في عام ألف وثمانين عام).

غزوة إلى بلاد القرم يتبعها أخرى إلى بولونيا

وفي سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين باللية من النصارى فافتتح قلعة قنجة.

وفي سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر إلى بولونيا وفتح مدينة كيناكره الشهيرة في متانة قلعتها وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ثم عقد صلحا مع أهل بولونيا ووضع عليهم خراجا سنويا، ولما رجعت العساكر الإسلامية بلغهم أن أهل بولونيا بدسائس النمسا والبابا تحركوا وأظهروا العصيان وانضم إليهم عصاة من الأفلاق والبغدان والقزق واتسع الأمر وتوفي الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف وحزن السلطان وجميع الناس عليه وولى الصدارة مصطفى باشا، وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقى في الخدم والمناصب وتعلم كثيرا من سياستهما وإن لم يكن مثلهما.

ذكر غزوة عظمى إلى جهرين

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التي بالقرب منها وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى إنهم يبالغون فيما يدخل منها حد المبالغة وسبب ذلك أن بلاد النصارى المعروفين بالموسكوف والقزق محتاجون إليها وليس في بلادهم مملحة غيرها ولما فتحت هذه القلعة سر الناس سرورا عظيما لأنّ فتحها كان في غاية الصعوبة، وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤن بالوزير المذكور في قصدها، وأشاعوا أخبارا في انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك ما يعرفونه من بينها تابعة لملك الموسكوف أكثر ملوك النصارى جيوشا وأكبرهم ملكا وبالجملة فإن فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات وبعد فتحها زينت دار الخلافة ثلاثة أيام، وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلسترة بروم إيلي فكتب إلى قائم مقام القسطنطينية أنه يريد القدوم إلى دار

المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى ثم قدم السلطان فشرعوا في الزينة وبذلوا جهدهم في التأنق فيها واتفق أهل ذلك العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار، ثم وقع بعدها حريق في القسطنطينية حرق فيه نحو اثنى عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق في كثير من المحلات حتى حسب ما وقع منه فكان تسعين حريقا كل ذلك في سنة واحدة فكان ذلك الفرح سببا لهذا الترح فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ثم طلب الوزير مصطفى باشا من السلطان محمد الإذن بالسفر إلى بلاد الانكروس وافتتاح مدينة فينا قصبة بلاد النيمسا فأذن له السلطان، وشرع في تهيئة الأسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر وجمع من الجيوش ما لا يدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر، ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمما على أخذ النصارى بالقوة الجسيمة ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين إلى أن وصلوا قلعة يالق يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة ١٠٩٤، ثم توجه يوم السبت قاصدا قلعة بج وأطلق أمره في نهب القلاع والقرى التي على الطريق فما كان للعسكر مشغلة إلا نهبها وإحراقها وإتلاف زرعها فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مائة قلعة وما يتبعها من القرى أشياء كثيرة جدا وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوي على ألف بيت أو أكثر وجميع هذه القلاع والقرى في نهاية الإحكام وحسن البناء والبيوت في غاية من إتقان الصنعة مسورات بالرخام وفيها من السماقي ما لا يوصف وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاث طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب، وعاثت العسكر في البلاد والكفار إلى قريب قزل ألما التي هي محل الأنكروس المعروف بالبابا ونهبوا ما قدروا عليه وحرقوه.

ومن أغرب ما وقع في هذا الأثناء أن سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناسا قلائل من النساء والرجال العاجزين عن

الحركة فيقتلوهم ويستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار ففعلوا هذا في أكثر من أربعين قلعة وغنم المسلمون غنائم لا تحصر وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش وهرب عسكر النصارى من بج ونواحيها وأخذوا معهم كثيرا من الأموال فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلا، ولما وصل الوزير المذكور إلى بج وهي مدينة فينا وكانت النيمسا قد حصنتها تحصينا عظيما، وضرب مخيمة بها وهي قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والأبنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكانا باسم الملك تحتوي هذه الأمكنة على عجائب الزخارف والفواكه والفساقي ومن السماقي والرخام وقد تقدم أن عسكر بج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق إلا عشرين ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية في داخل القلعة فأمر الوزير بمجاهدة القلعة فنصب عليها المكاحل، وشرع في رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس فضاق بمن فيها الخناق في أقل من قليل والتجأوا إلى أن يسلموها طوعا فأبى الوزير خوفا من أن ينهب العسكر ما فيها من المال فراجعه الوزراء والعسكر في المبادرة إلى دخولها صلحا خوفا من أن يأتي أمر فقال إن ضمنتم لي العسكر في أن لا يأخذوا شيئا فعلت فأبوا فتمادى الأمر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء في أعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة وما لهم علم بما سيحدث وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم ويستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين وكان ملك النيمسا لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فر من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونيا في الاتحاد وقتال من يعاديهما فاتفقت النيمسا وألمانيا وكثير من الفرنج على قتال المسلمين وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه وكانت مدة الحصار ٤٥ يوما فبينما الوزراء يدبرون في الفتح عنوة إذا بطلائع الكفار أقبلت وفي أثرها عسكر سد الفضاء وشبت نيران القتال لا يبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت

بجنان من الصخر وهجموا دفعة واحدة والعسكر في غفلة عما يراد بهم واختلطوا بهم طامعين في قتلهم وسلبهم وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ولم يكن أسرع مما انقلب العيان وجمدت في الوجوه العينان وكان المقدم من المسلمين من عمد إلى الفرار ولم يقر له في تلك الحركة القرار فقتل من قتل ونجا من نجا واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتعسر إليه الوصول وكر الوزير بمن معه هاربا وتفرق العسكر في تلك البراري الوهاد ونفد ما كان معهم من الزاد ونفذ أمر العلي الكبير وهو على جميعهم إذا شاء قدير ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الأفلاق والبغدان والأردل العصيان وزحف الكفار على بلاد الإسلام، قال بعض المؤرخين: في وصف اليوم الذي هجم فيه النصارى على المسلمين وهجموا دفعة واحدة على صفوف العسكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دائر من الصباح إلى المساء حتى تخضبت الأرض بالدماء وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء وصمت الأذان من صوت المدافع والقنابر، وكان يوما مهولا لا يسمع بمثله في زمان غابر وبقي الوزير مصطفى باشا في بلغراد في قلق واضطراب مترقبا لما يظهر في حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب فبرز الأمر السلطاني بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سوء تدبيره فقتل في المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين وعين للصدارة بعده إبراهيم باشا وبعد تلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوروبا على طرد المسلمين من قرة بلادهم، فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمموا على إخراج المسلمين من أوروبا فتكفلت النيمسا وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا والبندقية وغيرهم من ساكني شطوط البحر الأبيض في دلمانيا بكثير من البلاد وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج من جملة أماكن والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة فلم ينجح تدبير إبراهيم باشا السدر فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين

وألف وسار بالعساكر إلى بلاد المجر، وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلي لكنه كان قاصرا في التدبير فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب إلى القسطنطينية فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف وأقيم في الصدارة سيواس باشا، وكان السلطان مشغولا بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثرة الجوع والغلاء والحرائق فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا السلطان محمدا سنة تسع وتسعين وتوفي سنة أربع ومائة وألف، وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر.

(**لطيفة**) في مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهودي يدعي أنه المسيح ومسلم يدعي أنه المهدي في عام واحد وهو عام ١٠٧٢ أما اليهودي فظهر في ازمير زاعما أنه المسيح وكان اليهود ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء عليهم السلام فلما بعث عيسى عليه السلام كذبوه ولما بعث محمد صلّى الله عليه وسلّم كذبوه أيضا ولم يزالوا ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام فإذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون إنه هو النبي المبعوث في آخر الزمان الذي وعدهم به موسى عليه السلام، فلما ظهر هذا اليهودي بازمير ادعى أنه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه وأظهر اليهود أنه هو النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام وكان فصيح اللسان جميل المنظر وزعم أنه يوحى إليه وأنه إنما يتكلم بالوحي فصار يعظ الناس ويجتمعون عليه، ثم انتقل إلى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم في الممالك العثمانية فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجا ليتبركوا به ويبالغون فيما يحكونه عنه من إظهار عجائب وخوارق عادات كان يوهم عليهم بها ويصنعها بالحيل كالحواة فيزعمون أنها معجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك كله في مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم فاتح مصر فأراد الوزير المتولي دمشق أن يقبض على ذلك اليهودي المدعي لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه وكان اليهود

الذين بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتي إليهم فتوجه إليهم واستعدوا لملاقاته ليأخذوا بيده ويتبعوه، فأرسل الصدر الأعظم وقبض على ذلك اليهودي وهو في المركب الذي جاء فيه ووضعه في السجن فكان اليهود يطلبون الإذن من الصدر الأعظم ليأذن لهم في زيارته في السجن وتقبيل أقدامه فكانوا يأتون لذلك من جميع الجهات فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالا جزيلا يأخذه منهم وجمع من ذلك مالا كثيرا فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم ثم إن السلطان محمدا أحضر ذلك اليهودي بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التركي كلاما ضعيفا غير فصيح فقال له السلطان محمد أن مسيحا مثلك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ثم قال له السلطان: هل تصنع شيئا من العجائب؟ فقال: نعم في بعض الأوقات فقال له السلطان محمد: إني أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة وأمر أن يجرد من ثيابه ويوقف في فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فإن نجا و لم يهلك علم صدقه فيما يدعيه فلما سمع هذا الكلام خر راكعا على الأرض وقال: إن قوتي لا تقدر على هذه العجيبة فأمر السلطان بقتله فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول في الإسلام فقبل السلطان محمد منه ذلك فأسلم وحسن إسلامه وصار يعظ اليهود فأسلم خلق كثير وأما الرجل المسلم الذي ادعى أنه المهدي فإنه رجل من الأكراد وظهر أيضا في هذا العام في ناحية الموصل وتبعه خلق كثير فقبض عليه وأتى به إلى السلطان محمد أيضا فأحضره وعرض عليه مثل ما عرض على اليهودي فأبت نفسه الشقية أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسه بل رضي أن العساكر ترمي عليه الرصاص فرموا عليه فمات من ذلك وبعده خلع السلطان محمد وأقيم في السلطنة أخوه السلطان سليمان الثاني ابن إبراهيم.

ولاية السلطان سليمان الثاني

فولى السلطنة وأمور الدولة في غاية الارتباك وزيادة على ذلك هاج العساكر الانكشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيرا من الوزراء ليقتلوهم وقتلوا الصدر الأعظم

سيواس باشا وأقيم بعده إسماعيل باشا واستولت النيمسا على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية وبعد ثلاثة أشهر عزل إسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلي مصطفى باشا سنة ألف ومائة وواحدة وفي تلك السنة توجهت العساكر العثمانية إلى ناحية أدرنة وفي ذلك كانت عساكر النيمسا محاصرة بلغراد ثم ملكوها في تلك السنة بعد حصار طويل.

ذكر غزوة السلطان سليمان الثاني

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكي يخرج بنفسه وكانت الخزينة خالية من المال فعرضوا على أهل القسطنطينية أن كل عائلة تجهز خيالين وفي أثناء ذلك توجه من طرف الدولة إلى فينا بلاد النيمسا ذو الفقار أفندي لأجل المخاطبة في عقد الصلح فعرض عليه إمبراطور النيمسا أنه عند دخوله يسجد أولا عند باب القلعة وثانيا في وسطها وثالثا أمام كرسيه ثم يقبل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجدا كذلك فأبى وأقام عشرة أشهر في هذه المنازعة، ولما رأى السلطان أنه قد طال أمر هذه المخاطبة أمر بالذهاب إلى الحرب فتقدمت العساكر إلى بلاد المجر وحاربتهم وأخربت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد وكان الجرنال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة في نواحي بلاد اليونان وكسرهم وكان عددهم خمسين ألفا وأما عساكر النيمسا الذين كانوا في نواحي الطونة فقتلهم العساكر العثمانية وشتت شملهم فتركوا البلاد والقلاع وفر من بقي منهم.

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النيمسا إلى القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له في بلاد النيمسا لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغاضى عن ذلك فعزم على حرب النيمسا فأمر بتجهيز العساكر وأخذ في استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النيمسا حتى احتموا بالدولة وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التي كانت عنده وعند السلطان وأرسلها إلى دار الضرب فسبكها معاملة

ثم توجه لمحاربة النيمسا ومعه نحو مائة ألف ففتح بيساو ودين سمندريا وبلغراد ثم رجع إلى القسطنطينية مظفرا منصورا.

ذكر غزوة أخرى

وفي سنة ألف ومائة واثنتين بلغ الدولة تقدم النيمسا فزحف عليهم مصطفى باشا بالعساكر المنصورة، وتوفي السلطان سليمان في رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء وعمره خمسون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر.

ذكر ولاية السلطان أحمد الثاني ابن إبراهيم وأول غزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده أخوه السلطان أحمد بن إبراهيم وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائرا بالعساكر لمحاربة النيمسا وكانت عساكر الدولة تقدمت إلى قرب بزرزدين واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر الأكراد فلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم في وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده وإذا برصاصة أصابته في رأسه فوقع قتيلا رحمة الله عليه وبموته تغلبت عساكر النيمسا على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة وقتل خلق كثير من المسلمين قيل إن عدد القتلى كان ٢٨ ألفا وفي ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الإفرنج نصرا شديدا، وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجي علي باشا ثم عزل سنة أربع وأقيم بيقلو مصطفى باشا وحدث في هذه السنة حريقة في القسطنطينية أحرقت ربع المدينة.

ذكر غزوة في خلافة السلطان أحمد الثاني

في ذي القعدة من هذه السنة توجه الوزير إلى بلغراد لمحاربة النيمسا وكانت محاصرة بلغراد فلما بلغ النيمسا قدوم الوزير رفع الحصار وهربت من أمامه فأمر الوزير بترميم الأماكن التي أخربتها عساكر النيمسا ورجع بعد ذلك إلى أدرنة وبقي جيش الدولة محافظة هناك، وكانت دولة انجلترا تداخلت مع دولة هولاندا في إتمام

الصلح مع الباب العالي والنيمسا ولم يتم. وفي سنة خمس ومائة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجر وبسبب الأمطار الكثيرة رجعوا إلى البلغراد. وفي سنة ست توفي السلطان أحمد وعمره أربع وأربعون سنة ومدة مكله ثلاث سنين وثمانية أشهر.

ذكر ولاية السلطان مصطفى الثاني وغزوة يتلوها غزوات

وأقيم في السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل أصدر فرمانا شريفا يقول فيه لا يجوز لعبيد الله أن يتمتعوا بالراحة وهو هم على تخت السلطنة فمن الآن وصاعدا أحتم أن التلذذ والكسل يهجر من دولتي العلية لأن الأعداء قد أحاطوا بمملكة الإسلام واستأسروهم وسوف آخذ ثأرهم إن شاء الله تعالى وأسير أمام جيوشي لأن جدي سليمان العظيم الذي تتصاعد رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزرائه فقط للجهاد بل كان يخرج بنفسه للمبارزة في الجهاد المقدس حتى أن فخره ومجده قد انتشر في جميع الأقطار المسكونة وأنا سوف أصنع نظيره فأطيعوا أمير المؤمنين والسلام.

وكان السلطان مصطفى المذكور محبا للعلوم والمعارف متدينا عادلا وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق، ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لا ينبغي أن يخاطر بنفسه فلم يلتفت إلى كلامهم.

ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى

ثم عزم على الخروج بالعساكر فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتَّتَهم في جهات البحر الأبيض وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النيمسا وملكوا جملة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيترانى، وكانت عساكره أكثر من عساكر الدولة بخمس مرات وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون وعند دخول الشتاء رجع

السلطان بجانب من العساكر إلى أدرنة وترك الباقي يحارب النيمسا، ثم دخل بالعساكر القسطنطينية في موكب حافل ومعه أسارى كثيرة ومدفع وبيارق من غنائم النيمسا وفي أثناء ذلك حاصر ملك الموسكوف قلعة أزوف فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها وقتلت من عساكره ثلاثين ألفا ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر وتملك الموسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعا.

ذكر غزوة عظمى

بلغ السلطان أن النيمسا جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوي، وكان متدربا في الحرب، فسار السلطان سنة ثمان ومائة وألف بمائة ألف مقاتل إلى مدينة أدرنة وأرسل الجيوش منها لمحاربة النيمسا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، وكان النصر للمسلمين فقتلوا من النصارى عددا كثيرا وشتتوهم في جميع الجهات ورجع السلطان إلى مقر ملكه.

غزوة أخرى

في سنة تسع بلغ الباب العالي رجوع عساكر النيمسا مع الجترال أوجين الفرنساوي فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الأعظم محمد الماس باشا واستولوا في طريقهم على عدة قلاع، ثم التقوا بجيوش النيمسا التي مع أوجين الفرنساوي ووقع بينهم وقعات ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الأعظم في ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ثم انهزم ورجع إلى بلاد المجر، وفي أثناء ذلك سعت دولة فرنسا وانجلترا وهولاندا في الصلح واختاروا مدينة كرلوقر لانعقاد الجمعية بهذا الصدد والسبب أن الدولة كانت كلت وقلت النقود من كثرة الحروب فحصل القبول لهذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرنسا وانكلترا والموسكوف والنيمسا والبندقية وبولونيا وهولندا وبعد ٣٦ جلسة في ٧٢ يوما تم الصلح في رجب سنة ١١١٠ وانعقدت شروطه باتفاق الجميع وتلك الشروط تعرف بشروط كازلاويز، وكان من جملة الشروط حصول الهدنة

ومتاركة الحرب مع النيمسا ٢٥ سنة وأما الموسكوف فلم يقبل إلا بهدنة سنتين وبعد انعقاد الصلح هاجت الناس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت إلى أن قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندي قيل إن السلطان مصطفى لما بلغه أنهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسي السلطنة فكانت مدة تملكه ٨ سنين و ٤ أشهر، وكان خلعه سنة ١١١٥ ومات في السنة التي بعدها فعمره ٤١ سنة.

ولاية السلطان أحمد الثالث

تسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم، وكان من الصالحين المحبين للجهاد وإقامة الحق ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شيء عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا سببا في تلك الفتنة، وقتل كثيرا منهم.

ذكر غزوة في زمن السلطان أحمد الثالث

ثم جهز عمارة لمحاربة البندقية في جهات المورة فملكوا أكثر الجزائر واستأثروا كثيرا من البندقية واستولوا على مراكبهم.

وفي سنة ستة عشر ومائة وألف قامت الحرب على قدم وساق بين قيصر روسيا بطرس وكارلوس ملك السويد واسترسلت إلى سنة فانكسر أخيرا كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسيا بطرس الأكبر، ولما انهزم ملك السويد دخل في حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الإكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ومكث في بلاد الدولة مداوما الإلحاح عليها لمحاربة الروسيا إعانة له فامتنعت الدولة من إجابته.

ذكر غزوة إلى الروسية

ثم أجابته في سنة ١١٢٣ وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشا تحت قيادة محمد باشا البلطجي، فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر برت وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر في خطر مبين ولو لم تتدارك الأمر

زوجته كاترينا بحذاقها ودرايتها لأصبح زوجها أسيرا، فعقدت صلحا مع الوزير الأعظم تحت شروط منها ترجيع بحر أزوف إلى الدولة وهدم الحصون التي على سواحل هذا البحر ويترك للدولة المدافع التي فيها وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القذف، وأن تتعهد لملك السويد بحرية الرجوع إلى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وأمر بعزله ونفيه، فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا وتم رأي رجال الدولة على إبطال ذلك الصلح مع الروسية وإشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير في تلك العهود، وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب، فلذلك صار يؤخر في تجهيز المهمات الحربية واجتهد في تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمسة وعشرين سنة، فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا وذلك سنة أربع وعشرين ومائة بعد الألف، ثم إن ملك السويد أراد الرجوع إلى بلاده وطلب من الدولة ألف كيس، فأمرت له بها، ثم طلب ألفا أخرى فأمرت له بها، فغضب الوزير وأراد إخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها، فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه إبراهيم باشا، ثم بعد عشرين يوما عزل وأقيم مكانه داماد علي باشا فعقد الصلح مع الروسية على ٢٥ سنة وفي أثناء ذلك حضر إلى ملك السويد كتاب من أخته تقول له: إن حضوره لازم لأجل راحة المملكة، فعزم على الرحيل واستأذن الدولة في الرجوع فأمرت له بستمائة جاويش لأجل محافظته في الطريق وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل وصيوانا مطرزا بالذهب وسيفا مرصعا بالأحجار الثمينة، فرحل من بلاد الدولة سنة ست وعشرين ومائة بعد الألف شاكرا أفضال الدولة على ما صنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الأعمال الممدوحة التي تستحق أن ترقم في صحائف التواريخ لتكون تذكارا بين الملوك وأهل السويد لا ينسون هذا الجميل الذي فعلته الدولة العلية في حق ملكهم.

ذكر غزوة عظمى

وفي سنة ست وعشرين أيضا فتحت الدولة والحرب على البندقية واستولت العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة وألف، وكانت مشيخة البنادقة استغاثت بملك النيمسا وهو إذ ذاك إمبراطور ألمانيا فلبى دعوتها وبعث إلى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمد من طرفها إلى حدود بلاد المجر لأجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقية وإن أبت عن ذلك فإنه مستعد أن يشهر الحرب عليها فلم تجب الدولة هذا الطلب.

ذكر غزوة

بل أرسلت على الفور الصدر الأعظم بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة ألمانيا فوافاهم ثمانون ألفا من عساكر الألمان تحت قيادة الأمير أوجين الفرنساوي والتقى الجيشان عند كرلوفيتر والتحم القتال بين الفريقين مدة أيام، وكان الصدر الأعظم داماد علي باشا من أحسن أبطال زمانه فكان ينزل في ميدان الحرب ويقاتل بنفسه أشد القتال فقدر الله أنه قتل في ميدان القتال فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاما مهولا واستولت عساكر العدو على المهمات والمدافع، ثم تقدموا إلى مدينة تميغار وحاصروها شهرين وملكوها.

ذكر غزوة أخرى

وولى الصدارة خليل باشا فجهز جيشا لقتال العدو وسار إلى أدرنة ومنها إلى بلغراد واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضا على جيش المسلمين وملك العدو مدينة بلغراد فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا وعزل بعد ثمانية أشهر وأقيم مكانه داماد إبراهيم باشا وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلا بالحرب مع العدو في جهة بوسنة ولما بلغت هذه الأخبار ديوان السلطنة فتحت المخابرة في الصلح سنة ثلاثين ومائة وألف وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة ألمانيا وجمهورية البندقية على حدته فأجاب الأمير

أوجين بأن الإمبراطور لا يفتح المخابرة إلا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت نظره وأردف هذا الطلب بأن يعطى له ماعدا مصاريف الحرب ومدينتي بلغراد وتميغار وإقليما بوسنة والصرب والواقعان في الجهة اليمنى من نهر الدانوب والأفلاق من حدود بغدان إلى نهر دنيستر وأن ترجع المورة إلى البندقية فعظمت هذه المطالب على السلطان أحمد وفضل فقد التاج على التسليم بشروط مجلبة للعار فتداخلت أخيرا دولتا إنكلترا وهولنده في نقض الخلاف وصار القرار على أن يبقى في يد كل من الدولتين الأملاك التي تكون في يدها عند إمضاء المعاهدة وأن يبقى إيالة المورة للدولة العلية. وفي سنة ٣٣ حدثت حريق مهولة في القسطنطينية أحرقت نحو ربعها وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونيا شروط الصلح وروابط العهود.

ذكر عزوة إلى بلاد العجم

في سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون في حدود العجم إلى السلطان أحمد يشكون من المظالم والتعدي التي يجريها الشيعة عليهم ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم فأجابهم السلطان أحمد وسير جيشا إلى بلاد العجم وفتحوا جملة حصون ومدينة أرمقان ونهاوند وتبريز وشتتوا جموع الأعاجم قتلا وأسرا وامتلأت أيديهم من غنائمهم فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة في الصلح فقبلت بشروط أن يرجع إلى الدولة البلاد التي كان استولى عليها وفي أثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهماسب فأرسل إلى الدولة يطلب ترجيع الأملاك التي أخذت من أبيه وحاصر تبريز وملكها واستولى على ستمائة حمل جمل من الأمتعة فصدر الأمر من السلطان أحمد بتجهيز العساكر لحرب الأعجام وعند ما كانوا على هيئة الذهاب وذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هاجت العساكر الإنكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وشيخ الإسلام وقبطان باش وكتخدا بك لشكايا يشكون منها فلم يقبل السلطان منهم ذلك فقالوا نسمح عن شيخ الإسلام فقط تم قتلوا الصدر الأعظم إبراهيم باشا

وكتخدا بك، ثم أن بعض العسكر أنكروا أن المقتول إبراهيم باشا وقالوا إن المقتول رجل يشبهه وليس هو ورجعوا يطلبون من السلطان إحضار إبراهيم باشا وأخذوا يصرخون يعيش السلطان محمود وساروا يطلبون السلطان محمودا في المكان الذي هو فيه وأتوا به إلى الديوان وأجلسوه على كرسي السلطنة وبايعوه بعد أن خلعوا عمه السلطان أحمد فكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفي سنة تسع وأربعين وعمره ستون سنة ومدة ملكه سبع وعشرون سنة وأحد عشر شهرا.

ولاية السلطان محمود الأول

وأما ابن أخيه الذي أقيم في السلطنة بعده فهو السلطان محمود الأول ابن مصطفى بن محمد بن إبراهيم هكذا ذكرت هذه القصة في كثير من التواريخ ورأيت في تاريخ مكة للرضي حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير إبراهيم باشا، فقال: في تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف كان جلوس السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان محمود بن السلطان مصطفى بن محمد ورفع عمه السلطان أحمد بن السلطان محمد المتولي سنة ألف ومائة وخمس عشرة وكان هذا الرفع والجلوس لأسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم، وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد إبراهيم باشا ومن كيخيته حتى زاد الحال على المسلمين اجتمع من أطراف العسكر اثنا عشر نفرا لا زيادة واستمر عشرة أيام وهم في كل يوم يخرجون ويجتهدون في أن يعضدهم أحد من العسكر فلم يحصل ذلك وفي اليوم الحادي عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدري أين ذهبوا ولم يبق منهم إلا واحد فصار ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جوادا وامتثلوا له جميع ما أمر، وصارت عدتهم فوق العشرة آلاف وفي أثناء ذلك السلطان أحمد حافظ للوزير وكيخيته وأمير البحر المسمى بالقبطان وهو في غاية الذلة والهوان أرسل إليه أمير الأمة المذكور بأن ادفع إلينا الوزير والكيخية، نريد أن نقتص منهم مظالم الخلق

فاضطرب حالهم إضطرابا انجلى عن قتل الوزير لكيخيته بيده ثم قتل القبطان أيضا بيده ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل إليهم برؤوس الثلاثة بناء على أن ذلك مرض لهم فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا: إن قتل القبطان كان ظلما لأنه لم يصدر منه ما يوجب ذلك وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن لنا به غرض بل كان مطلوبنا حضورهما حيين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما في البلاد، ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضا فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفئ هذه الثائرة إلا إخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة، فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب إليه في الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ثم أرسل إليهم بأن يتفرقوا فأبوا إلا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفي جماعة فتم لهم ما طلبوه، ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضا، فأرسل إليهم شيخ الإسلام بأنكم إذا لم تتفرقوا وإلا أخرجت لواء النبي صلّى الله عليه وسلّم وأخذت عليكم فتوى ووجهت الجهاد عليكم، فعند ذلك تفرقوا فطلب ذلك الرجل الذي كان أمير هذه الأمة المجتمعة، فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يدرى أين ذهب واستقرت السلطنة للسلطان محمود الأول وصدرت منه الأوامر العلية إلى جميع ممالكه وزينت البلاد وكان من أغرب الاتفاق أن أخرج تاريخ ذلك قوله تعالى (**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** * الحشر: ٢)

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

وقد وقع في مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسية وألمانيا عدة سنوات وكذا وقعت أيضا محاربات بينه وبين العجم.

ذكر غزوة إلى العجم

فمنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت في حكم الدولة وأخذوها وحاصروا بغداد فجهز السلطان محمود عليهم جيوشا سنة ست

وأربعين ومائة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشتتهم في الجهاد وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجع بعض جيوش الدولة إلى كردستان ليخلصها من أيدي الأعجام واشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا في ميدان الحرب، وقد كان في السنة التي قبلها عقد صلحا مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدي العجم، فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك، ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة، فلما بلغ الخبر الباب العالي جهز السلطان جيشا آخر لقتال العجم، ولما وصل الجيش إلى شط نهر كوبال صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ودخلت عساكر الموسكوف في بولونيا فشكتهم الدولة إلى ملوك أوروبا لأن ذلك مخالف للشروط التي كانت بينهم فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره في بولونيا تمنع دولة فرنسا من تسليم أحكام بولونيا فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف.

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وسارت العساكر في سنة تسع وأربعين ومائة بعد الألف بعد أن عقدوا صلحا مع العجم غير الصلح الذي تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع، وفي مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر الموسكوف وأخذت بعض جهات من أراضي الدولة فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت إلى القرم واقتتلوا مع الموسكوف فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ثم أن الموسكوف اتحدت مع النيمسا وألمانيا وكانت ألمانيا تابعة للنيمسا ورجعوا واستلموا قلعة أزوف وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة واستولت عساكر النيمسا على ثمان مدن من بلاد الصرب والأفلاك وعلى قلعة نيش.

غزوة أخرى

فرجعت إليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النيمسا قدام بنالوغا وتشتت في جهات البلاد وامتد الانتصار إلى أن طردت عساكر الدولة النيمسا من الأفلاك

والبغدان وأرصوفا واسترجعت قلعة نيش وأحرقت لهم سبع مراكب حربية في البحر تجاه قلعة اليرابت وتوسطت فرنسا في الصلح فلم يقبل السلطان، فلم تزل فرنسا تراجع السلطان إلى أن تم الصلح بشرط أن النيمسا ترجع بلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الأفلاق والصرب وغير ذلك وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة وعقدوا هدنة طويلة وهي سبعة وعشرون سنة واشترطت الدولة على الموسكوف أن لا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية في البحر الأسود وبحر أزوف وأن الموسكوف يرجع الأماكن التي استولى عليها في مدة الحرب وأن يهدم قلعة أزوف وبعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم فأجابتها الدولة إلى ذلك وعظم أمر السلطنة في تلك السنة. فهذا تلخيص ما كان في مدة السلطان محمود الأول وكان من أعظم السلاطين آل عثمان عقلا وهمة وتدبيرا ومحبة للجهاد ونصرة الدين وإقامة الشريعة وتوفي رحمه الله سنة سبع وستين ومائة بعد الألف وعمره ستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة. (ولاية السلطان عثمان الثالث) وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان بن السلطان مصطفى بن محمد بن إبراهيم ومكث قريبا من أربع سنين وتوفي سنة إحدى وسبعين ومائة بعد الألف. (ولاية السلطان مصطفى الثالث) وأقيم بعده في السلطنة السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم، فلما استقر في ملكه أخذ في تعظيم ملكه وتقوية ما وهن منه وكان ذلك بإسعاف وزيره الصدر الأعظم محمد راغب باشا المشهور بالعلم والتدبير وحسن السياسة.

وفي سنة ست وسبعين ومائة بعد الألف توفي راغب باشا وبعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية وفي هذه السنة خلعت كاترينا امرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسي السلطنة وجلست مكانه وسجنته، ثم أمرت بقتله فقتل وأخذت تسعى في إخراج اليونان عن طاعة الدولة العثمانية وحركت اليونان في المورة والأرناؤوط وأخذوا يستعدون لخلع الطاعة ونهض علي بك بمصر وتغلب

عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال وأرسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفا لحماية البلاد على شاطئ نهر الطونة وأرسلت اليونان إلى كاترينا ملكة الموسكوف تستنجد بها فبعثت لهم جيشا لم يغن شيئا فهزمتهم عساكر الدولة غير أن عساكر الموسكوف في تلك الأيام انتصرت على عساكر الدولة التي كانت على حدود الطونة واستولوا على بندر واكرمان وإسماعيل وقلاع على شاطئ هذا النهر، ولما بلغ الباب العالي هذه الوقائع صدر الأمر بتكثير الجيوش.

وفي السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت إلى بلادها بعد أن فقد منها عساكر كثيرة في الحرب وبالطاعون وحينئذ أخذت النيمسا وبروسية في التوسط في الصلح وتوقيف الحرب ولكن لما رأت الدولة أن مطالب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب.

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وفي سنة ألف ومائة وست وثمانين سار الصدر الأعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف فضربهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمائة أسير وسار حسن باشا قبطان باشا بجانب من العساكر الشهانية وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضا وأخذ مدافعهم وذخائرهم، وفي أثناء هذه الغلبات توفي السلطان مصطفى سنة سبع وثمانين ومائة بعد الألف وعمره ثمان وخمسون سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة.

ولاية السلطان عبد الحميد الأول

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع بن إبراهيم وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بإنجاز الجيوش وتكثيرها.

ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الأول

بعث مع الصدر الأعظم أربعمائة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين

الجيوش الروسية فحصلت لهم هزيمة وانحصروا في شملة ووقعوا في صعوبة كلية، فاجتهد السلطان في إرجاع قوة الدولة وكانت العساكر قد كلت من الحروب وحدث بين العساكر الإنكشارية شغب، فتركوا الصدر الأعظم في ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر فرجع إلى شملة وأرسل يعلم الباب العالي بذلك فصدر الأمر بعقد الصلح فتم على شروط تعرف بعهد كوجك قينارجه، وهي منطوية على استقلال التتر في بلاد القرم واليوجك والكوبان، وعلى سير السفن الروسية في بحر الدولة، وترك أزوف وكيل برون وبعض القلاع إلى الموسكوف وقبول الدولة انقسام بولونيا والموسكوف يترك للدولة الأفلاق والبغدان والجزائر التي كانت في يدها في البحر الأبيض وبعد إمضاء هذه الشروط عاد الصدر الأعظم محسن باشا بمن معه من العساكر إلى دار السلطنة وتوفي في طريق مدينة أدرنة وأقيم مكانه محمد عزت باشا وأخذ السلطان عبد الحميد في إصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين في ممالكه ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدى من حين إلى حين على حدود الدولة حتى أنّها أغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد يتحمل التعديات بمرارة عظيمة زمانا طويلا ويرى سلطنته مشرفة على وهدة السقوط وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافي ولما رأى أن كثيرا من ممالكه وقعت في قبضة الأجانب شرع في استعدادات جديدة للحرب.

ذكر غزوة أخرى

وبعث جيوشا متعددة فمنها جيش سار به حسين باشا القبطان فقتل كثيرا من العصاة وبعث برأس ظاهر العمر الذي تغلب في جانب سورية وبرأس حاكم البغدان الذي كان يحاكيه في الشقاوة.

غزوة أخرى

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكني المورة فسار إليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس فأرعب قلوبهم وكسر عزائمهم وألزمهم الطاعة

وطلب العفو لهم من الباب العالي وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائما في تخفيض قوة الدولة العثمانية وما اكتفت بتملك القرم فأرسلت أناسا في كثير من الممالك يزرعون فيها الفتن فلما نظرت رجال الدولة تعدي الروسية على حقوق الدولة استشاطوا في ذلك ونادوا بالحرب وكانت الإنكليز تحرض الدولة على ذلك ويؤكد لها الإعانة وأن دولة اسوج وبلونيا ينهضان معها لإسعاف الإسلام وأن بروسية تقاوم النيمسا.

ذكر عزوة أخرى

فصدر الأمر إلى الصدر الأعظم يوسف باشا فتوجه لحرب الروسية والنيمسا وكانت كاترينا ملكة الروسية حضرت إلى بلاد القرم بجيش عظيم وحضر إمبراطور النيمسا بجيش عظيم وكان قد تعاهد معها على محاربة الدولة وكانت فرنسا متفقة مع الروسية سرا فاقتتلت عساكر الدولة مع النيمسا في محل يقال له فتح الإسلام والجزيرة الكبيرة فانتصرت العساكر الإسلامية واستولت على كثير من القلاع والحصون.

غزوة أخرى

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رئاسة شاهين علي باشا وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النيمسا حتى كاد إمبراطور النيمسا يقع أسيرا تقدمت عساكر الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقي الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر، فلما شاهد الصدر الأعظم ذلك كتب إلى الباب العالي يستأذن إلى السعي في عقد الصلح، وفي أثناء ذلك توفي السلطان عبد الحميد سنة ألف ومائتين وثلاث وعمره ست وستون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة.

ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوس السلطان سليم وجه

همته إلى إصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية، وأمر بجميع الجيوش من جهات البلاد لتكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك فاجتمع في وقت قريب نحو مائة وخمسين ألف مقاتل، وكان اجتماعهم في مدينة صوفيا وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النيمسا لمحاربة العساكر الإسلامية التي كانت تحت رئاسة الصدر الأعظم يوسف باشا وقبطان باشا وحسين باشا، فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة في البغدان وبقي نحو شهرين فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا على أكثر مدافعهم ومهماتهم وبسبب ذلك عزل الصدر الأعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة إلى كتخدا حسن باشا، ثم عزل وصار بدله حجازي حسن باشا سنة ١٢٠٤ فتوفي وصار بدله شريف حسن باشا، وأما عساكر الروسية فتقدموا أيضا في البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وأيالتي الأفلاق والصرب وكل المدن التي على شاطئ الطونة وكادوا يستولون على قلعة إسماعيل التي هي أعظم حصن في بلاد الدولة التي في تلك الجهات وبينما هم كذلك إذ حضر الخبر بموت إمبراطور ألمانيا وكان متعاهدا مع ملكة الروسية على محاربة الدولة وجلس في مكانه أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة إنكلترا وبروسية وشرطوا عليه أن يرد للدولة ممالك الدولة التي افتتحها النيمسا، فرد لها كل الأراضي التي افتتحها مع النيمسا وأبقى في يده روكزيم إلى حين تمام الصلح بين الدولة والروسية، وسعى في عقد الصلح بين الروسيا والدولة فلم تقبل ملكة الروسية كاترينا وكانت مواظبة على الحرب فتقدمت عساكرها إلى قلعة إسماعيل، وأقامت الحصار عليها، وكان في القلعة نحو ثلاثين ألفا، فقطعوا عنهم الزاد والمهمات، وصرخوا على عساكرهم الموت وإلا قلعة إسماعيل وهجمت عساكرهم على تلك القلعة وافتتحوها، واشتد القتال بين الجيشين حتى ملأ القتلى خنادق تلك القلعة، ولما هجم الليل صعد العساكر على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حربا شديدا، فكانت النساء والأولاد يجمعون سلاح القتلى ويهجمون على عساكر

المسلمين وما زالوا كذلك حتى قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا دخلوا القلعة ولم ينج منهم إلا رجل واحد طرح نفسه في النهر وذهب إلى القسطنطينية وأعلمهم بأن الغلبة وقعت على عساكر الدولة لأنهم مكثوا ثلاثة أيام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى أن الدم جرى كالسواقي وقتل من النساء والأطفال في تلك المعركة خمسة عشر ألفا، ولما وصل هذا الخبر إلى القسطنطينية هاجت العساكر هيجانا عظيما وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه في الحروب البرية والبحرية ولكن النصر من عند الله ولا راد لقضاء الله وقدره ولأجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجئ لهم برأسه وأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا الذي عزل سابقا وبعد ذلك تقدمت عساكر الروسية وقاتلت العساكر الإسلامية في الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك في سنة خمس ومائتين وألف فتوسطت دولة الإنكليز والروسية في الصلح فتم سنة ست ومائتين وألف على شروط وهي أن الروسية ترجع للدولة كل الأماكن التي فتحتها خلا أوكزاكوف والأراضي الواقعة بين بوغ وسليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أودسا سنة ألف ومائتين وسبع تذكارا لنصرها وهي مدينة شهيرة أكثر سكانها نصارى على البحر الأسود سكانها نحو أربعين ألفا، ثم سعى السلطان سليم في ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها وأرسل يطلب من فرنسا مهندسين أو معلمي صنائع وضباطا إلى غير ذلك فبعثت له بجانب عظيم ثم أن العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وأقاموا فيها إلى سنة ست عشرة فالتزمت الدولة العلية أن تشهر حربها إلى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة إنكلترا وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوة في مدة السلطان سليم الثالث

وفي سنة ألف ومائتين وأربع عشرة وجه عمارة مع عمارة الروسية وفتحتا السبع الجزائر التي كانت لجمهورية البندقية، وكانت فرنسا يومئذ متولية عليها وهذه

هي المرة الأولى التي اتحد فيها هاتان الدولتان.

وفي سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضا بين الدولتين المشار إليهما في صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر. وفي سنة سبع عشرة ومائتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرنسا.

ذكر غزوة إلى بلاد الروسية

وفي سنة إحدى وعشرين اتفقت الدولة مع فرنسا على حرب الروسية فكان ذلك داعيا لتعكيرها مع إنكلترا إلا أنها كانت تسعى في ملاشات شوكة نابليون إمبراطور فرنسا ولكن لم تستطع إنكلترا أن تمنع السلطان سليما من محاربة الروسية لأن جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الأفلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود، فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده ويدافع عن حقوقه فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا جلبي ومصطفى باشا البيرقدار إلى الإقليمين المذكورين فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الأراضي العثمانية ولما أيست إنكلترا من إيقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرنسا سارت بمراكبها إلى الإسكندرية وتملكوها فأخرجهم منها محمد علي باشا حاكم مصر، وكان من الأسباب في حضور الإنكليز لأخذ الإسكندرية أن الصناجق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد علي باشا محاربات وشتتهم في الأرياف، فأرسل كبيرهم محمد بك الألفي للإنكليز يستنجد بهم فحضرت مراكبهم في ثغر الإسكندرية في أول محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وعدها اثنان وأربعون مركبا مشحونة بالعساكر، وضربوا على الإسكندرية بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير، وكذلك الأبراج الصغار والسور فعند ذلك طلب أهل الإسكندرية الأمان فرفعوا عنهم الضرب، ودخلوا البلد ثم سيروا جيشا منه إلى رشيد فدخلوها ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقا كثيرا فرجع

الباقون إلى الإسكندرية منهزمين، واستعد محمد علي باشا لمحاربتهم وإخراجهم من الإسكندرية وشرع في تعمير القلاع واستنفر كافة الناس لقتالهم واستمر الحال إلى أواخر جمادي الآخرة من السنة المذكورة وتوجه محمد علي باشا لعساكره إلى جهة البحيرة والإسكندرية وحصل بينه وبين الإنكليز الذين في الإسكندرية مكاتبات ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط فخرجوا من الإسكندرية وأخلوها في أوائل رجب من السنة المذكورة أعني سنة اثنتين وعشرين وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار وكان محمد بك الألفى الذي استنجد بهم قد مات قبل مجيئهم إلى الإسكندرية وفي هذه السنة أيضا كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليما وقصة ذلك سنذكر ملخصها لكن ينبغي أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت في مدة السلطان سليم المذكور منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لأن مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس وإن كان منتهاها متأخرا.

ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس مصر

اعلم أن السلطان سليما الثالث حدث في مدة سلطنته فتن كثيرة منها ما تقدم ذكره ومنها فتنة الوهابية التي كانت في الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحج الشامي والمصري ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة إلى سنة ست عشرة ولنذكر ما يتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار لأن كلا منهما مذكور تفصيلا في التواريخ وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة، أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيها بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو نائب من جهة السلطنة العلية على الأقطار الحجازية وابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف وكان ذلك في مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد. (وأما ابتداء أول ظهور الوهابية) فكان قبل ذلك بسنين كثيرة وكانت قوتهم

وشوكتهم في بلادهم أولا ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بني تميم وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين لأنه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم، كانت ولادته سنة ألف ومائة وإحدى عشرة وهلك سنة ألف ومائتين وأرخه بعضهم بقوله: (بدا هلاك الخبيث) ١٢٠٦ وكان في ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان أبوه رجلا صالحا من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزعاته في كثير من المسائل، وكانوا يوبخونه ويحذّرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذي أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين فزعم أن زيارة قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم والتوسل به والأنبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن نداء النبي صلّى الله عليه وسلّم عند التوسل به شرك وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك وأن من أسند شيئا لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلي يكون مشركا نحو نفعني هذا. وهذا الولي الفلاني عند التوسل به في شيء وتمسك بأدلة لا تنتج له شيئا من مرامه وأتى بعبارات مزورة زخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد، واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة إلى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الأعراب وأهل البوادي حتى تبعوهم وصاروا جندا لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال، وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين وابتداء انتشاره من بعد الخمسين ومائة وألف، وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه

الشيخ سليمان وبقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية وكان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبد العزيز بن محمد بن سعود، وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه فكان الأمر كذلك وزعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه إخلاص التوحيد والتبري من الشرك وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة وأنه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى (**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ اِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** * الأحقاف: ٥) وكقوله تعالى (**وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ** * يونس: ١٠٦) وكقوله تعالى (**وَمَنْ اَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ اِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ** * الأحقاف: ٥) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثيرة: فقال محمد بن عبد الوهاب من استغاث بالنبي صلّى الله عليه وسلّم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه مثل هؤلاء المشركين ويدخل في عموم هذه الآيات وجعل زيارة قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم وغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين مثل ذلك وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في عبادة الأصنام (**مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا اِلَى اللهِ زُلْفَى** * الزمر: ٣) إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون (**مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا اِلَى اللهِ زُلْفَى**) قال: فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئا بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ** * الزخرف: ٨٧)، (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ** * العنكبوت: ٦١) مما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم (**لِيُقَرِّبُونَا اِلَى اللهِ زُلْفَى**) فهؤلاء مثلهم، ومما ردوا به عليه في الوسائل المؤلفة للرد عليه أن هذا الاستدلال باطل فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء

آلهة وجعلوهم شركاء لله بل أنهم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون ولا يعتقدون أنهم مستحقون العبادة وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الألوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وإن كانوا يعتقدون أنها لا تخلق شيئا وأما المؤمنون فلا يعتقدون في الأنبياء والأولياء واستحقاق العبادة والألوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية بل يعتقدون أنهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم عباده فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى، ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة فاعتقاد المسلمين أن الخالق الضار النافع المستحق العبادة هو الله وحده ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه وأن الأنبياء والأولياء لا يخلقون شيئا ولا يملكون ضرا ولا نفعا وإنما يرحم الله العباد ببركتهم فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والألوهية هو الذي أوقعهم في الشرك لا مجرد قولهم (**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا اِلَىَ اللهِ**) لأنهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنهم لا تستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين (**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا اِلَىَ اللهِ زُلْفَى**) فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام فجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار والمشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في وصف الخوارج: أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين. وفي رواية عن ابن عمر أيضا أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: (**أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه في غير موضعه**) فهو وما قبله صادق على هذه الطائفة ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركا ما كان يصدر من النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ففي الأحاديث الصحيحة أنه صلّى الله عليه وسلّم كان من دعائه (**اللّهمّ إني أسألك بحق السّائلين عليك**) وهذا توسل لا شك فيه وكان يعلّم هذا الدعاء أصحابه ويأمرهم بالإتيان به

وبسط ذلك طويل مذكور في الكتب وفي الرسائل التي في الرد على ابن عبد الوهاب وصح عنه أنه صلّى الله عليه وسلّم لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ألحدها صلّى الله عليه وسلّم في القبر بيده الشريفة وقال (**اللّهمّ اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيّك والأنبياء الذين من قبلي إنك أرحم الراحمين**) وصح أنه صلّى الله عليه وسلّم سأله أعمى أن يردّ الله بصره بدعائه فأمر بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول (**اللّهمّ إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبي الرحمة يا محمّد إني أتوجّه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللّهمّ شفّعه في**) ففعل فردّ الله عليه بصره. وصح أن آدم عليه السلام توسل بنبينا صلّى الله عليه وسلّم حين أكل من الشجرة لأنه لما رأى اسمه صلّى الله عليه وسلّم مكتوبا على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله له: هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك، فقال: **اللّهمّ بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد**، فنودي يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمّد في أهل السماء والأرض لشفعناك. وتوسّل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنه لما استسقى الناس، وغير ذلك مما هو مشهور فلا حاجة إلى الإطالة بذكره والتوسل الذي في حديث الأعمى قد استعمله الصحابة والسلف بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم وفيه لفظ يا محمد وذلك نداء عند التوسل ومن تتبع كلام الصحابة والتابعين يجد شيئا كثيرا من ذلك كقول بلال بن الحارث الصحابي رضي الله عنه عند قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم يا رسول الله استسق لأمتك كالنداء الوارد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم عند زيارة القبور وممن ألف في الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي مؤلف حواشي شرح ابن حجر على متن بافضل فقال من جملة كلامه: يا ابن عبد الوهاب، إني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرّفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين،

وأنت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى (**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** * النساء: ١١٥) وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية اهـ.

وأما زيارة قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد فعلها الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف وجاء من فضلها أحاديث أفردت بالتأليف ومما جاء في النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله صلّى الله عليه وسلّم (**إذ انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله أحبسوا فإن لله عباداً يجيبونه**) وفي حديث آخر (**إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني**) وفي رواية (**أغيثوني فإن لله عباداً لا تروهم**) وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل الليل، قال: (**يا أرضُ ربي وربك الله**) وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا زار قال (**السلام عليكم يا أهل القبور**) وفي التشهد الذي يأتي به كل مسلم في كل صلاة صورة النداء في قوله (**السلام عليك أيها النبي**).

والحاصل: أن النداء والتوسل ليس في شيء منهما ضرر إلا إذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ومتى كان معتقدا أن التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر في ذلك وكذلك إسناد فعل من الأفعال لغير الله لا يضر إلا إذا اعتقد التأثير ومتى يعتقد التأثير فإنه يحمل على المجاز العقلي كقوله نفعني هذا الدواء أو فلان الولي فهو مثل قوله: أشبعني هذا الطعام، وأرواني هذا الماء، وشفاني هذا الدواء فمتى صدر ذلك من مسلم فإنه يحمل على الإسناد المجازي والإسلام قرينة كافية في ذلك فلا سبيل إلى تكفير أحد بشيء من ذلك ويكفي هذا الذي ذكرناه إجمالا في الرد على ابن عبد الوهاب ومن أراد بسط الكلام فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في ذلك وقد لخصت ما فيها في رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها.

ولما قام ابن عبد الوهاب ومن أعانه بدعوتهم الخبيثة التي كفروا بسببها

المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة، ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريبا من الشام فإن ملكهم وصل إلى المزيريب وكانوا في ابتداء أمرهم أوصلوا جماعة من علماءهم ظنا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب والمين، فلما وصلوا إلى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تملكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ونظروا إلى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم، فيعلم بذلك الأول والآخر، وكان ذلك في مدة إمارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومائة وألف، وأمر بحبس أولئك الملحدة فحسبوا وفر بعضهم إلى الدرعية فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتوا واستكبارا وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون ولم يزل أمرهم يقوي وبدعتهم تنتشر إلى أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة.

وفي سنة سبع عشرة بعد المائتين والألف ساروا بجيوش كثيرة حتى نازلوا الطائف وحاصروا أهله في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالا ونساء وأطفالا ولا نجا منهم إلى القليل ونهبوا جميع أموالهم ثم أرادوا المسير إلى مكة فعلموا أن مكة في ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج ويقدم إليها الحاج الشامي والمصري فيخرج الجميع لقتالهم فمكثوا في الطائف إلى أن انقضى

شهر الحج وتوجه الحجاج إلى بلادهم وساروا بجيوشهم يريدون مكة ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل إلى جدة فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثل ما فعلوا مع أهل الطائف فأرسلوا إليهم وطلبوا منهم الأمان لأهل مكة فأعطوهم الأمان ودخلوا مكة ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المائتين والألف ومكثوا أربعة عشر يوما يستتيبون الناس ويجددون لهم الإسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون أنه شرك كالتوسل وزيارة القبور، ثم ساروا بجيوشهم إلى جدة لقتال الشريف غالب فلما أحاطوا بجدة رمى عليهم بالمدافع والقلل فقتل كثيرا منهم ولم يقدروا على تملك جدة فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا إلى بلادهم وجعلوا لهم عسكرا بمكة وأقاموا لهم أميرا فيها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب وإنما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة ويدفع ضرر أولئك الأشرار عنهم، وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والي جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهما العساكر فوصلوا إلى مكة وأخرجوا من كان بها من عساكر الوهابية ورجعت إمارة مكة للشريف غالب ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميرا عثمان المضايفي فصار هو وبعض جنودهم يقاتلون القبائل التي في أطراف مكة والمدينة ويدخلونهم في طاعتهم حتى استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التي كانت تحت طاعة أمير مكة فتوجه قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة فساروا بجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطرق ومنعوا الميرة عن مكة فاشتد الحصار على أهل مكة حتى أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت فاضطر الشريف غالب إلى الصلح معهم وتأمين أهل مكة فوسط أناسا بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة فمن تلك الشروط أن إمارة مكة تكون له فتم الصلح ودخلوا مكة في أواخر ذي القعدة سنة عشرين وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الأموال وفعلوا أفعالا شنيعة وجعلوا على المدينة أميرا منهم مبارك بن مضيان واستمر حكمهم في الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامي والمصري مع المحامل مكة وصاروا يصنعون للكعبة المعظمة ثوبا من العباء القيلان الأسود وأكرهوا الناس على الدخول في دينهم ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك وأطلعوا عليه عزروه بأقبح التعزير وهدموا القبب التي على قبور الأولياء وكانت الدولة العثمانية في تلك السنين في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى، ثم صدر الأمر السلطاني لصاحب مصر محمد علي باشا بالتجهيز لقتال الوهابية وكان ذلك في سنة ١٢٢٦ فجهز محمد علي باشا جيشا فيه عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطان ولده طوسون باشا فخرجوا من مصر في رمضان من السنة المذكورة ولم يزالوا سائرين برا وبحرا حتى وصلوا إلى ينبع فملكوه من الوهابية، ثم لما وصلت العساكر إلى الصفرا والحديدة وقع بينهم وبين العرب الذين في الحربية قتال شديد بين الصفرا والحديدة وكانت تلك القبائل كلها في طاعة الوهابي وانضم إليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيرا منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٢٦ ولم يرجع من ذلك الجيش إلى مصر إلا القليل فجهز جيشا غيره سنة سبعة وعشرين وعزم محمد علي باشا على التوجه إلى الحجاز بنفسه وتوجهت العساكر قبله في شعبان في غاية القوة والاستعداد وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعا وثلاثة قنابل استولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوه الصفرا والحديدة وغيرهما في رمضان بلا قتال بل بالمخادعة ومصانعة العرب بإعطاء الدراهم الكثيرة حتى أنهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مائة ألف ريال وأعطوا شيخا من صغار مشايخ حرب أيضا ثمانية عشر ألف ريال ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر، وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو في الظاهر تحت طاعة الوهابي.

وأما المرة الأولى التي هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالب في ذلك حتى يكون الأمر بتدبيره ودخلت العساكر المدينة المنورة في أواخر ذي القعدة، ولما جاءت الأخبار إلى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع وأرسلوا بشائر لجميع ملوك الروم واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة في أوائل المحرم سنة ثمان وعشرين ثم طلعوا إلى مكة واستولوا عليها أيضا، وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف سرا ولما وصلت العساكر إلى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم، وكان سعود أمير الوهابية حج في سنة سبع وعشرين ثم ارتحل إلى الطائف، ثم إلى الدرعية و لم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة إلا بعد ذلك ثم لما وصل إلى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف ولما وصلت العساكر إلى جدة ومكة فر من الطائف أميرها عثمان المضايفي وفر من كان من عساكر الوهابية وأمرائهم وفي شهر ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد علي باشا مبشرين إلى دار السلطنة ومعهم المفاتيح وكتبوا إليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامهم البخورات في مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك زينة وشنكا ومدافع وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا في رتبة محمد علي باشا وبعثوا له أطواخا وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده.

وفي شهر شوال سنة ثمان وعشرين توجه محمد علي باشا بنفسه إلى الحجاز وقيل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفي الذي كان أميرا على الطائف للوهابية، وكان من أهل أكبر أعوانهم وأمرائهم فزنجره بالحديد وبعثه إلى مصر فوصل في ذي القعدة بعد توجه الباشا إلى الحجاز ثم أرسل إلى دار السلطنة فقتلوه ووصل محمد علي باشا في ذي القعدة إلى مكة وقبض على الشريف غالب ابن مساعد وبعثه إلى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور ابن مساعد.

وفي شهر محرم من سنة ٢٩ بعثوا إلى السلطنة مبارك بن مضيان الذي كان أميرا على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به في القسطنطينية في موكب ليراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفي وأما الشريف غالب فأرسلوه إلى سلانيك وبقي بها مكرما إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين ودفن بها وبنى عليه قبة تزار. ومدة إمارته على مكة ست وعشرون سنة ثم أن محمد علي باشا وجه كثيرا من العساكر إلى تربة وبشة وبلاد غامد وزهران وبلاد عسير لقتال طرائف الوهابية وقطع دابرهم ثم سار بنفسه في أثرهم في شعبان سنة تسع وعشرين ووصل إلى تلك الديار وقتل كثيرا منهم وأسر كثيرا وخرب ديارهم.

وفي شهر جمادي الأولى سنة تسع وعشرين هلك سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ورجع محمد علي باشا من تلك الديار التي وصلها من ديار الوهابية عند إقبال الحج وحج ومكث بمكة إلى رجب سنة ثلاثين ثم توجه إلى مصر وترك بمكة حسن باشا ووصل الباشا إلى مصر في منتصف رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف فتكون إقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر، وما رجع إلى مصر إلا بعد أن مهد أمور الحجاز، وأباد طوائف الوهابية التي كانت منتشرة في جميع قبائل الحجاز والشرق وبقي منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن مسعود فجهز محمد علي باشا لقتاله جيشا وأرسله تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا، وكان عبد الله بن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد علي باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحا على بقاء إمارته ودخوله تحت طاعة محمد علي باشا فلم يرض محمد علي باشا بهذا الصلح فجهز ولده إبراهيم باشا وجعل أمر العساكر إليه، وكان ابتداء ذلك في أواخر سنة إحدى وثلاثين فوصل إلى الدرعية سنة اثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها إلى أن استولى على عبد الله بن سعود في ذي القعدة سنة ٣٣، ولما جاءت الأخبار إلى مصر ضربوا لذلك ألف مدفع وفعلوا شنكا وزينوا مصر وقراها سبعة أيام.

وكان محمد علي باشا له اهتمام كبير في قتال الوهابية وأنفق في ذلك خزائن من الأموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا في دفعة من الدفعات لأجرة تحميل بعض الذخائرة خمسة وأربعين ألف ريال هذا في مرة من المرات كان ذلك الحمل من الينبع إلى المدينة عن أجرة كل بعير ست ريال دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة وعند وصول الحمل من المدينة إلى الدرعية كان أجر تلك الحملة فقط مائة وأربعين ألف ريال وقبض إبراهيم باش على عبد الله بن سعود وبعث به وكثير من أمرائهم إلى مصر فوصل في سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وصنعوا له موكبا حافلا يراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه، ولما دخل على محمد علي باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه، وقال له الباشا ما هذه المطاولة فقال: الحرب سجال، قال: وكيف رأيت ابني إبراهيم باشا؟ قال ما قصر وبذلك همته ونحن كذلك حتى كان ما قدره الله تعالى فقال له: الباشا أنا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال: المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق، وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال الباشا له: ما هذا؟ فقال هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي إلى السلطان، فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤون أحسن منها ومعها ثلاثمائة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب، فقال له الباشا: الذي أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا فقال: هذا الذي وجدته عند أبي فإنه لم يستأصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل أخذه العرب وأهل المدينة وأغاوات الحرم وشريف مكة فقال الباشا: صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة ورجع إبراهيم باشا من الحجاز إلى مصر في شهر المحرم من سنة ٣٥ بعد أن أخرب الدرعية خرابا كليا حتى تركوا سكناها ولما وصل عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة في شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضا في نواح

متفرقة. هذا حاصل ما كان في قصة الوهابي بغاية الاختصار ولو بسط الكلام في كل قضية لطال، وكانت فتنتهم من المصائب التي أصيب بها أهل الإسلام فإنهم سفكوا كثيرا من الدماء وانتبهوا كثيرا من الأموال وعم ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وكثير من أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم فيها التصريح بهذه الفتنة كقوله صلّى الله عليه وسلّم (**يخرج أناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق**) وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها في صحيح البخاري وبعضها في غيره لا حاجة لنا إلى الإطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرجها لأنها صحيحة مشهورة ففي قوله (**سيماهم التحليق**) تصريح بهذه الطائفة لأنهم كانوا يأمرون كل من اتبعهم أن يحلق رأسه و لم يكن هذا الوصف لأحد من طوائف الخوارج والمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء.

وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيد يقول: لا حاجة إلى التأليف في الرد على الوهابية بل يكفي في الرد عليهم قوله صلّى الله عليه وسلّم (**سيماهم التحليق**) فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم.

واتفق مرة أن امرأة أقامت الحجة على ابن الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت، أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له: حيث إنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغي لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لأن شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا. ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبي صلّى الله عليه وسلّم مع أن أحاديث شفاعة النبي صلّى الله عليه وسلّم لأمته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لأهل الكبائر من أمته وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم وعلى ذكرها كثير من أوصافه الكاملة ويقولون أن ذلك شرك ويمنعون من الصلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم على المنابر بعد الأذان حتى أن رجلا صالحا كان أعمى، وكان

مؤذنا وصلى على النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد الأذان بعد أن كان المنع منهم، فأتوا به إلى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والأوراق وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر، فلما تمكن محمد علي باشا من المماليك المصرية احتال عليهم وقتلهم سنة ست وعشرين ومائتين بعد الألف وكانوا هم وعساكرهم وأتباعهم كثيرون وما زالوا يعارضون محمد علي باشا في كثير من شؤونه وهو يداهنهم ويتحذر منهم فلما جاء الأمر السلطاني بتوجهه إلى الحجاز لمحاربة الوهابي طلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا صارى عسكره على العساكر التي يريد أن يرسلها إلى الحجاز فجاءه فرمان سلطاني بذلك فجعل ذلك وسيلة إلى جمع الصناجق وعساكرهم في القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم بالآلاي الحافل مع ابنه المذكور إلى العرض الخارج للحجاز المنتصب خارج مصر عند قبة العرب فنبه على العساكر الصناجق في الحضور إلى القلعة في الثالث من شهر صفر في الساعة الرابعة من النهار ورتب في القلعة عساكر خاصة بهم جعلهم في الأبراج والمكامن التي في القلعة وأمر البواب للقلعة أنهم إذا استكمل دخولهم يغلق الباب، وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم في القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى إلى غروب الشمس فقتل منهم كثيرا ثم تتبع الباقين منهم في مصر وبقية الأرياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم وذلك شيء كثير وعدد وفير والقصة طويلة لكن هذا حاصلها وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد أن قتلهم وكانت ولايته مصر سنة ٢٠ واستمر فيها إلى سنة ١٢٦٤ وكان في الأصل من العساكر الذين جاؤا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ١٦ وأصله من بلاد قوله وجنسه من الأرناؤوط فلما كان محاربة يوسف باشا الفرنسيس قاتل مع من

قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك الحروب، ثم ترقى في مدة قصيرة إلى رتبة قائم مقام إلى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة ١٢١٩ ولما خرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزيرا لمصر واليا عليها الوزير محمد خسرو باشا واستمر إلى المحرم سنة ١٨ فوقع بينه وبين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامقهم واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر واتفق على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر إلى أن يأتي الأمر من الدولة بتولية غيره فألبسه القاضي فروا سمورا وكان الرئيس الثائر في تلك الفتنة محمد علي باشا ثم بعد ٢٦ يوما ثاروا على طاهر باشا فقتلوه وكان قد حضر من دار السلطنة إلى مصر أحمد باشا واليا على المدينة المنورة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد علي وقال إن أحمد باشا لم يكن واليا على مصر وإنما هو وال على المدينة المنورة وإنما ولينا قبله طاهر باشا لكونه كان محافظا للديار المصرية من الدولة العلية فله شبهة في التولية، وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر وتجهزه بالعساكر ويتوجه إلى محل ولايته ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر إلى أن أخرجوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته بمصر يوما وليلة ثم نادى مناد بتسكين الناس وتأمينهم وأن الأمر يكون لإبراهيم بك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد علي وقبضوا على الدفتردار وقطعوا رأسه، ثم قامت العساكر على إبراهيم بك لطلب جوامقهم وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل إبراهيم بك ونهبوا داره فهرب فقوي أمر محمد علي وصار الحل والعقد بيده ثم جاءت الأخبار من دار السلطنة بولاية مصر لأحمد باشا خورشيد حاكم الإسكندرية ووصل مصر في ذي الحجة سنة ثمان عشرة، وبعد وصوله طلب من الناس أموالا جزيلة تكون معجلة عما يلزم الناس من خراج مصر، فاشتد الأمر على الناس وارتفعت الأسعار وأغلقت الدكاكين والأسواق واجتمع الأطفال بالجامع الأزهر وصعدوا إلى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يا لطيف فسمعهم الباشا وهو في القلعة، فأرسل إلى نقيب

الأشراف إنا قد رفعنا عن الناس ما كنا طلبناه وأما إبراهيم بك ومن معه من الأمراء الذين أخرجوهم من مصر فإنهم جمعوا جموعا من الأرياف وجاؤا لقتال الباشا ومن معه بمصر فخرج إليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الأمر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ثم جاء أمر من الدولة لمحمد علي بولاية جده فألبسه الباشا فروا ولما خرج يريد الركوب ثارت على محمد علي العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم: ها هو الباشا عندكم وركب هو إلى داره وصار ينثر الذهب على الناس في الطريق وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب إلى بعد المغرب، ثم لاطفهم وركب وأشيع بين الناس أنهم حبسوه وهو قد ذهب إلى القلعة ثم أشيع أنه يريد وضع فردة على الناس فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضي وصاروا يصرخون بقولهم: شر الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ومنهم من يقول: يا متجلي أهلك العثملي ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل ومنهم من يقول: لا نريد هذا الباشا حاكما علينا لابد من عزله وذهبوا إلى بيت محمد علي يقولون ذلك فقال لهم: ومن تريدون أن يكون واليا عليكم؟ فقالوا: لا نرضى إلا بك. لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضي فأحضروا له كركا وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوي فألبساه ونادوا بذلك في البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف ونادوا في مصر بولايته وأرسلوا الخبر إلى أحمد باشا فقال إني متول من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطان فكتب الناس سؤالا وكتب عليه المفاتي وحكموا بعزله وصحة تولية محمد علي باشا وحضروا في بيت القاضي فحكم بمقتضى ذلك واستمر أحمد باشا في القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه في القلعة أياما إلى أن أخرجوه منها وحصل بينه وبين العلماء كلام كثير وقال لهم: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم؟ وقد قال الله تعالى (**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** * النساء: ٥٩) فقالوا: أولي الأمر هم العلماء وجرت العادة من القديم أن أهل

البلد يعزلون الولاة حتى السلطان إذا جار عليهم يخلعونه والقصة طويلة جدا يطول الكلام بذكرها وطال الأمر بينهم إلى أن جاء الأمر السلطاني بولاية محمد علي باشا وإقرار ما فعله العلماء وأهل مصر في شهر ربيع الثاني فتم الأمر لمحمد علي باشا حتى كان من أمره ما كان وأكثر ما تقدم ذكره من القيام على الباشوات الذين تولوا مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد علي باشا وترتيبه ولم يزل في ترق وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محمود وملك عكا والشام فلما توفي السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الأقطار المصرية مؤيدة له ولأولاده، وجعلوا عليه خراجا معلوما يدفعه كل سنة واستمر إلى سنة أربع وستين فأصابه مرض اختل به عقله فولى ابنه إبراهيم باشا في حياة أبيه فكانت مدة ولاية محمد علي باشا نحو خمس وأربعين سنة واستمر ابنه إبراهيم باشا نحو سنة ثم توفي فولى عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد علي باشا واستمر إلى سنة سبعين فتوفي مقتولا ثم ولى سعيد باشا ابن محمد علي باشا وتوفي سنة تسع وسبعين ثم ولى إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا وخلع سنة ست وتسعين وولى ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن، وإنما ذكرنا هذا كله استطرادا تتميما للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض.

ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر

كانت مصر قبل أن تتملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضا من الجراكسة ومن غيرهم من الترك، فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقية وفي كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة وكان منهم أمراء ورؤساء فصارت لهم عصبية قوية فتغلبوا على الأملاك والأراضي والأطيان والمحصولات والخراجات والجمارك، وكانوا إذا جاء الباشا المتولى على مصر من الدولة العلية ينقادون في الظاهر وفي الباطن هم متغلبون، فكانوا يبقونه إذا أرادوا ويعزلونه إذا أرادوا ولا يصل إلى الدولة العلية من محصولات مصر

إلا القليل والباقي بأيديهم، وكان لهم رؤساء وعليهم أمير كبير تحت أمر الوزير المتولى من السلطنة صورة وظاهرا فقط، فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود فيتعدون كثيرا عليهم لاسيما على تجارهم فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى فطمع الفرنسيس في تملك مصر وإبعاد هؤلاء المماليك المتغلبين وأوهموا على المسلمين أنهم يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتي ذكره وكان ذلك في شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وكان الوزير المتولي على مصر من السلطنة العلية في تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسي كانت ولايته من سنة إحدى عشرة ومائتين وألف وكان للماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما إبراهيم بك ومراد بك كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر، فلما شاعت الأخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتولي من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره وتوجه إلى غزة، ثم منها إلى دار السلطنة وتوجه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة وبقيت مصر بيد إبراهيم بيك ومراد بيك وصناجقهما والأمراء والعساكر التي تحت أيديهم وكان أهل مصر عند خروج أبي بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون إشاعات عن مسير الفرنسيس إلى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها، فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الإسكندرية ولم يكن أهل الإسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم لاسيما وقد جاءهم بغتة فقاتلوهم قليلا ثم طلبوا الأمان منهم فأمنوهم ودخلوا الإسكندرية وملكوها، فلما جاء الخبر إلى مصر أخذ إبراهيم بيك ومراد بيك في الاستعداد لهم وأبرزوا جيشا من العسكر إلى موضع

يقال له الجسر الأسود وأخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطربت الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر السراق ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه وبعد ذلك كلام كثير من جملته أني أعبد الله واحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة أهل الإسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الإسلام وكل ذلك من الكلام الذي كانوا يوهمون به على أهل الإسلام أنهم موحدون لله تعالى وأنهم يحبون أهل الإسلام ويحبون سلطانهم وأنهم إنما جاؤا لنصرة سلطان الإسلام وإبعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية.

ومن جملة ما في ذلك الكتاب خطابا للمسلمين وما جئتكم لإزالة دينكم وإنما قدمت إليكم لأخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بأنواع الإيذاء والتعدي ويأخذون أموالهم ويفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم وإني أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله تعالى وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط. وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل والعتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية فالعلماء

والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتاجر المتكاثرة وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ومع ذلك فالفرنساويون في كل وقت من الأوقات صاروا محبين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل، ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر وأن جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرعسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وأكحل وأحمر وأن كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار وأن كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضا تنصب صناجق السلطان العثماني محبنا دام بقاءه والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة الأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالي البلد أن يبقى في مسكنه مطمئنا وتكون الصلاة تامة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكرون الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية وعلى المشايخ في كل بلد أن يختموا حالا على جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي للمماليك وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيع أدنى شيء منها.

وفي التاسع والعشرين من محرم قدموا إلى مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند

الرحمانية وهزموا إلى الجيزة والتقوا عند بشتيل وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله أن المسلمين هزموا ففر مراد بيك ومن معه إلى الصعيد وفر إبراهيم بيك ومن معه في البر الشرقي إلى الشام وقيل لم يقع قتال كثير وإنما هي مناوشة من طلائع العسكر بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين وكانت مراكب في البحر لمراد بيك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية، واحترق بها رئيس الطبجية واحترق ما فيها من المحاربين، فلما عاين ذلك مراد بيك دخله الرعب وولى منهزما وترك الأثقال والمدافع التي في البر وتبعته العساكر، وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق طرف البر الشرقي ورجع الناس منهزمين طالبين مصر فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون في هذا الحادث العظيم، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بيك وكشافته ومماليكه وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم وكذلك أطفال المكاتب، ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء ويوم الاثنين حضر مراد بيك إلى بر انبابه وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وكان معه في ذلك علي باشا الطرابلسي ونصوح باشا وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع، فصار البر الغربي والشرقي مملوءين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من وصول الخبر الأول لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضا في تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأسباب الارتحال، فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولوا المقدرة للهرب ولولا أن الأمراء

منعوهم من ذلك لما بقي بمصر منهم أحد وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما أو يجلسون في مكان خراب أو مسجد ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم ما يحتاجون إليه من الدراهم التي جمعوها ويجعلون قيما عليهم يباشر ذلك وبعض الناس يتطوع على بعض في الإنفاق ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وأرباب الأشائر بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة، فأخرج بيرقا كبيرا سمته العامة بيرق النبي صلّى الله عليه وسلّم فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك، وأما مصر فإنها صارت خالية الطرق لا تجد بها سوى النساء في البيوت وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة وغلا سعر البارود والرصاص جدا بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين نصفا، وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام، ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حين أن نصب إبراهيم بيك العرضي هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الذين لا يجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواح شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من

عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد علي والقناوية وغيرهم وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحي، وقامت الأرياف على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى وطلب أمراء مصر تجار الإفرنج الذين بمصر وحبسوهم في القلعة وفي بعض أماكن غير القلعة من بيوت الأمراء وساروا يفتشون في محلات الإفرنج على الأسلحة وغيره وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأروام والأقباط والكنائس على الأسلحة والعامة لا يرضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنه ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت هذه الفتنة، ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس في الجهة التي يجيئون منها فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول إنهم واصلون من الشرقي ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لأحد من الأمراء همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم إلى فناء مصر بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع عساكره ومكث في مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو، ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم يختالون في ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في رؤيتهم مغمورين في غفلتهم وهذا كله من

أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع ذلك فلم يأتوا إلا من البر الغربي ولما كان وقت القيلولة ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وتقدموا إلى ناحية بشتيل بلدة مجاورة لانبابة فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتابعة الرمي وأبلى الفريقان وقتل أيوب بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكهم وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف، وكان رئيسهم الكبير بونابارت لكنه لم يشهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة وكان بعيدا عن هؤلاء بكثير ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط وطلعوا إلى انبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح ورفعوا الأصوات بقولهم يا رب يا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم فكان العقلاء من الناس يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم أن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الصوت والصراخ والنياح فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضي الشرقي ومعهم إبراهيم بيك الوالي وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جدا فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين هذا وريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه، ثم أن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بيك انقسم على تراتيب معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر

من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمدافع ترمي واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلثي ساعة ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربي فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيرا في يد الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد بيك ومن معه إلى الجيزة فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابة تحت الأرض وألقى كثير نفسه في البحر ولما انهزم العسكر الغربي حول الفرنسيس والمدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب في الحال إبراهيم بيك والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئا فأما إبراهيم بيك والأمراء فساروا إلى جهة العادلية وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوا أفواجا أفواجا وهم جميعا في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله تعالى من شر هذا اليوم العصيب والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء فأركبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال والبعض ماش كالجواري والخدم واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة فاستسلم للمقدور ولله عاقبة

الأمور والذي أزعج قلوب الناس بالأكثر أن في عشاء تلك الليلة شاع في الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء وكان السبب في هذه الإشاعة أن بعض عسكر مراد بيك الذين كانوا في الغليون لمرسى انبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى الجهة القبلية فمشوا به قليلا فوقف في الطين لقلة الماء، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضا فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكبرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون وأي طريق يذهبون وأي محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر بحيث أن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأهل المقدرة أخرجوا أيضا ما عندهم والذي أقعده العجز، وكان عنده ما

يعجز عليه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان فمنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ومنهم من جاز متكلا على كثرته وغزوته وخفارته فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين قال الشاهد: فما راء كمن سمعا، ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العرى والفزع فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي وأن الحريق كان في المركب المتقدم ذكرها فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك وأرسلوه صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه وأفهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور إلينا لنترتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش في وجوههم فقالا نريد أمانا منكم فقال قد أرسلناه لكم سابقا يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم فقالا أيضا نريد أمانا لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها إننا أرسلنا لكم في السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلاّ بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن في طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصري وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك من

الكلام، ثم قال لهم لابد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم، وقال لهم أنتم المشايخ الكبار فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأي شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس، وكانوا في وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر شيخ السادات، والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر، وكذلك الروزنامجي والأفندية وفي ذلك اليوم اجتمعت الجعدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك وأحرقوهما ونهبوا أيضا عدة من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوا بأبخس الأثمان.

ذكر دخول الفرنسيس مصر

وفي يوم الثلاث عدت الفرنساوية إلى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بيك الألفى بالأزبكية الذي أنشأه الأمير المذكور في السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس، وكذلك حصل في بيت حسن كاشف بالناصرية ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل بالمدينة إلا القليل منهم ومشوا في الأسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريالا فرنسيا ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم

واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة والحوانيت والقهاوي واطمأن الناس.

ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات

وفي يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام سرعسكر، فلما حضروا تشاور معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الخصومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد العريشي والشيخ يوسف الشبرخيتي والشيخ محمد الدواخلي وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا والقاضي، وقلدوا محمد آغا السلماني آغات مستحفظان وعلي آغا الشعراوي والي الشرط وحسن آغا أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذو الفقار كتخدا بيك كتخدا بونابارته وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت فقالوا هذا فعل الجعدية وأوباش الناس فقالوا لأي شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها فقالوا هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك وظيفة الحكام. ثم أمروا بالنداء بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب فلم يسمعوا و لم ينتهوا واستمر غالب الأسواق والدكاكين معطلة والناس غير مطمئنين وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلوقة التي للأمراء ودخلوها وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة فعند ما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعيدية يستأصلون ما فيها، ثم إن عسكرهم صارت تدخل المدينة شيئا شيئا حتى امتلأت منها الطرقات

وسكنوا في البيوت و لم يشوِّشوا على الناس، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، وبعد أيام طلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار، فأخذوا في تحصيلها بعد مراجعتها في تخفيفها فلم يفعلوا، ونادوا بالأمان لنساء الأمراء، وأمروا كل من عندها شيء من متاع زوجها تأتي به، وصالحت زوجة مراد بيك عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء بمائة وعشرين ألف ريال، واستخرجوا من الخبايا شيئا كثيرا ثم طلبوا من أهل الحرف والأسواق مبلغا من المال يعجزون عنه فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم، ولما جاء وقت مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم إعانة على ذلك ثلاثمائة ريال وصنعوا شنكا ليلة المولد وجاءت مراكب إنكليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا له مركبا كبيرا واستمر أياما ثم ذهبوا، وأما إبراهيم بيك ومراد بيك فذهبوا إلى غزة ثم رجعوا إلى جهة الفيوم وفي شهر ربيع الثاني طالبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ووضعوا عليها قدرا معلوما من الدراهم وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتابا مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم وأنهم من المحبين للسلطان وأنهم محترمون للقرآن والإسلام ففعلوا، وفي عاشر جمادي الأولى جمعوا الناس وقرروا على الأملاك أموالا زيادة عما كان قبل ذلك وهاج عامة الناس ونادوا الجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ثم صار النداء بالأمان ثم تتبعوا كثيرا ممن كان قائما في تلك الفتنة فقتلوهم وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب في نظامات دولتهم فهو طويل لا حاجة لذكره وكذا ما كان يجري من الحوادث ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر إلى الحجاز قام شيخ عالم مغربي بمكة يقال محمد الجيلاني واستنفر الناس للجهاد فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا إلى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم فقاتلوا حتى قتل أكثرهم ورجع القليل منهم، ثم جهز الفرنسيس جيشا لمحاربة أحمد باشا الجزار في عكا فملكوا كثيرا من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا في عكا ثم عجزوا عن أخذها فارتحلوا عنها وأجروا عمل ما

يعتاده أهل مصر من مولد السيد أحمد البدوي وغيره على حسب المعتاد وكذا إخراج المحمل والحج وحصل بينهم وبين أهل الأرياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم وصاروا يتبعون الأمراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به وحضرت مراكب إلى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب فسمحوا عن عبورها وحصل بينه وبينهم مكاتبات ومهادات بهدايا عندهم ووضعوا الشيخ العريشي قاضيا للمسلمين يحكم بالشرع وتوجه بونابرته إلى بلاد الفرنسيس سنة أربعة عشرة وجعل ساري عسكرهم نائبا عنه بمصر، ثم ترقى بونابرته حتى صار ملكا على كافة الفرنسيس، وفي شهر رجب من سنة ١٤ جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه واليا على مصر وهو الذي يقال له أيضا ناصف باشا وساروا من جهة الشام حتى وصلوا إلى العريش فاستعد الفرنسيس بقتالهم وخرج بجنوده إلى الصالحية ثم توسط الإنكليز في الصلح على شروط كثيرة منها أن الفرنسيس يتنحى عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر ففي تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم ويقول بعضهم لبعض: سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك عليهم وكشف همج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا في عواقب الأمور حتى أن فقهاء الأطفال كانوا يجمعون الأطفال ويمشون فرقا وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الزمان ولم يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضي الأيام المشروطة على أن ذلك لم يثمر إلاّ الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأخذ الفرنساوية في أهبة الرحيل وشرعوا في بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا غالب القصور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس، ثم أن العثمانيين تدرجوا في دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ووصل الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والتقى بالأمراء

المصريين. وأخلى الفرنساوية إلى قلعة الجبل وباقي من العلماء القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين، وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير في مدينة بلبيس في رمضان فقابلوه وقابلوا والي مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعا وانصرفوا، ثم في شهر شوال وقعت حادثة كان سببا للنقض وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوي، فثار من ذلك فتنة، ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطلب نفوس الفرنسيس، ثم أن الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها، فأعطوهم مهلة الثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلا بأطراف مصر ممتدا إلى شبرا وترددوا إلى القلاع لم يكن بها أحد، وشرعوا باجتهاد في رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع، واجتهدوا في ذلك ليلا ونهارا والناس يتعجبون من ذلك وأشيع أن الوزير اتفق مع الإنكليز على الإحاطة بالفرنساويين إذا صاروا بظاهر البحر وكان الفرنساوية عند ما تراسلوا وترددوا جهة العرضي تفرسوا في عرض العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم، فلما حصل ما ذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع، فلما تمموا أمر ذلك وأحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه من عساكرهم خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر وانتشروا في تلك النواحي و لم يبق منهم بالمدينة إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفي وبعض بيوت الأزبكية وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل. فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال ركب صاري عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه إلى عرضي الوزير ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلعوا جهة مصر فتركهم

الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين إلى جهة العرضي بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع التي لنصوح باشا وناصف باشا وتركوها وصاروا إلى جهة العرضي، فلما قاربوه أرسلوا للوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في أثره وعساكره متفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال وظلم الفقراء وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجوا ورمحوا إلى أطراف البلد وخرج نقيب الأشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدي الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وتحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ثم خرج الكثير منهم إلى خارج البلد بتلك الصورة فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضا حقيقة الحال، ثم لم يزل الحال كذلك إلى العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وخلفهم إبراهيم بيك ثم بقية الأمراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الأشراف وصار نصوح باشا يقول للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم عندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم وساروا إلى حارات النصارى يقتلون ويأسرون وينهبون فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ما قدروا عليه من الفرنساوية والأروام، فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى ترمي من طاقات البيوت على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت ويتسورون عليها فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها وأمر الباشا بجر المدافع إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت

الألفي وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر، وفي هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالأطراف كلها وشرعوا في بناء جهات السور واجتهدوا في تحصين البلد بقدر الطاقة وبات الناس في هذه الليلة خلف المتاريس، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع وولوا الضرب فأجمع رأي الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج وغصت الطرق بالازدحام عند الخروج وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال وركب الناس بعضهم بعضا، ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف ما لا يوصف وأناس من أهل خان الخليلي جاؤا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وأغلقوا باب النصر وبات في تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت وأزقة الحارات، فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذي لا قوة له على الحرب وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير في البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضا عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت ساري عسكر بالأزبكية ثم فرقوا الناس في أطراف البلد والمتاريس للاحتراس وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنسوي ذهب به إلى كتخدا وأخذ البقشش فيحبس البعض ويقتل البعض وأحضروا الحدادين لإنشاء مدافع وجعلوا معملا البارود والقلل وغير ذلك من المهمات واهتموا لذلك اهتماما زائدا وأنفقوا أموالا جمة، وأما الفرنساوية فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت

الألفي وما والاه وأما الوزير فإنه لما ارتحل بالعرضي ووصل إلى الصالحية تكلموا معه في الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ثم ساروا إلى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين ساروا خلف الوزير إلى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم فقويت بهم نفوسهم ووقف جملة منهم بباب النصر ومنعوا الداخل والخارج وذلك كله بعد مضي ثمانية أيام من ابتداء الحركة وقطعوا الجالب إلى البلد وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم فعظم الكرب وأكثروا من الرمي بالمدافع على البيوت من القلاع وعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار وفي كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس واستمر الحال إلى عشرة أيام فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية لابد من خروج العثمانية من مصر ونعطيهم ما يحتاجون من المؤونة حتى يصلوا إلى جماعتهم وخرج إليهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والسرسي والفيومي وغيرهم وتمموا الصلح على ذلك فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الإنكشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول فأرسلوا للفرنسيس أن الباشا والعساكر والناس لم يرضوا بالصلح، ثم جاء مطر شديد وتوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والأوحال فاغتنم الفرصة الفرنسيس وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية، وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية معمولة بالنفط ملوية على أعناقها مشربة بمقطرات تشعل وتقوي لهبها وتابعوا رمي المدافع والبنبات من القلاع وصاروا يهجمون وأمامه المدافع وخلفهم بواردية يرمون بالنبدق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلبهون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا

والمسلمون بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة وزلزلوا زلزالا شديدا وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان والنار تأخذهم من كل جهة والأمطار متوالية بالليل والنهار ومثل ذلك كان في بولاق بل زيادة عن ذلك لأنهم في آخر الأمر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم. **والحاصل** أن هذه الفتنة قد شاهد الناس فيها من الهول ما يشيب منه النواصي وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور وهرب كثير من الناس عند ما أيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية، ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخاوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور وكان جماعة من المسلمين في هذه الفتنة يداهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أمانا وهم مع المسلمين فأطلع المسلمون عليهم فآذوهم وعذبوهم بأنواع العذاب وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكري بموالاة الفرنسيس وأنه يرسل إليهم الأطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر وبعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له إهانة بالغة، وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدي الكتْخُدَا أهاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة وكان جماعة من الأمراء والرؤساء يذهبون ويجيئون من الفرنسيس إلى المسلمين ومن المسلمين إليهم يسعون في الصلح بين الفريقين واستمر الحال إلى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتمنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين، ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مهلة ثلاثة أيام، ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالا وغير ذلك وخرج أيضا إبراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم الرؤساء منهم نقيب

الأشراف والمحروقي رئيس التجار سنة ١٢١٥ وأما مراد بيك فكان بالصعيد وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الأيام الهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الأمور ما لا يحيط به إلا الله تعالى ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها في أوائل ذي الحجة سنة ١٥ وأمنوا الناس واستولوا على ما كان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ في عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس فلما جلسوا أبرز لهم ورقة مكتوب فيها النصرة لله الذي يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس وبناء على ذلك يريد سرعسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين في الحروب ويأمرهم أن يشتغلون بمعاشهم وصنائعهم ثم نبه عليهم بالحضور إلى قبة النصر بكرة تاريخه ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان فلما كان الغد ذهبوا إلى قبة النصر وصنع لهم سماطا عظيما ضيافة وزينت البلاد ثلاثة أيام، ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الأزبكية، فلما وصلوا جلسوا حصة طويلة في الديوان الخارج ثم أدخلوا وجلسوا حصة فخرج إليهم سرعسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه السرعسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سرعسكر وملخص ذلك القول أن سرعسكر يقول: إننا لما حضرنا إلى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم أنكم أظهرتهم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعي القول مقبولي الشفاعة وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملي إلا عن أمركم لأنكم عرفتمونا أنكم ونحن في حكم العثملي وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصا

وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا في وسطهم فلم يمكن التخلف عنهم فقال لهم لأي شيء لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم ومحاربتهم فقال لا يمكننا ذلك خصوصا وقد وثقوا علينا بغيرنا وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وإهانتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح فقال لهم وإذا كنتم لا يمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رياستكم وأي شيء يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبي الحريم والأولاد كما فعلنا بأهل بولاق ولكن حيث أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزنة مصري منها خمسمائة ألف فرانسة على مائتين على شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا وعلى الشيخ الجوسري خمسون ألفا وعلى أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفا وعلى الشيخ مصطفى الصاوي خمسون ألفا وعلى الشيخ العناني مائتان وخمسون ألفا جعلوا ذلك عليه وعلى الفارين مع العثملي مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والمحروقي وما بقي من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ، وقام من كرسيه من فوره ودخل مع أصحابه وأغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وامتقعت وجوههم ونظروا إلى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكري والمهدي لكون البكري حصل له ما حصل في صحائفهم والمهدي كان يداهنه وحرق بيته بمرأي منهم ولم يكن فيه إلا الحصر لأنه كان قد نقل ما فيه بداره التي في الخرنفش ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل واحد منهم أنه لم

يكن شيئا مذكورا و لم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم فالذي كان معهم و لم يكن معدودا من الرؤساء أخرجوه فخرجوا مسرعين حتى أن بعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وما صدق بخلاص نفسه هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه في قوائم حتى وزعوها على أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى القراداتية جعلوا على كل طائفة مبلغا له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسة وأربعين ألفا وجعلوا على أجرة الأملاك والعقار أجرة سنة كاملة ثم استأذنوا للمشايخ الخالص منهم الذي ليس عليه شيء يتوجه حيث أراد والمشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدي المطلوب منه وأما الصاوي وفتوح والجوهري فحبسوهم ببيت قائم مقام، والعناني هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات وانفض المجلس على ذلك وركب صاري عسكر من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ووكل يعقوب القبطي يفعل بالمسلمين ما يشاء ونزل شيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وأركبوه وجلسوا على باب داره، فلما كان حصته من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان، ثم تشفع له أناس وكفلوه لينْزل إلى داره ويحصل له المطلوب منه فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال وقاموا ما وجدوه من المصاغ والفراوي والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال فكان الجميع إحدى وعشرين ألف ريال، ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الأرض والخبايا حتى فتحوا الكنيف فلم يجدوا شيئا ثم نقلوه إلى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند أغاة الإنكشارية ثم أن المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي والأمير والمهدي وغيرهم تشفعوا في نقل الزوجة إلى بيت الفيومي ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتوح الصاوي فجعلوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقي على الفردة العامة وأما الجوهري

فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره، ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطي، وأعطوه عسكرا لتحصيلها، ودهى الناس بهذه المنازلة التي لا يصابون بمثلها، وفرغت الدراهم من عند الناس، وباعوا أمتعتهم وجميع ما عندهم ولم يجدوا من يشتري الأثاث والفرش والملبوس بأبخس الأثمان ودفعوا لهم أيضا جميع ما يملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوي والمهدي والأمير والفيومي وابن محرم وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب وفي كل وقت يشتد الطلب وتلبث المعينون والعسكر في طلب الناس، وهجم الدور، وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلهم وحبسهم وضربهم والذي لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أن ينهبون داره فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه، وأهل حرفته، ونالوا من الناس أغراضهم، وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة الإسلام وأيام الموحدين هذا والكتبة والمهندسون والبناؤون يطوفون ويحررون أجرة الأملاك والعقارات والوكائل والحمامات، ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها، وخرج كثير من الناس من المدينة وأجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف واستمرت الحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والمصائب عميقة والأمر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** * هود: ١٠٢) واستمر شيخ السادات محبوسا إلى غاية شهر صفر من سنة خمسة عشر فأفرجوا عنه ونزل إلى بيته بعد أن غلق الذي عليه واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وأن لا يركب بدون إذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل أتباعه.

وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة

نهبت داره وأحيل بوجوده وكان من المذنبين واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ونزل بالمسلمين الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد والأقباط والشوام والأروام حتى صاروا يأمرونهم بالقيام لهم عند مرورهم ثم شددوا في ذلك حتى كانوا إذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة وضربوه واستمر عدة أيام في الحبس ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان وأما الأموال المطلوبة فأخذوها وما بقي شيء للناس إلا واستولوا عليه وما بقي جعلوه على الأطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان وتفصيل ذلك كله طويل ولم يزل الناس معهم في شدة وكرب إلى أن قضى الله ما قدره وأذن بخروجهم وانقضاء دولتهم.

ذكر خروج الفرنسيس من مصر

في أواخر شوال سنة خمسة عشر برز الأمر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز إلى مصر برا وبحرا أما العساكر التي من البر فهي بمعية يوسف باشا وأما البحر فتعهدت به الإنكليز، ثم في أوائل ذي القعدة ورد جماعة من الإنكليز بمراكب إلى ثغر الإسكندرية وطلع جماعة منهم إلى البر وتحاربوا مع أمير الإسكندرية ومن معه من الفرنسيس، ثم في أول ذي القعدة جاءت الأخبار إلى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا إلى العريش فجمعوا المشايخ والأعيان بمصر وقالوا لهم: إنه يحب المسلمين ويميل إليهم بالطبع وخصوصا العلماء أهل الفضائل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم إلا الخير ولكن سياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور المخالفة للمزاج والآن بلغنا أن يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوانين الحرب عندنا بل وعندكم ولا يكون عندكم تكدير ولا هم بسبب ذلك فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي

والشيخ المهدي والشيخ الصاوي والشيخ الفيومي فأصعدوهم إلى القلعة وفي الساعة الرابعة من الليل مكرمين وكان هؤلاء الأربعة من أهل الديوان المرتب في مصر لفصل القضايا وكان معهم في الديوان الشيخ الأمير والبكري والشربيني فأبقوهم في الديوان على حالهم السابق ثم وقع حرب أيضا بالإسكندرية في البر بين الإنكليز والفرنسيس في الرابع عشر من ذي القعدة وكانت الهزيمة على الفرنسيس وقتل منهم كثير وانحازوا إلى داخل الإسكندرية وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الإنكليز فوجدوها في غاية الوضع والإتقان، ثم وقع قتال آخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفا ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم فأطلق الإنكليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الإسكندرية وصارت جميعا لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمي إلى البرية وتترس الإنكليز قبالهم من جهة الباب الغربي. ووقع في مصر في هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير منهم مراد بيك مات في الصعيد رابع ذي الحجة من السنة المذكورة وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه إمارة الصعيد وهو من مماليك محمد بيك أبي الذهب ومحمد بيك علي بيك وعلي بيك مملوك إبراهيم بيك كتْخُدا إشترى مراد بيك سنة ١١٨٢ ثم عتقه وترقى عنده وأكرمه وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ولما انفرد سيده محمد بيك بإمارة مصر كان مراد بيك وإبراهيم بيك أكبر الأمراء المشار إليهما دون غيرهما واتسعت لهما الأموال والأملاك والضياع، ثم لما مات محمد بيك سنة ١١٨٢ صارت الرئاسة في ملك مصر لهما ولكن كان إبراهيم بيك مقدما وكان مراد بيك منعكفا على اللذات والملاهي وكان لكل منهما مماليك وهم الصناجق والأمراء وكانت وفاة إبراهيم بيك بدنقلة سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف.

ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس

في خامس المحرم من سنة ست عشرة ومائتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إلى القلعة بمصر وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابر والبنب

ونقلوا الأسوار والبيوت من الفرش والأمتعة والأسرة إلى القلعة ولم يبقوا بالقلاع الصغار الأمهات الحرب وطلبوا الريانين وألزموهم بمائتي قنطار زيت وسمروا جملة من حوانيتهم لتحصيل ذلك واجتهدوا في وضع متاريس خارج البلد وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونه للعمل وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر انبابه لتمنع المراكب من العبور، وهدموا جانبا من الجيزة من الجهة البحرية، وبلغهم أن عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربي قريب ووصلت ترعة الفرعونية وأن العساكر الشرقية وصلت إلى بنها وأن طائفة من الإنكليز في جهة الإسكندرية وأن الحرب قائم بها وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الإسكندرية ويحاربهم الإنكليز ومن معه من العثمانيين من الخارج وأن جماعة من الإنكليز قعدوا في الأماكن التي يمكن الفرنسيس النفوذ إليها وقطعوا عليهم الطرق من كل ناحية وأطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه إلا الجسر المقطوع حتى سالت المياه وردغت الأراضي المحيطة بالإسكندرية وخرج عن طاعة الفرنسيس الأمراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التي أرسلوها لهم بعد مراد بيك وحضرت لهم الأخبار المتواترة بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون وجاءتهم الأخبار أيضا بأنهم تملكوا رشيد ودمياط.

وفي العشرين من المحرم يوم الإثنين جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل ديجوة فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام فقال لهم أن الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس وأن تنصحوا أهل البلد والرعية أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلون في الشر والشغب فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد، الواجب على الوالد نصيح ولده وتأديبه على الطريق المستقيم، حتى يكون فيه الخير والصلاح، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت

دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساءهم وتيتمت أولادهم وألزموا بالأموال والفردة التي لا طاقة لهم بها فقد رأيتم ما حصل في الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ولا تكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير فأجابوا بالسمع والطاعة وقرأ عليهم ورقة بمعنى ذلك وأمروا بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينْزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأمروا أن يجتمع بالديوان في الغد الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فكان كذلك.

وفي غاية شهر محرم جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل إلى الشلقان وكذلك عساكر الإنكليز فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فإنهم لا يخرج من أيديهم شيء أبدا وهؤلاء الإنكليز ناس خوراج حرامية وصناعتهم إلقاء العدواة والفتن والعثمانلي مغتر بهم فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثمانلي فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم ضيقة ولو كان بينه وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لانمحى أثرهم وانمحى ذكرهم من مكان مديد وتأملوا في شأنهم وأي شيء خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا والفرنسيس عند قدومهم وصلوا في ثمانية عشر يوما، فلو كان فيهم همة شجاعة لوصلوا مثل وصولنا وكلام كثير من هذا النمط. وفي ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين وانتصبوا إلى العادلية في الجهة الشرقية وإلى انبابة في الجهة الغربية وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ثم عقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية فتجهزوا وخرجوا آمنين في أواخر صفر ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي وكانت

مدة حبسهم في القلعة نحو مائة يوم وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبي قير ودخل الوزير يوسف باشا مصر في التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل وكانت مدة تملك الفرنسيس لمصر ثلاث سنين وشهرا.

قال الشيخ الشرقاوي في تاريخه: وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاثوليكية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقولون إن الله واحد ولكن يقولون بالتعليل ويحكمون العقل ويجمعون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ويضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمد وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم هي قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان في ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فإنهم جعلوا من جملة ذلك ديوانا فيه جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذي أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم وعجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وأنهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن وإنهم يحبون العثملي ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظالمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت وقتل منهم ما يقرب عن الألف وهتكوا بعض الأعراض في مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بجيوشهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض

علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا تدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ونشروا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة وكان خروجهم بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الأرض مولانا السلطان سليم خان لا زال محفوفا برعاية الحنان المنان وبتدبير وزيره الأعظم وكان مكث بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية في مصر سبعة أشهر ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ثم توجه إلى بلاد الفرنسيس وجعل له نائبا منهم بمصر ولما وصل بونابرته إلى الفرنسيس ويقال له نابليون استعانوا به في إصلاح خلل كان حاصلا ثم ساق جيوشا لمحاربة إيطاليا والنيمسا وانتصر عليهم.

وفي سنة ١٢١٩ أقاموه إمبراطورا على فرنسا كافة وشن الغارات على دول أوروبا وحارب الروسية والنيمسا والإنكليز والبروسية وقائعة طويلة أفردت بالتألف ثم تجمعت جميع ملوك أوروبا واتفقوا على حرب فرنسا فأصاب فرنسا من ذلك شدائد عظيمة وسئموا من كثرة الحرب فاتفقوا على خلع بونابرته ودعوا الوزير الثامن عشر ليملكوه عليهم فلما علم ذلك بونابرته استعفى وذلك سنة ١٢٣٠ فملكوا الوزير الثامن عشر وأعطوا بونابرته جزيرة الألب ليملك عليها ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد إلى إنكلترا فنهضت الدول المحاربة بونابرته وإعادة الوزير إلى ملك فرنسا وجرت أمور يطول ذكرها وآخر الأمر تنازل عن الملك إلى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوأ الملك أحد من سلالته فذهب بونابرته إلى رشغورت وطلب من حكومة الإنكليز أن تقبله ضيفا في بلاده فأجابته أولا إلى ذلك فركب إلى أحد الموانى الإنكليزية، وقبل أن يترل إلى البر أرسلت إليه الحكومة الإنكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ثم شيعوه إلى جزيرة هيلانة فبقي أسيرا إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وعمره أربعة وخمسون سنة ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كان في بقية زمن السلطان سليم.

ذكر خلع السلطان سليم

سبب ذلك أن السلطان سليم كان يرغب أن يلاشي وجاق الإنكشارية ويقيم مكانه عسكرا جديدا على الطريقة الإفرنكية لأن الإنكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم، وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد، فهاج الإنكشارية من ذلك وأثاروا في القسطنطينية شغبا عظيما يطول الكلام بذكره، واعتصبوا عصبة واحدة وكان موافقا لهم على منع النظام الجديد عطاء الله أفندي شيخ الإسلام وقائم مقام صدر أعظم فقوي أمرهم به وقال لهم: إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار، وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار، فقويت هذه الحجة في صدورهم، وقالوا: سيروا بنا لتلاشي النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة، وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الإنكشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها إليهم المفتي عطاء الله أفندي فأخذوا يتلونها ويسمعون الأشخاص الذين يريدون قتلهم، ثم ساروا يفتشون على أولئك الأشخاص فوجدوا بعضا منهم فقتلوهم واختفى كثير من أولئك الأشخاص في بيوت النصارى واليهود وقتلوا خلقا كثيرا وأحضروا ١٧ رأسا من أعظم رجال الدولة وظل الدم جاريا في القسطنطينية ٣ أيام ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون: يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين وعوضا عن اتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحاميا عن الدين فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لهم ثقة بك والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام وبعد كلام كثير صارت قراءة

الفتوى التي مضمونها أن السلطان الذي يخالف القرآن الشريف هل يترك على تخت السلطنة؟ الجواب: كلا، ثم قال القارئ: قد صار معلوما عندكم أنه تحتم عزل السلطان فما قولكم الآن هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام؟ فصرخت العساكر كلا ثم كلا لا نقبله سلطانا علينا فليعزل وصرحوا باسم السلطان عبد الحميد وقالوا ليعيش السلطان مصطفى، وأرسلوا المفتي للسلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة، فدخل عليه متذللا منخفض الرأس قائلا يا مولانا إني قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان، وليس خافيا على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الإنكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم فالآن لا سبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شيء، فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقبل كلام المفتي ونزل عن السلطنة وكان ذلك في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٢٢ فمدة سلطنة السلطان سليم ثماني عشرة سنة وثمانية أشهر وإذا كان ذاهبا يختلى في مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادما ليجلس مكانه على تخت السلطنة فقال له: يا أخي أهبطني الله من العرش العتيد لأن تجلس عليه أنت لأنني أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا تعاليمهم وتركوا قوانينهم، فهاجت علي العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون مني التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك وها أنا ماض بكل رضا أعيش منفردا وأما أنت فإنك سعيد أكثر مني فأرغب إليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى، فلم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكنه من معانقته فلما وصل السلطان سليم إلى المكان الذي يريدون وضعه فيه وجد السلطان محمود أخا السلطان مصطفى ماكثا في ذلك الموضع عليه آثار الرقة والنباهة وعند ما شاهد السلطان سليم التقاه فقبل يده ذارفا دموعا غزيرة فحرك السلطان سليم إلى البكاء وجلسا في ذلك الموضع وطالما كانا يتحدثان دائما بالأمور المشيدة أركان الدولة

والدين هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود.

ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد

وأما السلطان مصطفى فإنه بوصوله أمام أولئك العساكر فرحوا به فرحا عظيما وأجلسوه على تخت السلطنة وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء حصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب في قلوب الجميع، ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودي في المنابر باسمه وتقدم المفتي شيخ الإسلام قائم مقام موسى باشا إلى الجمع التي كانت مجتمعة في فسحة آت ميدان وأخبروهم أن السلطان مصطفى قد وعد بإبطال ما كان مهتما به السلطان سليم من وضع النظام الجديد وبإرجاع العوائد القديمة، فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الأحكام بيد القائم مقام كوسج موسى باشا وإلى المفتي شيخ الإسلام عطاء الله أفندي، ولما بلغت هذه الأخبار الصدر الأعظم جلبي مصطفى باشا وكان رئيس الجيوش التي خرجت لقتال الروسية كما تقدم حزن لذلك وغضب غضبا شديدا هو ومن معه من العساكر وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار فعقدوا صلحا مع الروسية ورجعوا بالعساكر ليتداركوا هذا الأمر وأرسلوا للعساكر الإنكشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم إنهم قادمون لنجدتهم وإتمام رغبتهم ليطمئنوا بذلك، وما دخلوا القسطنطينية إلى بعد مشاق وأراد البيرقدار مصطفى باشا إرجاع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى وطلب من الصدر الأعظم المساعدة على ذلك فأنكر عليه ذلك مبينا سوء عواقب الأمور فغضب البيرقدار غضبا شديدا وأمر بحبسه وبلغ الخبر السلطان مصطفى فأرسل أناسا يقتلون السلطان سليم فدخلوا عليه وهو يصلي صلاة العصر فلم يمهلوه إلى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه إلى الأرض فنهض حالا عليهم كالأسد وصرعهم وكان قويا جدا ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ورجعوا به إلى السلطان مصطفى مسرعين وطرحوه ميتا أمامه وكان ذلك سنة

ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعمر السلطان سليم ثمان وأربعون سنة، ثم أرسل أناسا وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لإنقاذ السلطان سليم فوجدوه قد مات فاهتموا بأمر السلطان محمود وقال لهم البيرقدار: عليكم بنجاة السلطان محمود لأنه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقي من سلالة آل عثمان، فأخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود لأن السلطان محمود لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا فلما نظرته جماعة اليبرقدار وضعوا له سلما فنَزل إلى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر إليه البيرقدار فرح فرحا عظيما وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبل قدميه.

ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد

ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جندا قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدرا أعظم وسلمه زمام الأحكام فأخذ يجتهد في أخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليما ثم شرع في تنظيم العسكر الجديد وأرسل وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة، فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وإنفاذ أوامر السلطان طالبا رأيهم في ذلك فصادقوه مذعنين لأمر السلطان وتعهدوا بالمساعدة في كل ما يؤول لنجاح المملكة وفي الحال أخذ الصدر الأعظم في موضع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهارا ويدعونه بالكافر وعلقوا أوراقا في الأسواق وعلى باب داره مكتوبا فيها قد قرب موت الصدر الأعظم وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحاطوا بمنْزله وطرحوا فيه النار ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها وانقسم الناس فريقين فريقا

يريد التعليم الجديد وفريقا يكرهه وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثيرة وأحرقت دور كثيرة وحاصروا الصدر الأعظم في الدار التي كان فيها وأطلق عليه الرصاص وقتل كثيرا منهم، ثم ثار عليه صناديق بارود وكانت في داره فمات بسبب ذلك وكان قد أخرج جواريه ونسائه من الدار قبل ذلك فأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا، وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعزل شيخ الإسلام عطاء الله أفندي وأحيلت المشيخة إلى عرب زاده محمد عارف أفندي، وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتابا لعساكر الإنكشارية يحرضهم على الغيرة وإرجاعه إلى السلطنة فوقع ذلك الكتاب في يد بعض العلماء فذهب إلى شيخ الإسلام فجمع كثيرا من العلماء وأخذوا يتحدثون في عواقب هذه الأمور ويتشاورون في إطفاء هذه الفتنة وأرادوا أنه إذا بقي السلطان مصطفى في قيد الحياة لا تنطفئ الفتنة فاختاروا رجلا من بينهم، يقال له منيب أفندي كان قاضي اسلامبول: ليعرض على السلطان محمود رأي العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى فسار منيب أفندي إلى السلطان محمود وعرض عليه ذلك فأجابه السلطان محمود أن هذا أمر محال وكيف يتصور أن يصدر أمري بقتل أخي مع كوني قادرا على منعه من هذه الأعمال، وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة في ذلك وقال له منيب أفندي في غضون تلك المحاورة قد جاء في الحديث الشريف (**إذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما**) فشق ذلك على السلطان محمود وحول وجهه إلى شباك هناك ولم يجبه بشيء لشدة أسفه على أخيه فقال: منيب أفندي أن السكوت إقرار، ففي الحال أرسل منيب أفندي إلى كبير البستانجية وقال: إن مولانا السلطان قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره فذهب البستانجي باشا ومعه جماعة من أعوانه إلى الموضع الذي كان فيه السلطان مصطفى فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف مقصدهم فاختبى بين فرش كانت هناك فدخلوا فلم يجدوه ورأوا أمام تلك الفرش خفية فقلبوا تلك الفرش إلى الأرض فوجدوا السلطان مصطفى تخبأ فيه فقتلوه خنقا وكان العلماء

الذين اجتمعوا عند شيخ الإسلام وأرسلوا منيب أفندي للسلطان محمود ينتظرون رجوعه إليهم بالجواب فلما أبطأ عليهم ظنوا أن السلطان محمود لم يقبل ما رأوه فتوجهوا جميعا للسلطان محمود تقوية لمنيب أفندي وتصديقا له فدخلوا على السلطان محمود يلتمسون منه تمام ما عرضه عليه منيب أفندي فاتفق أنهم حين دخولهم قبل أن يبتدئوا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك فرأى إخراج جثة أخيه ميتا فتألم من ذلك جدا، والتفت إليهم وعيناه ممتلئتان بالدموع وقال لهم أسرعوا واهتموا بتكثير الجيوش وإحضار المهمات وإرسال العساكر لأنني أنا اليوم بحزن عظيم على موت أخي فحينئذ علم العلماء موت السلطان مصطفى فتوقفوا عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر ويعزونه ويسلونه على فقد أخيه، وكان ذلك في شهر جمادي الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف.

فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران وعمره ثلاثون سنة ولما استقرت السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة في غاية الارتباك والاضطراب فمن ذلك أن عساكر الروسية كانت تتقدم إلى جهة طونة مسرعة فبعث السلطان جيشا عظيما لمصادمتهم فلم يقدر أن يوقف سيرهم فطلبت دولة فرانسا أن تتوسط في الصلح، فرفض السلطان محمود مداخلتها لأنه أثر جدا من الشروط السرية التي عقدها نابليون ملك فرانسا مع إسكندر ملك الروسية في نيليست التي من شأنها اقتسام دول أوروبا فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية واستمر في مقاومة الروسية ومحاربتهم ولكن كانت الغلبة لهم فاستولوا على مدينة شملة وقلعة إسماعيل وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية أشد مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة وإذا بطالع سعيد بزغ في أفقها وذلك أن نابليون الأول ملك فرانسا أشهر الحرب على الروسية سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين، وسار إليها بجيوشه الجرارة فألزم ذلك الروسية أن تخرج جيوشها من حدود الدولة العلية وعقدت صلحا مع الباب العالي موافقا جدا للدولة العثمانية فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين

الثورات في ولايتي بغداد وآيدين وغيرهما فإنه في سنة ألف ومائتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والي بغداد العصيان فأرسل إليه السلطان محمود من قتله.

ذكر حرب المورة

في سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين تحرك اليونان في المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن في جميع الأطراف فشق ذلك على الدولة العلية وأرسلت العساكر لردعهم وإدخالهم في الطاعة فشبت الحرب بينهما وقامت على سابق وقدم وبعث الباب العالي إلى محمد علي باشا والي ولاية مصر يأمره أن يرسل جيشا لمحاربتهم فأرسل ولده إبراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة بحرية، ولما وصل إلى المورة انضم بجيشه إلى جيش الدولة العثمانية ودارت نيران الحرب ولما أيس الأروام من النجاة ونوال الاستقلال استنجدوا بالدول الأوربية فبادرت دولتا فرانسا وانكلترا إلى التوسط في الأمر والسعي بالصلح فلم يجب السلطان محمود سؤالهما فانضمت إليهما العمارة الروسية وبعثوا إلى إبراهيم باشا أن يوقف الحرب فأجاب أنه لا يقدر على ذلك إلا بأمر من السلطان فعند ذلك أطلقوا النار على عمارتي الدولة ومحمد علي باشا فأحرقوهما وكان ذلك سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين، ولما بلغ الخبر السلطان محمود اضطر إلى إجابة سؤال الدول المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة فيها إبطال الحرب واستقلال الأروام.

ذكر قتل العساكر الإنكشارية

وفي سنة إحدى وأربعين أيضا شرع السلطان محمود في تعليم بعض العساكر التعليم الجديد وشرع في تدبير الأمر في تدمير الإنكشارية وإبطال وجاقهم فأبرز أمرا سلطانية يتضمن القدح في وجاق الإنكشارية وبيان الخلل الواقع منهم وتقلبهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين وأمر سليم باشا الصدر الأعظم أن يجمع العلماء في بيت شيخ الإسلام ويتلو عليهم الأمر الشاهاني ففعل ذلك فأجابوا بالامتثال بما

يصدر به الأمر السلطاني وتعهدوا بإنفاذه وكان مع الحاضرين جماعة يميلون إلى الإنكشارية فتعصبوا لهم سرا وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق فهجموا على بيت الصدر الأعظم وبعض العظماء من رجال الدولة وأخذوا ينادون في شوارع اسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان السبب في وضع النظام الجديد ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت ويطرحون فيها النار ففر الصدر الأعظم منهم وجاء إلى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث فأمره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الإسلام أمام باب السرايا فاجتمع في ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان إليهم، فلما خرج إليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم، فأقسموا جميعهم على أنهم يريقون دمائهم في صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه إخراج الصنجق الشريف النبوي ليهجموا على العصاة فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا إليه أن لا يتنازل إلى ذلك وأرسلوا ينادون في شوارع المدينة ويدعون أهل الإسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف، فلما علم بعض الإنكشارية بذلك أرسلوا أناسا من جماعتهم ينادون لاجتماع الإنكشارية، فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الإسلام وأسرعوا إلى فسحة السرايا أفواجا أفواجا ففرقوا عليهم السلاح وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الإسلام قاضي زاده طاهر أفندي وعاد إلى كرسيه الملوكي، وكان يشرف على الجميع أمام السرايا، وسار سليم باشا الصدر الأعظم أمام تلك الجموع التي كانت أكثر من خمسين ألفا وشنوا الغارة على الإنكشارية صارخين: الله أكبر على الأشقياء، وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص، وكان يوما مهولا عظيما فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا إلى قشلهم وتحصنوا فيها فهجم عليهم العساكر والأهالي، وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقي ولوا الأدبار ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم في فسحة آت ميدان، وبعد ذلك دعا السلطان إليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم

العصاة الإنكشارية طالبا ثمن دم السلاطين، فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس، فصدرت الأوامر بتدمير الإنكشارية في الآستانة العلية وفي جميع الجهات فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم، وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون إليهم، ويساعدونهم ويفعلون في تكياتهم أفعالا شنيعة محرمة، وبدعا مسترذلة، فأمر السلطان بقتل أكثرهم، وهدم تكياتهم، وأخذت الدولة في تكثير العساكر النظامية والجد في تعليمهم وأبطلت وجاق الإنكشارية وفي أثناء تلك المدة غير السلطان محمود لبسه ونزع العمامة والجبة، وتزيا بزي العسكر الجديد على هيئة الأوروباويين وبالطربوش الصغير ولم يبال بأقوال المعترضين.

ذكر القتال مع الروسية

في سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة وسار جيش إلى جهة الأناضول فأرسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الأعظم سليم باشا فوقع بين الفريقين حرب شديد وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة، واستولوا على جملة أماكن وتقدمت عساكرهم إلى شوملة وأقاموا الحصار على سليسترة واستولوا على مدينة وارنة، فعزل السلطان الصدر الأعظم سليم باشا، وأمر بنفيه وأقيم في الصدارة محمد عزت باشا وسارت بعض عساكر الدولة إلى جبل البلقان فتركت الروسية محاصرة شوملة، وكانوا قد استولوا على سليسترة وكانت عساكر الروسية التي في الأناضول تتقدم، فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم واستأسروا صالح باشا وجاء جيش الروسية فيه مائة وستون ألف مقاتل وحاصروا أدرنة حصارا شديدا إلى أن استولوا عليها، ولما اشتد الأمر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الأمور اضطرابا كثيرا إلا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان في وسط تلك الأخطار المحدقة به وبدولته، ثم تداخلت دول أوروبا في الصلح وأتموه بشروط سنة

خمس وأربعين ومائتين وألف ومآل تلك الشروط استقلال الأروام وتنازل الدولة عن إقليم الصرب والأفلاق والبغدان لملوك من أهل تلك البلاد تحت نظارة ملك الروسية وعن بعض جزائر عند فم نهر الطونة وعن بعض أراض في الأناضول مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين فرنك.

قال بعض مؤرخي الفرنج: وربما استغرب القارئ كيف أن الدولة التي سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب في قلوب جميعهم لم يستمر في نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها إلى أن يرتضوا هذه الشروط فإذا نظرنا إلى هذا الأمر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل في داخليتها بسبب أصحاب البغي والفساد وقلة الأموال ولم تتزعزع أركانها بل استمرت في سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوة أو سبب آخر أن يثنيها وإذا ضممنا إلى هذه الأسباب الخلل الذي أوقعه وجاق الإنكشارية وعدم تمام انتظام الترتيب للعسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الأهوال لربما حق العجب، كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا؟ واستطاعت أن تناضل إلى هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التي تعرضت لها فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها انتهى كلامه. وأقول إن ههنا سرا إلهيا لتأييدها وهو سر بركة الإسلام وسر بركة النبي صلّى الله عليه وسلّم وسريان روحانيته لتأييد ملته وأهل دينه والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر

وفي سنة خمس وأربعين وألف ومائتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدعين أن أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر في تلك الجهات ويفتكون بهم، فلما بلغ الباب العالي ذلك أرسل طاهر باشا قبودان إلى الجزائر يتعاطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا والي الجزائر فلما وصل وأراد النزول إلى البر منعته الفرنساوية فعاد راجعا إلى القسطنطينية، والجزائر

المذكورة كانت في حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان، فلما طالت المدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجا للدولة ويكون تحت أمر الدولة ظاهرا ومتغلبين باطنا فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعليم الجديد امتنع والي الجزائر من تعاليم عساكرها و لم يمتثل أمر السلطان في ذلك فقيل أن السلطان محمود هو الذي سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر إلى أن قبضوا على الباشا المتولي عليها وذهبوا به إلى بلادهم وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر، فلما تملكها الفرنسيس لم ترجع تلك الجزائر لحكم الدولة بل استولوا عليها وبقي على ذلك إلى عصرنا هذا.

ذكر القتال بين محمد علي باش والسلطان محمود

في سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وجه محمد علي باشا والي مصر جيوشه برا وبحرا لتملك الشام وجعل قيادتها لولده إبراهيم باشا فحاصر عكا وافتتحها مظهرا الانتقام من عبد الله باشا والي عكا لأسباب كانت بينهما وفتح في طريقه غزة ويافا وحيفا، فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد علي باشا برجوع العساكر وإنه إذا كان بينهما دعوى يقدمان إلى الباب العالي فيحكم بينهما فلم يمتثل لأوامر الدولة فأبرزت الدولة فرمانا بعصيان محمد علي باشا وتنزيله عن ولاية مصر وصدر الأمر السلطاني لوالي حلب بجمع العساكر لمحاربة إبراهيم باشا وخرج حسين باشا بعساكر من الآستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس فهزمهم إبراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية وقبض على عبد الله باشا والي عكا وأرسله إلى الإسكندرية لأبيه محمد علي باشا ولما وصل إبراهيم باشا إلى دارايا قرب دمشق خرج إليه علي باشا وزير دمشق واشتبك الحرب بينهما فهزمهم إبراهيم باشا وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمانهم ودخلها وتقدم إلى حمص واشتبك القتل بينه وبين والي حلب، وكان يوما عظيما وحربا شديدا من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على المهمات جميعها وانهزم والي حلب ورجع إليها فقفلت في

وجوههم الأبواب فساروا إلى أنطاكية ولما وصل إبراهيم باشا إلى حلب خرج أهالي حلب لاستقباله فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ثم سار إلى أنطاكية وحاربهم فيها ثم على بوغازبيلان ولما بلغ الباب العالي تقدم العساكر المصرية سير رشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربهم فتقدم إلى قونية والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الأعظم وأتي به إلى إبراهيم باشا فقابله بكل إكرام ثم خلى سبيله وامتدت هذه الفتنة والحروب إلى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف، ثم صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا ليسير لمحاربة إبراهيم باشا فالتقى الجيشان بالقرب من مرعش واقتتلا ووقعت الهزيمة أولا على عساكر إبراهيم باشا وكان في وادي عسر، فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادي وصعد إلى تل كان تجاه معسكر حافظ باشا وأخذ يطلق عليهم المدافع فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ثم هجم عليهم بعساكره هجمة هائلة فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين إلى مرعش وقتل من الفريقين خلق كثير، وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التي وقعت في تلك الحروب وأعقبها إبراهيم باشا بفتح أكثر الجهات في تلك البلاد، و لم تصل أخبارها إلى القسطنطينية إلا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام، ومن فتوحاته إخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم، وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان في مدة سلطنته لكن إتمام الأمر ما كان إلا في زمن مولانا السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد، فذلك من فتوحاته، ومن فتوحاته المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كمال الاعتناء، فإنه صدرت الإرادة الشاهانية من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية، فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء، والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بالفراغ بعوض حقير، فصار الفقراء ليس لهم شيء، فصدر الأمر الشاهاني بنقض ذلك وإبطاله وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين فحصل تحديد ذلك في المدة التي كان فيها محمد

علي باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية وكتب الله ذلك صدقة جارية في صحيفة مولانا محمود وصحيفة كل من كان له إعانة، وتسبب في ذلك، ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته أنه كان في مدة سلطنته بتجديد قبة مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم وقبة السيدة خديجة زوجة النبي صلّى الله عليه وسلّم وقبة السيدة آمنة والدة النبي صلّى الله عليه وسلّم وقبة سيدنا عبد الله بن عباس بالطائف فإن القبب المذكورة هدمها الوهابي وجددها مولانا السلطان محمود، وهدم الوهابي أيضا قببا كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الأولياء فجددها مولانا السلطان المذكور، ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذي كان مرتبا لهم من أسلافه وذلك أنه في سنة إحدى وخمسين بعد المائتين والألف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين وللقائمين بخدمة المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات، واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة و لم يكن ذلك موجودا قبل ذلك، ثم أن ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم إلى ذلك الترتيب مثله في مدة سلطنته كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكره.

وكانت مدة سلطنة السلطان محمود ٣٢ سنة وعمره خمس وخمسون سنة وكانت وفاته ١٩ ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائتين وألف.

ذكر ولاية السلطان عبد المجيد

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد علي باشا وإخراجها من الشام وأعانه على ذلك دولة إنكلترا وكانوا عرضوا على السلطان محمود الإعانة، فأبى فلما توفي وتسلطن ولده السلطان عبد

المجيد قبل إعانتهم فأعانوه وسير جيوشه إلى الشام فهزموا عساكر إبراهيم باشا وأخرجوهم من الأراضي الشامية وأرادوا التوجه إلى مصر والإسكندرية لإخراج محمد علي باشا فتوسطت دولة إنكلترا بالصلح إلى أن أتموه بشرط أن تكون الإسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد علي باشا ولأولاده من بعده وضربوا عليه خراجا معلوما يدفعه في كل سنة ويرجع إلى الدولة الشام والحجاز، وتم الأمر على ذلك وكانت مدة تملكه الأقطار الشامية قريبا من مدة تسع سنين وفي مدة السلطان عبد المجيد قوى الإتحاد مع دولتي فرانسا وانكلترا فحسنوا له أحدث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية فصدر منه الفرمان السلطاني بذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وهي سنة جلوسه على تخت السلطنة.

التنظيمات هي الإصلاحات التي أدخلت على أداة الحكم والإدارة في الدولة العثمانية وأهمها خط همايون ١٢٧٢ هـ. والقانون الأساسي ١٢٩٣ هـ. بخط همايون اعترف أن رعاياه تجمع بينهم الأخوة لا يفرق بينهم المركز والدين لتأمين الأرواح والأموال وبقي خط الهمايون معمولا إلى صدور دستور مدحت باشا ١٢٩٣.

ذكر الحرب مع الروسية

في سنة تسع وستين ومائتين وألف كان الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القمامة وبعض الأماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعي لنفسها حق الرياسة والتقدم على الأخرى باستيلاء مفاتيحها، ثم أخذت هذه المسألة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم إلى أن آل الأمر إلى النِّزاع والجدال في سنة ثمان وستين ومائتين وألف فوقع الباب العال في ارتباك وحيرة من جهة تسكينها وإخماد نارها لأن الروسية كانت تحامي عن حقوق الروم وفرانسا تحتشد لطرف اللاتين فتداخل سفير إنكلترا في صرف هذا المشكل ورسم ترتيبا لائتلاف الملتين المتخالفين فقبلته فرانسا و لم تقبله الروسية لأن مقصدها التوحيد

ولم يكن مقتصرا على المحاماة عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نواله وتترقب الفرص لاستحصالها وهو إبعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبا والاستيلاء على أقاليمها وولايتها فانتهز إمبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ أربه فبعث سفيرا إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان عبد المجيد بعد أن كان بعث جيشا يبلغ مائة وأربعة وأربعين ألفا إلى نهر الطونة ليكون مستعدا لوقت اللزوم والحاجة، فلما وصل السفير المذكور إلى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأسا على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الإمبراطور نقولا في المسألة المتعلقة بالأماكن المقدسة وأن جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تتكون تحت حمايته من الآن فصاعدا وأن بطرق الروم القسطنطيني وباقي أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطا به وأن الشكاوى والدعاوى التي تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها، فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لأنها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للأصول وقوانين الدول، فانثنى السفير راجعا من حيث أتى. وأعلم الإمبراطور نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضبا، ثم أصدر أمرا إلى العساكر التي أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولي على تلك الأطراف فاجتازت النهر وشنت الغارات على إمارات الأفلاق والبغدان واستولت عليها ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية في تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لإشهار الحرب فجهز جيشا وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجري لردع الروسيين ولما تأكدت الدول الأوربية بغية الروسية ومقاصدها بادرت إنكلترا والروسية والنيمسا إلى عقد جمعية للنظر في إجراء الوفاق بين الدولتين وأرسلت كل دولة منهما معتمدا من طرفها إلى مدينة أثينا حيث وافاهم سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلسا في سنة ألف ومائتين وسبعين لم يأت بالمرغوب فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالي الحرب وصدم سليم باشا

العساكر الروسية في الأناضول وانتصر عليهم في عدة مواقع وهاجمهم عمر باشا في الروم إيلي وانتصر عليهم أيضا، وأما العمارة التي للروسية بالبحر الأسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها، وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاثة مراكب حربية ثم أن إنكلترا وفرانسا لما تيقنتا سوء نتائج هذه الحرب احتشدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية.

وفي سنة إحدى وسبعين ابتدأتا في نقل رجالهما ومهماقمما إلى ساحة الحرب واشتبكتا في القتال وأما باقي دول أوربا فكانت محافظة على الحياد وكانت دولة إنكلترا قد أرسلت عمار بحرية إلى بحر بلتيك، فاستولت على قلعة بومارستورد ثم على جزيرة الاند ولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظرا لحصانتها وإذا كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية التي يعولون عليها في البحر الأسود وجهت إنكلترا وفرانسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقا من عساكرهما عددها ستون ألفا، وكان أكثرها فرنساويين فنَزلوا في بوياسرايا وفيما كانوا يتقدمون إلى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية فاقتتل الفريقان قتالا شديدا إلى أن دارت الدائرة على الروسيين فانهزموا عند نهر الماء وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى آخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواطبول التي إليها وجهت الروسية كل قوتها من المهمات والعساكر والذخائر وصادم جيش من الإنكليز جيشا للروسيين عند بالاكلا فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير وكان جيش للروسية محاصرا في آقكرمان وعددهم ستون ألفا فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والإنكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ في قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواطبول مع أنهم كانوا يزيدون في قوتهم الحربية

ويكثرون هجماهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أو أن يمنعوا المساعدات التي كانت تأتيها من داخل البلاد ولقد قاست العساكر المتحدة لا سيما الإنكليز في شتاء سنة إحدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالا وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها فإن الأمراض والأوجاع قد أخذت في العساكر كل مأخذ وهلكت كثيرا منهم فضلا عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والأبخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات، أما إيطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت إلى الدول المتحدة فأرسلت خمس عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها إنكلترا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الإعانة واشتهرت رجالها في تلك المجامع بالشجاعة والثبات وفي خلال ذلك هلك الإمبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وجلس ولده إسكندر الثاني مكانه.

وفي خلال ذلك وقعت واقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف وإذا لم يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول في مساء ذلك النهار وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكها فانفتحت حينئذ مخابرات الصلح وعقدت جمعية في باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة وهي إنكلترا وفرانسا والعثمانية والنيمسا وبروسيا وسردانيا وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بندا أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية، وأنها تكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول وأن البحر الأسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أي جنس كان ماعدا الدولة العثمانية والروسية فإن لهما حقا في إدخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لأجل محافظة أساكلها وأن لا يكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات بحرية حربية على شواطئ البحر الأسود إلى غير ذلك من الشروط، ثم انسحبت

العساكر إلى مواطنها وانتهت الحرب التي لم يكن لها داع سوى المطامع.

وفي سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالي مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر يمنع بيع الرقيق وانتهت في رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب ابن غالب أمير مكة وتولية الشريف محمد بن عون والكلام عليها طويل.

وفي سنة أربع وسبعين وقعت فتنة في جدة بين أهالي جدة والنصارى الذين بها بسبب اختلاف بعض أهل المراكب في وضع بنديرة الإسلام أو الإنكليز على بعض المراكب والكلام عليها أيضا طويل.

وفي سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام والكلام عليها أيضا طويل.

وفي سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظمى بين الدروز والنصارى في جبل لبنان آل الأمر إلى وقوع حرب بين الفريقين وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ففتكت بهم الدروز فأرسل الباب العالي فؤاد باشا ليمهد الأمور وينتقم من المذنبين، وأرسلت فرانسا عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي وكذلك باقي الدول الإفرنجية منها من أرسل مراكب حربية ومنها من أرسل نوابا لإصلاح الحال وتمهيد الأمور وأبعد جراء ما يلزم إجراؤه استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لأهل هذا الجبل وأن تتحول أحكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالي الجبل ليكون متصرفا بها ويخابر الرؤساء الباب العالي فتوجهت المتصرفية لداود باشا الأرمني.

ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية، تجديد مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة المنورة فإنه كان على بناء السلطان قايت باي وكان مسقفا بالخشب فطالت مدته وحصل فيه خراب فصدرت إرادة مولانا السلطان عبد المجيد

بهدمه وتجديده سنة ١٢٧٠ فهدم وجدد وجعل سقفه قببا وطواجن كالمسجد الحرام وتمم عمارته بعد مضي أربع سنين فجاء على صفة لم ير الراؤن أحسن منها. وله عمارات كثيرة في الأماكن المأثورة بالحرمين الشريفين له تجديد ميزاب للكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين وألف. وتوفي السلطان عبد المجيد في سابع عشر ذي القعدة سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة. ومدة سلطنته اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر.

ذكر ولاية السلطان عبد العزيز

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني.

وفي سنة ٧٨ أظهر العصيان أهل الجبل الأسود فسير السلطان عبد العزيز إليهم جيشا فقاتلهم وهزمهم ثم رجعوا إلى الطاعة.

وفي سنة ١٢٨٣ أظهر العصيان كثير من الأروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية فجهزت الدولة عليهم جيوشا برا وبحرا وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة برا وبحرا فكانت مع عساكر الدولة ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد كان النصر فيها لعساكر الإسلام وأذاقوا العصاة الوبال وأرجعوهم إلى الطاعة.

وفي سنة ٧٩ توجه السلطان عبد العزيز إلى الديار المصرية للتتره والتفرج وكان ذلك في ولاية إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا.

وفي سنة أربع وثمانين توجه السلطان المذكور إلى باريس تخت ملك الفرنسيس للتتره والتفرج أيضا، منها توجه إلى بلاد الإنكليز للتفرج والتتره أيضا وكان في رحلته هذه مر على أدرنة وعلى قلعة بلغراد وكان الصرب قد طلبها منه وقيل النيمسا فأعطاها إياهم فحين عاين تحصينها غضب لذلك وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة فأعطاها قبل أن يراها فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم.

وفي سنة ٨٨ كانت فتنة عظمى ببلاد عسير فجهزت الدولة جيشا تحت حيادة رديف باشا فسار حتى صعد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم وقتل أميرهم محمد

ابن عائض بن مرعي وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيرا وأرسلهم إلى الأستانة وصارت بلاد عسير في حكم الدولة العلية منضمة إلى ولاية صنعاء اليمن. وفي هذه السنة أيضا كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرانسا آل الأمر فيها إلى هزيمة الفرنسيس وأسر ملكهم نابليون الثاني والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في السابع من شهر جمادي الأولى خلع السلطان عبد العزيز ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام وعمره ٤٨ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر.

ذكر ولاية السلطان مراد الخامس

وأقيم في السلطنة بعده السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثاني ثم خلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام في ثالث شعبان من السنة المذكورة أعني سنة ١٢٩٣ (والسبب) في خلعه أنه وقع له خلل في عقله وبعد أيام مضت بعد بيعته فلما تحققوا الخلل في عقله استفتوا فيه شيخ الإسلام خير الله أفندي فأفتى بخلعه لأن شرط الخليفة أن يكون متصفا بالعقل فخلعوه وبايعوا أخاه سلطان العصر مولانا السلطان عبد الحميد الثاني وبقي السلطان مراد المخلوع في داره وأما السلطان عبد العزيز فإنه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الأسبوع توفي فأشيع أنه قتل نفسه بمقص قص به عرقا في ذراعه فمات من ذلك.

وفي سنة ثمان وتعسين ومائتين وألف نفي جماعة من الوزراء إلى الحجاز فحبسوهم في قلعة الطائف منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد ونوري باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضا ومعهم جماعة آخرون غير هؤلاء منهم شيخ الإسلام خير الله أفندي.

وفي سنة ثلاثمائة توفي مدحت باشا ومحمود باشا الداماد في القلعة المذكورة وكان خلع السلطان عبد العزيز سببا لاضطراب كثير وحوادث شتى، وكان القائم أكمل القيام في خلعه حسين عوني باشا وكان السلطان عبد العزيز هو الذي رقاه

وأعلى قدره إلى أن جعله رئيس على العساكر كله بل صار مقدما على جميع أهل الرتب والمناصب فرتب الأمور مع الوزراء وغيرهم وزعم أن السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة فما زال حسين عوني باشا وغيره يسعون في ذلك حتى تم لهم خلعه فقدر الله أن رجلا يقال له حسن جركس قتل حسين عوني باشا وذلك أتى السلطان عبد العزيز وكان متزوجا بأخته فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز فصمم على قتل حسين عوني باشا فدخل عليه في دار الصدر الأعظم محمد رشدي باشا فوجدوه مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة في بعض الأمور وكان مع حسن جركس زوج من الطبنجة ذوات الأرواح المتعددة فضرب به ضربا متعددا وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عوني باشا الساعي في خلع السلطان عبد العزيز ولم يتم لحسين عوني باشا شيء من مراده والله غالب على أمره ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه.

ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره

هو السلطان المعظم المفخم سلطان سلاطين العرب والعجم حائز العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة طيبة والحرم، صاحب السيف والقلم، ظل الله في العالم، غياث بني آدم، نعمة الله على العباد وفضله على الحاضر والباد، ناصر الحق والدين، ومؤيد شريعة سيد المرسلين، المحفوف بالسبع المثاني، أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازي عبد الحميد الثاني، أعز اللهم سرير الملك والخلافة بوجوده، وأعد على القريب والبعيد آثار فضله وجوده وأنفذ في جميع البلاد أوامره وأحكامه، وأنشر على البرايا ألوية عدله وأعلامه، وأيده بتأييدك واجعل سلالة تلك السلطنة العلية سلسلة إلى منتهى الدوران، مستمرة على مرور الليالي والأيام باقية إلى آخر الزمان آمين يا رب العالمين. بويع أطال الله عمره لما خلعوا أخاه السلطان مراد في ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فكانت سلطنته زينة وبهجة وسرورا وامتد بها في مشارق الأرض ومغاربها ما ملأهما نورا ومما كان من الحوادث في أول ولايته

أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين في رعية الدولة العلية في بلاد الروم إيلي وهم طائفة يقال لهم الهرسك فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشا فقاتلوهم وكانوا قوما ضعافا لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم إلى كلفة ولا إلى كثرة عساكر إلا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريبا منهم إلى أن صارت المحاربة بين الدولة والروسية وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرون وأنفقت الخزائن الوفيرة فقدر الله بانهزام جيوش الإسلام وأسر كثير منهم في بلونة، وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم في ذلك البلد وعدم إمكان وصول الميرة إليهم لشدة البرد وكثرة الثلج وممن أسر من كبار عساكر الإسلام الوزير عثمان باشا الغازي قوماندان ذلك الجيش في بلونة، ثم أطلق مع كثير ممن أسروا وكان إطلاقهم بعد انعقاد الصلح وتملك الروسية كثيرا من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى قريب أدرنة والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف، وختام الأمر أن بقية الدول توسطت في الصلح بين الدولة العلية ودولة الروسية وانعقد الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ما تملكوه من البلاد وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب وكان شيئا كثيرا وتبقى للدولة أدرنة وما يليها إلى دار سلطنة الدولة العلية وكان هذا الخلل إنما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبد العزيز فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي سنة ست وتسعين ومائتين وألف أعطت الدولة العلية جزيزة قبرس للإنكليز على أن تكون بأيديهم سنين مؤقتة بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذي كان يحصل منها وقد تقدم في هذا الكتاب تكرر وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مرارا كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضي الله عنه، وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء.

وفي سنة ست وتسعين ومائتين وألف خلع والي مصر إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا وقد كان محمد علي باشا لما انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف جعلت له مصر ولأولاده من بعده، فلما صارت ولايتها لإسماعيل باشا أراد حصر الولاية في أولاده ومنع إخوانه وأولاد إخوانه منها فتوجه إلى دار السلطنة في مدة السلطان عبد العزيز سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولأولاده الأكبر فالأكبر وكان الصدر الأعظم في ذلك الوقت في دار السلطنة هو محمد رشدي باشا الشرواني ثم إن الله قضى وقدر أن عاقبة هذا الأمر الذي فعله إسماعيل باشا أول ما ظهر سوؤه عليه فإنه في سنة ٩٦ ظهرت عليه كثرة ديون أخذها من الدول الأجنبية وأنفقها في غير حقها فتشاور أهل الديون على أنهم يضبطون خراج مصر ومحصولاتها لأجل استيفاء ديونهم فلما أحس بذلك أراد أن يجعل له عصبية يمنعهم بها فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهودا ومواثيق على أن الأمور كلها تكون بيد العلماء والأهالي وبمشاورتهم، فلما أحس الإنكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا في خلعه ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد فخلعوه في سنة ست وتسعين وجعلوا ولاية مصر لولده الأكبر محمد توفيق باشا عملا بما تقرر قبل ذلك حين نفى إخوته وبنيهم من دخولهم في الولاية من بعده وأن ألوية من بعده تكون لأكبر أولاده فأقاموا عليها ولده الأكبر وهو محمد توفيق باشا وتوجه والده إسماعيل باشا بعائلته وبقية أولاده إلى نابولي من بلاد إيطاليا وجعل له مرتب من محصولات مصر وخزينتها.

وفي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف استولت دولة الفرنسيس على تونس وأعمالها بالمكر والخديعة والحيلة فجهزت دولة الفرنسيس عساكر كثيرة وأظهرت أنها تريد تأديب بعض قبائل العرب العصاة منهم قبيلة يقال لهم الخمير في أعمال تونس فوصلوا بعساكرهم إليهم وقاتلوهم وقهروهم ثم زحفوا بعساكرهم إلى تونس ولم

يستطع أحد أن يدفعهم إلى أن قاربوا دخولها فاضطرب أهلها اضطرابا كثيرا، ثم عقدوا معهم صلحا وأدخلوا طائفة من عساكرهم تونس وأبقوا الوالي على ولايته بحسب الظاهر واستولوا الباطن على الأحكام والمحصولات والخراجات واستقبلوا الديون التي كانت على والي تونس وصارت الأمور كلها بأيديهم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف كانت فتنة بمصر بين والي مصر محمد توفيق باشا وبين عرابي باشا وكان عرابي باشا من رؤوسا عساكره محمد توفيق باشا، واتسع الأمر في ذلك فجاء الإنكليز بعساكرهم البحرية نجدة لمحمد توفيق باشا إلى الإسكندرية وضربوا مدافعهم على الإسكندرية وقاتلوا الذين مع عرابي باشا، وكان ذلك في شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين واتسع الأمر بما يطول الكلام بذكره، كانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الإنكليز وتملكوا الإسكندرية وذهبوا عرابي باشا ومن معه إلى مصر، ثم سارت الإنكليز بعساكرهم لقتاله بمصر والكلام على ذلك طويل، وفي آخر الأمر انهزم عزم عرابي باشا ومن معه، ثم دخلوا مصر وقبضوا على عرابي باشا وعلى كثير ممن كانوا معه فقتلوا جماعة منهم ونفوا جماعة نفيا مؤقتا وجماعة نفيا مؤبدا وصار العفو عن قتل عرابي باشا ونفوه مع بعض من كانوا معه إلى جزيرة سيلان من أعمال مليبار من بلاد الهند وجعلوا إقامته ومن معه هناك ورتبوا لهم مرتبا يكفيهم واستولى الإنكليز على القطر المصري، ووضعوا عساكرهم في القلعة على صورة أنهم إنما فعلوا ذلك إعانة لمحمد توفيق باشا وأبقوه على ولايته، والإنكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء على مصر وإنما مرادنا الإصلاحات والتأييد لمحمد توفيق باشا وإذا استقامت الأمور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها ونخرج عساكرنا.

وفي سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان اسمه محمد أحمد يقال إنه المهدي أو قائم طالب لإظهار الحق و لم يدع أنه المهدي، ويقال إنه شريف حسني وكان قبل ظهوره مشهورا بالصلاح ومن مشايخ الطرائق، قيل إنه على طريقة الشيخ السمان

وأول ظهوره أنه لما كثرت أتباعه ومريدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتملكين للسودان عمالا لصاحب مصر محمد توفيق باشا، ثم اتسع الأمر بينهم وبينه إلى القتال، وقاتلهم مرارا وكان الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها فلما دخل الإنكليز مصر صار الإنكليز هو الذي يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الإنكليز ومعهم عساكر مصر ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم فتملك كردفان وكسلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقا كثيرا لا يحصى عددهم وكان أمره معهم عجيبا يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التي لا يطيق أحد مقابلتها فقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين فيهجمون على تلك العساكر في موضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقتلوا أكثر من قرب طعنا بالرماح وضربا بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ومنهم جماعة في براري سواكن قد ولى محمد أحمد عليهم رجلا يسمى عثمان دقنة فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن وإخراج الإنكليز والعساكر المصرية منها فخرجوا إليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة فهزمهم عثمان دقنة ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة وقتل الكثير منهم حتى أنهم جاؤه في سنة اثنتين وثلاثمائة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة وخرجوا لقتاله في البر قريبا من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسبابهم وإلى هذا الوقت وهو شهر ذي الحجة من سنة ثنتين وثلاثمائة وعثمان دقنة ومن معه من السودان في نواحي سواكن محاصرون لها وفيها عساكر الإنكليز وصاحب مصر، قيل إن جيوش محمد أحمد تبلغ ثلاثمائة ألف أو يزيدون، وأما دعوى أنه المهدي فمختلف فيها فمن الناس من يقول إنه يدعي أنه المهدي ومنهم من يقول لم يدع أنه المهدي بل يقول إنه قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة وإخراج الإنكليز

من مصر والله أعلم بحقيقة الحال والأكثر من الناس يقولون إنه رجل صالح على غاية من الاستقامة ومنهم من يقدح فيه وينسب إليه خلاف ذلك ويقول إن جيوشه يقع منه فساد كثير وليس لهم غرض إلا القتل والنهب وأنهم في استيلائهم على كردفان والخرطوم وغيرهما قتلوا خلقا كثيرا من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والأطفال، وقيل إن وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم و لم يرض بذلك محمد أحمد و لم يأمر به، والله أعلم بحقيقة الحال وقد قال النبي صلّى الله عليه وسلّم (**بأن انتصار آخر هذه الأمة في آخر الزمان بالسودان**) فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم وانتصار المسلمين بهم في آخر الزمان مأخوذ مما ذكره الخازن في تفسيره عند تفسير قوله تعالى (**ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ** * ١٣) من سورة الواقعة فإنه قال ما نصه (**ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ**) يعني من المؤمنين الذين قبل هذه الأمة (**وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ** * الواقعة: ٤٠) يعني من مؤمني هذه الأمة ويدل على ما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رويم قال: لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى (**ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ**) بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال يا رسول الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منها قليل فأنزل الله عز وجل (**ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ**) فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمر بن الخطاب وقال له: (**قد أنزل الله فيما قلت**) فقال عمر رضي الله عنه رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا صلّى الله عليه وسلّم فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (**من آدم إلينا ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال: لا إله إلاّ الله**) اهـ. ومثل ذلك في تفسير الخطيب الشربيني وفي التفسير المسمى بالدر المنثور للجلال السيوطي أن عروة بن رويم يروي هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأن الحديث المذكور أيضا رواه ابن مردوية وابن عساكر لكن اللفظ الذي ذكره في الدر المنثور قال في آخره: (**وأمتي ثلة ولن تستكمل ثلتنا حتى نستعين بسودان من رعايا الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده**

لا شريك له) اهـ. فيحتمل أن المراد من السودان أن هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان ذقنة ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه وكل ما أخبر به النبي صلّى الله عليه وسلّم لابد من وقوعه وروى ابن مكرم الأفريقي في كتاب له سماه لسان العرب حديثا لم يذكر من خرجه وقال فيه إن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: **(يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب أصحابه محسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كفزع الخريف يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها)** اهـ. فيمكن أنهم هؤلاء السودان القائمون مع محمد أحمد أو غيره وقد ذكر كثير من العلماء الدين ألفوا رسائل في ظهور المهدي وعلاماته أن من علامات ظهوره وخروج السودان منهم الجلال السيوطي والعلامة ابن حجر والعلامة المتقي والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في كتابه المسمى بالإشاعة في أشراط الساعة ففي رسالة الجلال السيوطي المسماة بالعرف الوردي في علامات المهدي حديث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم فيه **(إذا خرجت السودان طلبت العرب ينكشفون حتى يلحقوا ببطن الأردن أو ببطن الأرض فبينما هم كذلك إذ خرج السفياني في ٣٦٠ راكبا حتى يأتوا دمشق فلا يأتي عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفا)** والأحاديث التي جاء فيها ذكر السفياني كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل **(وهو يريد قتال المهدي عند ظهوره ثم يخسف بجيش السفياني ويهلكه الله تعالى)** وفي رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر في أخبار المهدي المنتظر: أن من علامات ظهور المهدي ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب إلى مصر من أمارات خروج السفياني وذلك إنما يكون عند ظهور المهدي وجهة السودان النسبة إلى مصر مغرب فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وكذا قوله خروج أهل المغرب إلى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لأنه يصدق على الجهة التي ظهروا منها أنهم من المغرب بالنسبة لمصر ويحتمل أن يكونوا غيرهم والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه صلّى الله عليه وسلّم.

ومن علامات ظهور المهدي الرايات السود التي تخرج من خراسان وجاء فيها أحاديث كثيرة. قال في الإشاعة: يمكن أنها هي التي خرجت في زمن المهدي العباسي ابن المنصور ويحتمل أنها أيضا تخرج عند ظهور المهدي المنتظر وفي شرح الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدي عبارات تفيد أن الدولة العلية العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها إلى ظهور المهدي وأنهم يكونون من أعوانه وأنصاره بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم وعساكرهم وآلاتهم وعددهم فيجب الدعاء للدولة العثمانية على كل مسلم والذي يقاتلهم يكون باغيا خارجا عليهم فالواجب على كل مسلم السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها وإعانتهم في إظهار الشريعة وإحياء السنن وإماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم. ثم أن القائم بالسودان وهو المسمى محمد أحمد إما أن يكون باغيا خارجا على السلطان فيجب قتاله وإن لم يدع أنه المهدي، ويمكن أن الله أقامه لإخراج الإنكليز من مصر إعانة للدولة العثمانية ولا يريد الخروج على السلطان وإنما يريد أن يكون من جملة رعايا الدولة العثمانية. ثم يكون لإعانة المهدي ويؤيد ذلك ما ذكره الجلال السيوطي في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فإنه ذكره فيها حديثا أخرجه نعيم بن حماد عن أبي قبيل قال: (**يكون أمير بأفريقية اثنتي عشر سنة ويكون بعده فتنة فيملك رجل يملؤها عدلا ثم يسير إلى المهدي فيؤدي إليه الطاعة ويقاتل عنه**) فيمكن أنه هو هذا الرجل المسمى محمد أحمد ويمكن أنه غيره والله أعلم بأسرار غيبه. وقيل إن الذين يشيعون أنه هو المهدي إنما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس في إتباعه والدخول في طاعته، وأما هو فإنه لم يدع أنه المهدي بل قال بعض من اجتمع به: أنه سمع منه بلا واسطة أنه يقول: إني لست أنا المهدي المنتظر وإنما أنا قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة وأما إن ثبت أنه يدعي أنه هو المهدي المنتظر فالأمر مشكل. لأن المهدي المنتظر لا يدعي أنه المهدي ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها ولا

يبايع إلا وهو مكروه بل لا يبايع الناس حتى يتهددوه بالقتل وذلك أن الله يطلع بعض من اختصه من صالحي عباده عليه وعلى علاماته فيدلون الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم مرارا ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة ويتهددونه بالقتل ولا يكون ظهوره والبيعة له إلا والناس بلا خليفة أخذا من حديث (**يحصل اختلاف عند موت خليفة**) وهو أصح حديث روي في هذا الباب وأما الآن فالناس لله الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد وبيعته في أعناق المسلمين وسلسلة سلطنته من أحسن الدول الإسلامية مقيمين للشريعة السنية محبين للصحابة وأهل البيت ناصرين أهل السنة المحمدية قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز خلع بيعته ولا الخروج عن طاعته ثبت الله دولته وأيد سلطنته فمن خلع بيعته أو ترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد.

وأيضا من علامات المهدي المنتظر أن يكون من ولد فاطمة رضي الله عنها وأن يكون ظهوره والبيعة له بمكة بين الركنين ولا يصح أن يكون ظهوره والبيعة له بغير مكة. قال الجلال السيوطي في آخر العرف الوردي في علامات المهدي وأما قول القرطبي: أن ظهور المهدي يكون من المغرب هو باطل. وقد تابع السيوطي ذلك العلامة العلقمي والعلامة الصبان في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فكل منهما قال، كما قال السيوطي: إن قول القرطبي إن ظهور المهدي يكون بالمغرب باطل وقال بعضهم يمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر فإن كثيرا ممن ادعى كل منهم أنه المهدي كان ظهورهم بالمغرب كمحمد بن تومرت وعبيد الله العبيدي جد ملوك أفريقية ومصر وخلق كثير غير هذين ادعى كل منهم أنه المهدي بالمغرب وغيره وذلك لأن المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد وهو يكون الذي من ولد فاطمة يكون ظهوره بمكة والناس بلا خليفة ويبايع مكرها ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاسي لتحصيلها ويكون في زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به. ومما يدل على أن المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد ما

ذكره العلامة ابن حجر في الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة حيث قال: حاكيا لقول من قال: أن المهدي من ولد العباس وهو والد هارون الرشيد واسمه محمد المهدي ابن عبد الله المنصور بناء على الأحاديث المذكورة فيها أن المهدي من ولد العباس عم النبي صلّى الله عليه وسلّم، وقال إنه من أحسن خلفاء بني العباس وهو فيهم كعمر ابن عبد العزيز في بني أمية ثم قال ابن حجر: موجها لقول هذا القائل ويمكن أنه مهدي من ولد العباس وهو غير المهدي المنتظر. فإن المهدي المنتظر من ولد فاطمة رضي الله عنها ويكون في زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به. فهذه العبارة صريحة في تعدد المهديين وجمع بعضهم بين الأحاديث التي فيها أنه من ولد فاطمة والأحاديث التي فيها أنه من من ولد العباس بطريق آخر فقال إن المهدي المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ومن ولد العباس من جهة أمه بأن تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس وكلام ابن حجر في رسالته التي في علامات المهدي يقتضي أيضا تعدد المهديين وأن المهدي المنتظر واحد فإنه قال فيها: والذي يتعين اعتقاد ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي المنتظر وهو الذي يخرج الدجال وعيسى عليه السلام في زمنه وهو المراد حيث أطلق المهدي وأما من قبله فليس واحد منهم هو المهدي المنتظر ويكون بعد المهدي أمراء صالحون لكنهم ليسوا مثله فهو الأخير في الحقيقة وكذلك غير ابن حجر ممن ألفوا رسائل في علامات المهدي كلهم يقتضي كلامهم تعدد المهديين وأن المهدي المنتظر واحد وإنما قالوا بذلك التعدد لأنه قيل في محمد ابن الحنفية إنه المهدي وقيل في عمر ابن عبد العزيز إنه المهدي وقيل في محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثني بن الحسن السبط أنه المهدي فهؤلاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدي فثبت بذلك تعدد المهديين قطعا لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدي المنتظر فالمهدي المنتظر واحد وهو لم يظهر إلى الآن فيمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر ممن كان خروجهم بالمغرب ولا يمكن حمل كلامه على المهدي المنتظر

لأنه إنما يظهر بمكة والناس بلا خليفة كما تقدم إيضاحه وكذلك لا يصح قول من قال: إنما يكون ظهور المهدي المنتظر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن خلدون في تاريخه فإنه قال: أن القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له وإنما نشأ ذلك من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الأقصى وعمد إلى مسجد ماسة وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيسا على العامة هناك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته فتهافتت عليه تهافت الفراش طوائف من عامة البربر ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسوا إليه من قتله في فراشه وانطفأت الفتنة.

(**والحاصل**) أن الذي تقتضيه الأحاديث النبوية وصرح به العلماء أن المهدي المنتظر إلى هذا الوقت لم يظهر وذكروا له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باق لم يظهر ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله في ليلته وأنه من ولد فاطمة رضي الله عنها وأنه يبايع مكرها لا أنه يطلب البيع لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها بل لا يبايع حتى يتهدد بالقتل وأن ظهور البيعة له إنما يكون بمكة بين الركنين وأن ظهوره إنما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة فلا يظهر ولا يبايع إلاّ والناس بلا خليفة فهذه الأشياء هي أقوى العلامات عليه وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل في تحقيق أمره لكن تلك الأشياء ظنية ومختلف في كثير منها وذلك مثل اسمه واسم أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره مدة مكثه في الأرض بعد ظهوره فكل هذه الأشياء مختلف فيها. فما قيل في مقدار عمره وقت ظهوره إنه ابن أربعين وقيل إنه ابن عشرين وقيل إنه ابن ثمانية عشر وقيل غير ذلك وقيل في مدة مكثه بعد ظهوره إنها سبع أو تسع سنين وقيل إنه أربعون وقيل عشرون وقيل غير ذلك وقيل في اسمه إنه محمد وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين أو العباس وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من جهة أمه وفي بعض أمهاته من هي من ولد العباس. والأحاديث التي جاء فيها ذكر

ظهور المهدي كثيرة متواترة فيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن وفيها ما هو ضعيف وهو الأكثر لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوي بعضها بعضا حتى صارت تفيد القطع لكن المقطوع به أنه لا بد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة وأنه يملأ الأرض عدلا نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في آخر الإشاعة وأما تحديد ظهوره بسنة معينة فلا يصح لأن ذلك غيب لا يعلمه إلا الله و لم ينص من الشارع بالتحديد وقد ذكر كثير من المتقدمين من العلماء تحديد ظهوره في سنين عينوها بالظن والتخمين فلم يخرج فيها فأخطأوا في ظنهم وتحديدهم ويؤخذ من قوله صلّى الله عليه وسلّم في المهدي (**أنه يصلحه الله في ليلته**) أن المهدي لا يعلم بنفسه أنه المهدي المنتظر قبل وقت إرادة الله إظهاره ويؤيد ذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو أشرف المخلوقات لم يعلم برسالته إلا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** * العلق: ١) وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيسا لرسالته وتقوية لقلبه لكنه لم يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة حتى أنه كان كلما رأى مناما من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضي الله عنها ويشكو إليها حاله فكانت تثبته وتقول له كلاما يقوي به قلبه كما هو موضح بكتب الحديث فإذا كان النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يعلم بأنه رسول الله إلاّ بعد ظهور جبريل عليه السلام وقوله له (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**) فبالأولى أن المهدي المنتظر لا يعلم بأنه المهدي المنتظر إلاّ بعد إرادة إظهاره ولذلك يمتنع من البيعة حتى يتهدد بالقتل ويبايع مكرها، فهذا هو سر قوله صلّى الله عليه وسلّم (**يصلحه الله في ليلته**) ليعلم من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدي المنتظر إلا وقت إرادة الله فكل من يدعي أنه المهدي المنتظر ويطلب البيعة لنفسه أو يقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم وقد ادعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الأزمان، و لم تثبت دعواهم، وكان لهم مع الخلفاء وقائع وحروب مذكورة في التواريخ، وقد جمعت أسماءهم ووقائعهم باختصار في رسالة مستقلة ليعلم من وقف

عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ولا تتم إلا إذا جاءت على طبق ما أخبر به النبي صلّى الله عليه وسلّم لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه كلاما فيه فوائد تتعلق بهذا المبحث فلنذكر ملخص ذلك تتميما للفائدة. وحاصل ذلك أن الذين يدعون هذه الدعوى إما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم إلا التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا فتنة وإلا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم والصفع في الطرق أو الأسواق. وإما أن يكونوا من طالبي الرياسة والملك فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويغفلون عما ينالهم من الهلكة وإسراع الهلاك والقتل من الملوك والسلاطين عند إحداثهم فتنة بهذه الدعوى. وقد يكون بعض من ادعى هذه الدعوى من الصالحين ويريد إظهار الحق ويتخيل له أنه هو المهدي فيخطئ ظنه ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج إليه في إقامة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الله لم يكتب عليه في ذلك إثارة فتنه وإنما أمره الله تعالى به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم: **(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)** وأحوال الملوك والدول قوية راسخة لا يزحزحها ولا يزلزلها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها العصبية بالقبائل والعشائر وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله تعالى بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء لكنه سبحانه وتعالى إنما أجرى الأمور على مستقر العادة وأنه حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وكل أمر يجتمع عليه كافة الخلق لابد له من العصبية وفي الحديث الصحيح **(ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه)** وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى من الناس

بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العوائد في الغلبة بغير عصبية والغفلة عن هذا هي أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء، وداعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين، وكثير منهم يدعي أنه المهدي المنتظر و لم تصح دعواهم، ويتبعهم كثير من العامة والأغمار ممن لا يرجعون إلى عقل يهديهم، ولا علم يفيدهم، يستجيبون لكثير ممن يدعون هذه الدعوى لما اشتهر من ظهور فاطمي، ولا يعلمون حقيقة الأمر وأكثر ما يكون ذلك في الممالك القاصية، وأطراف العمران فإفريقية، والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان بذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم هو أنهم قائمون بدعوة الفاطمي، يزعمون ذلك زعما لا مستند له إلا البعد عن القاصية عن مثار الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الأوهام في ظهور الفاطمي من ذلك الموضع لخروجه عن رتبة الدولة ومثار الأحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا الوهم وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تنشأ عن وسواس وحمق وقد قتل الملوك والرؤساء كثيرا منهم. ثم قال: أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الإيلي قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب المريني رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتوزيري وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصادمة وعلماؤهم فدس عليه الكسوى من قتله بيانا وانحل أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة في عشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي المنتظر وتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة

ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط، وأخبرني شيخنا المذكور بفرسية عن مثل هذا وهو أنه صحب في حجه رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلامذة، وكان يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان وتأكدت الصحبة بيننا في الطريق، ثم كشف لي عن أمرهم وأنهم إنما جاؤا من مواطنهم بكربلاء قاصدين أرض المغرب لإظهار دعوى أنه الفاطمي المنتظر، فلما وصل المغرب وعاين دولة بني مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب في ذلك الوقت منازلا تلمسان فلما رأوا قوة ملكه قال: ذلك الرجل لأصحابه، ارجعوا بنا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وهذا يدل على أن ذلك الرجل استبصر بأن الأمر لا يتم إلا بالعصبية الكافية لأهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك الموطن ولا شوكة له وأن عصبية بني مرين في ذلك الوقت لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق واقتصر عن مطامعه وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون، وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وإنما يترع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعوه وأكثر ما يعتنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما فيها من طيب معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون به الإقصار عن الغارة والنهب ولا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك لأنه المعصية التي كانوا عليه ومنها توبتهم، وتجد ذلك المتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة وغير متعمق في فروع الاقتداء والاتباع وإنما دينهم الأعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش أقصى قصدهم وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد إصلاح الخلق لكل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم فانفاقهما ممتنع لا تستحكم للأول

صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعيته، فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك في أفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة في المائة السابعة ثم مر بعده لرجل من بادية رياح كان أشد دينا من الأول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمرهما وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون ابني الرشيد وقتل الأمين وكان المأمون بخرسان فأبطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بني العباس ونقلها للعلويين فجعل ولي عهده عليا الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعوا للقيام وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد وانطلقت يدي الذعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق ورفع أهلوها أمرهم إلى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدربوس، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل بهم أهل الذعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل.

ثم قام من بعده رجل آخر يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار فقال له القائم الأول وهو خالد الدربوس أنا لا أعيب

على السلطان فقال له سهل لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة إحدى ومائتين فجهز إبراهيم بن المهدي بعد أن بايعه بنو العباس جيشا لقتال سهل بن سلامة فغلبه وأسره وانحل أمره سريعا وذهب ونجا بنفسه، ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم ثم ذكر كثيرا من الأحاديث التي جاءت في المهدي وضعف كثيرا منها.

ثم قال: والحق الذي يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلاّ بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقررنا لك ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون وقد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلاّ ما بقي بالحجاز في مكة وينبع والمدينة من الطالبين من حسن وحسين بن جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا يكون منهم ويؤلف الله قلوبهم في إتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافية لإظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة انتهى ما أردت نقله من كلام ابن خلدون.

ورأيت في كثير من الرسائل المؤلفة في شأن المهدي أنه لا يتم أمره إلا بالقيام بالشريعة الغراء وأنه يكون على مثل ما كان عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدون ويفيض الله على الخلق نورا ببركته فيتبعونه ويقتدون به في جميع شؤونه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم ووصفتهم لأن الناس على دين ملوكهم فإذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فإنهم كانوا يستقيمون وإذا زهد في الدنيا يزهدون وملاك الأمر كله هو الزهد في الدنيا وعدم التبسط فيها ومن الأمثال القديمة الناس على دين ملوكهم، وذكروا أن السبب في هذا المثل أن الوليد بن عبد الملك بن

مروان كان مشغوفا بتشييد البنيان فكان الناس في زمانه ليس لهم همة إلا تشييد البنيان والقصور وفي ذلك طول الأمل والغرور.

ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مران فكان مشغوفا بكثرة الأكل وتنويع الأطعمة وتكثير الألوان فكان الناس في زمانه يتفاخرون بالتوسعة في تنويع المأكولات وينهمكون في التلذذ بالشهوات وفي ذلك أعظم البليات.

ثم ولى بعد سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين فكانت همته في الاشتغال بالطاعات والعدل وإقامة الدين فكان الناس في زمنه راغبين في فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات فقالوا الناس على دين ملوكهم فالخليفة الأعظم هو القدوة لجميع المسلمين وأعظم شيء يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد في الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذي لا يحصل إلا بتعب ولجاجة فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وبلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ولا يكون الزهد من العامة إلا بعد زهد الخاصة فإن الخاصة هم العمدة في ذلك والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والأمراء والقضاة والعلماء وأولى من يطلب الزهد في الدنيا الخليفة الأعظم الذي أقامه الله لإصلاح الدنيا والدين وإحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين. قال الإمام الطرطوشي في كتابه المسمى سراج الملوك: إن الخليفة إذا عدل في بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين في الأخذ من بيت المال بقدر الحاجة كان المسلمون كلهم عسكرا للإسلام اهـ.

والحاصل أنه إذا زهد في الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة في جميع الأحوال يتبعه على ذلك الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء فإذا حصل ذلك يسهل حينئذ إقامة الشريعة والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع المتطهر فتحيى بذلك السنن التي أميتت وتزول تلك البدع التي

أذيعت وتقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات فإن الكفار إنما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين في الدنيا واقتحامهم المعاصي لتحصيلها فلا يزيلون منكرا لأن أكثر المنكرات يتوصلون بها إلى تحصيلها وإزالتها مخالفة لأغراضهم الذين هم بصددها فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وما داموا لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر وقد صح عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان كثيرا ما يقول في خطبه ومجالسه أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه فهذه العبارة نص صريح في أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضي الله عنهم وما دام الخليفة الأعظم يتبسط في الدنيا ويأخذ من بيت المال ما أراد مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم في العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعي في ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين فإن الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات لأن الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم فهذا هو السبب في عدم إتحاد المسلمين واتفاق كلمتهم وأما في زمن المهدي فإنه يسلك هو مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد في الدنيا ولا يأخذ من بيت المال إلا بقدر الضرورة والناس يكونون في زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل فظهر بهذا أنه إذا زهد الخليفة الأعظم في الدنيا وعدل في بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية أيضا من غير زيادة يتبعه على ذلك كافة الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الأبرار والفجار والخليفة أمين على مال بيت المسلمين لا يتصرف في شيء منه إلا بحسب المصلحة العائدة بالنفع على الإسلام والمسلمين فهو مثل قيم مال اليتيم لا يتصرف إلا بالمصلحة الظاهرة فإن

كان له مال خاص يستعف به عن الأخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيئا وإن لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى (**وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** * النساء: ٦) فإذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وكافة الخلق فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات ويتركون التلذذ بالشهوات فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكرا لنصرة الإسلام ويقوي عزمهم على قتال أعداءهم من القوم الكافرين وأما إذا تبسط الخليفة في مال المسلمين وتبعه الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء، فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم في قتال الكافرين حيث يرون ملوكهم لم يساووهم وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وفتحهم البلاد الواسعة مع الاتحاد واتفاق الكلمة إلا بسبب مساواة أمرائهم لهم في جميع شؤونهم وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب إلا لما استبد الملوك بالأموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها في غير مصارفها، فشق على المسلمين تميزهم عنهم وترفعهم عليهم بأموالهم التي أخذوها منهم بغير حق، ولا يظن ظان أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا الأمصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام بل إنما كان ذلك بزهده في الدنيا وعدم تبسطهم بما وعد لهم في بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم وأنفسهم وأولادهم وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون منها غيرهم إن قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيئا إذا كان لهم ما بقي بذلك لأنهم يرون أمراءهم مساوين لهم في جميع تلك الشئون، وإذا سلك الخليفة والأمراء والعلماء هذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفي عنهم جور الحكام لأنهم إنما يجورون عليه ليتبسطوا في أموالهم ويتلذذوا بها، وإذا

ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا في بيت المال تستحي نفوس الأغنياء بإعطاء الفقراء ويواسوا بهم وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل فلا يبقى من المسلمين فقير وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم فتزول المخاصمات التي كانت بينهم وتقل مرافعاتهم إلى الحكام ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ويرتفع كل شقاق واختلاف وإذا عدل الخليفة في بيت المال وسلك في ترك التبسط في الدنيا طريق النبي صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين كان قدوة للمسلمين ويكون له من الأجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين وكان سببا في اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين، ويكون له في ذلك من الله الرضا والرضوان في الدنيا وجنات النعيم وتقر بذلك عين النبي صلّى الله عليه وسلّم فإنه بالمؤمنين رؤف رحيم ويستحيل أن يحصل لهم شيء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك لأنهم إنما يفعلون وحالهم عن ذلك لا يتحول والتبسط في الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى (**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** * الإسراء: ١٦) وعدم التبسط في الدنيا هو ملاك الأمر وليس على الخليفة في سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من إدراك الحق ولا تعويق وينال بغيته من الأكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ والحاصل أن استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين في عدله في بيت المال هو السبب الأعظم في اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم في جميع الأحوال وعدم عدله في بيت المال سبب للافتراق في الحال والمآل ولو صام النهار وقام الليالي الطوال وبدون استقامة الخليفة وعدله في بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يرجى للمسلمين فلاح ولا يتم لهم اتحاد ولا نجاح ولنذكر لك نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط في الدنيا مما كان صادرا من النبي صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين لتعلم أن انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال.

لما أردا الله بأهل الأرض إحسانا وإفضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم إكراما

لهم وإجلالا وقضى بإطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأبيد دين الإسلام وتقوية أهل السنة السنية المتمسكين بسنن سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وإقامة الشرع الشريف على رغم الملحدة اللئام أطلع في أفق الخلافة العظمى شموس الأيالة العثمانية واسطع من أوج أسماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية وأجلسهم على سرير الملك وملكهم أعظم ممالك الإسلام وفتح على أيديهم الممالك العظام ونشر بهم جناح الأمن والأمان لا زالت دولتهم باقية إلى آخر الزمان اهـ.

ثم ذكر في تراجمهم ما يبهر العقول من محاسن الصفات ومن الزهد والعدل والجهاد وفعل الخيرات وقد تقدم في هذا الكتاب كثير من ذلك ومن تأمل في سيرة الملوك والسلاطين الذين كانوا بعد الخلفاء الراشدين يحصل له كمال اليقين بأن الدولة العثمانية أحسن الدول الإسلامية بين العالمين بعد النبي صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين لأنهم اتصفوا بصفات لم يتصف بها كثير من دول الإسلام وجمعوا فضائل لم تكن لغيرهم على ممر الليالي والأيام فمنها أن لهم كثيرا من الفتوحات الواسعة والغزوات الشهيرة في الأقطار الشاسعة حتى اتسع بفتوحاتهم الإسلام وانتشر العلم والأمن والأمان بين الأنام ومنها أن عقائدهم صحيحة مطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ليس فيهم مبتدع ولا خارج عن الطاعة ومنهم أنهم ناصرون لمذهب أهل السنة وقائمون بشعائر الدين كافة في مدن الإسلام لا سيما في الحرمين الشريفين الذين هما منبع الدين وأساسه ومطلع نوره ونبراسه فإنهم موظفون لأهل الحرمين والوظائف التي بها قوام الدين ومظهرون شعائر الأئمة الأربعة الذين انحصر فيهم مذهب أهل السنة والجماعة ومرتبون للقائمين بوظائف الدين أعظم المرتبات ومنعمون عليهم بأنواع كثيرة من أصناف البر الذي به تكثر الحسنات ومرتبون أيضا للأشراف والسادات والعلماء والصلحاء الأبرار ما يقوم بكفايتهم في المعيشة التي عليها المدار فأعانوا الجميع على القيام بالعبادة والاشتغال بالعلم النافع فقاموا بأداء الشكر لله تعالى وبذل الدعوات الخيرية للدولة العلية العثمانية في كل مسجد وجامع

ومن محاسنهم الجليلة ومناقبهم الأثيلة أنهم دافعون كيد الكفر الفجار والمبتدعة الأشرار بعساكرهم وخزائنهم في سائر الأقطار ومؤمنون الطرقات للحجاج والزوار والتجار والمسافرين باذلون غاية جهدهم في نصرة الإسلام وصيانة الدين فيجب على كافة المسلمين السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعد سلطنتهم والدعاء لهم بدوام التوفيق والنصر الذي يكون به تأييد مملكتهم. اللّهمّ وفّقهم لكل خير وادفع عنهم كل مكروه وضير ووفق سائر الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء والعمال للعدل ونصرة الدين، وقد من الله على أهل هذا العصر الحميد بسلطنة واسطة عقد الدول العثمانية الفريد من تشرفت بذكره في الحرمين الشريفين المنابر والمنائر وعمر مساجدهما فصدق عليه قوله تعالى (**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** * التوبة: ١٨) السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم خير خلف خلفاء الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المنصور المظفر المعان (**مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان**) بن المرحوم مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان متع الله المسلمين بوجوده وأفاض عليهم سحائب فضله وجوده وأدام له النصر والتمكين وأيده بروح القدس الأمين فكان له من حين ولايته إلى هذا الزمان من محاسن الصفات وفعل الخير ما يعجز عن بيانه اللسان فمن ذلك أنه عمر عمارة فائقة في الكعبة المعظمة وفرش باطنها بالرخام على أعجب الأوصاف المنظمة وبذل على ذلك كثيرا من الأموال وأنعم على مباشريها بما لا يخطر بالبال، وكان ذلك سنة تسع وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة من له العز والشرف صلّى الله عليه وسلّم.

ومن مآثره وخيراته الجليلة صدور أمره الكريم بوضع مطبعة في مكة المشرفة تطبع فيها كتب العلوم ليكثر انتشار العلم في موضع مهبط الوحي الذي هو مرجع الخصوص والعموم ليحصل له بذلك ثواب نشر العلم وتأييد قواعد الدين اللذين هما من أقوى أسباب التأييد والتمكين فكان وضع المطبعة المذكورة سنة ثلاثمائة بعد الألف من هجرة من له العز والشرف صلّى الله عليه وسلّم فامتثل أمره وقام بوضعها

واجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه حتى كملت واشتهرت بين العباد الوزير المعظم والمشير المفخم دولتلو السيد عثمان نوري باشا والي ولاية الحجاز وشيخ الحرم المحترم لا زال فعله مرورا وسعيه مشكورا وأقام في المطبعة المذكورة مديرا شويكي زاده السيد عبد الغني أفندي الدمشقي فصارت الناس تهرع إليها من جميع الجهات لطبع كتب العلوم فيها ويطبع فيها باللسان العربي والتركي والجاوي ففاقت بذلك جميع المطابع فنسأل الله تعالى أن يديم هذه السلطنة السنية ويوفقها لكل خصلة مرضية ويزيدها توفيقا على ممر الزمان حتى تكون أهل هذه الملة بهذه الدولة في أعلى مقامات الاستقامة والإحسان ويتحقق بها ما تقدم عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من قوله: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. ونسأل الله للجميع التوفيق والإعانة والإخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأصحابه الكرام وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وكان التمام للفتوحات الإسلامية في أول شهر رمضان المعظم سنة ١٣٠٤ أربع بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من له العزّ والشرف صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم آمين.

خليفة المسلمين الخاقان الأعظم، السلطان المعظم، السلطان ابن السلطان، السلطان عبد الحميد خان الثاني ابن السلطان عبد المجيد خان:

ولادته في ١٦ شعبان ١٢٥٨ هـ. ٢٢ أيلول ١٨٤٢ م.

جلوسه في ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ. ٣١ أغستوس ١٨٧٦ م.

خلعه في ٢٤ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ. ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م.

وفاته في ١٧ ربيع الآخر ١٣٣٦ هـ. في ١٠ شباط ١٩١٨ م.

السلطان ابن السلطان محمد الخامس رشاد خان ابن عبد المجيد خان:

ولادته في ١٩ شوال ١٢٦٠ هـ. ٢ قاسم ١٨٤٤ م.

جلوسه في ٢٤ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ. ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م.

وفاته في ٢٣ رمضان ١٣٣٦ هـ. ٣ تموز ١٩١٨ م.

رفعه فتيان الترك الجهال الغافلون على العرش بعد خلع عبد الحميد خان الثاني. على أيامه فقدت الدولة بوسنى والهرسك وتحررت بلغاريا وأخذت إيطاليا بلاد طرابلس الغربية وابتلت تركيا بحرب البلقان وبالحرب الكونية الأولى.

السلطان محمد السادس وحيد الدين ابن السلطان عبد المجيد خان.

جلوسه في ١٣٣٦ هـ. و ١٩١٨ م.

وخلعه وإخراجه من تركيا ١٣٤٠ هـ. و ١٩٢٢ م.

وتوفي في سانريمو (إيطاليا) في ١٣٤٤ هـ. ١٩٢٦ م. ونقل جثمانه إلى دمشق ودفن في مقبرة جامع السلطان سليم رحمهما الله وجعل الجنة مثويهما.

نبذة من (الجزء الأول)

من كتاب غالية المواعظ ومصباح المتعظ وقبس الواعظ الشيخ خير الدين أبي البركات نعمان أفندي آلوسي زاده ابن السيد الشيخ محمود أفندي المفتي ببغداد:

فنحمده تعالى على أن جعل سلطاننا الأعظم والخليفة على الخليقة في هذا العالم عبده الخاضع لسلطانه وأمير المؤمنين في زمانه حضرة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ابن الخاقان المرحوم عبد المجيد خان ابن المبرور الخاقان السلطان محمود خان شيد الله تعالى دولته بالشرع الأقوم ونصره على سائر الأمم ووفقه للخير الأتم وأذل له الطاغين الباغين وأعلى به كلمة الدين وجعل في حوزته جميع الأقطار وسدد أركان دولته ما تعاقب الليل والنهار كيف لا وهو والحمد لله تعالى بدر سماء السلطنة العثمانية وشمس أوج سلطنتها السنية التي قال فيها الشيخ عبد الغني النابلسي عليه الرحمة أنها المشار إليها في قوله تعالى (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** * الأنبياء: ١٠٥).

نبذة من كتَاب الفوائد البهية في تراجم الحنفية

تأليف العلامة أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي مع التعليقات السنية على الفوائد البهية للمؤلف المذكور ضاعف الله له الأجور.

الدولة العثمانية من أعظم سلاطين الدنيا جلالة وأشدهم قوة وآثارا وأول من ملك في ممالك الروم الأمير عثمان الغازي بن أرطغرل بن سليمان شاه وله نسب يتصل إلى يافث بن نوح وكان سليمان باشا سلطانا في بلاد ماهان قرب بلخ فلما ظهر جنكيزخان وأخرب بلاد بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتفرقت أهلها في سنة ٦١١ ترك بلاده وقصد بلاد الروم وتبعه خلق كثير وتقاتلوا مع الكفار في أذربيجان وغنموا شيئا كثيرا ثم قصدوا نحو حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر فعبروا النهر فغلب الماء عليهم فغرق سليمان شاه فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وكان معه أولاده الثلاثة سنقور وگون طوغدى وأرطغرل ولما وصلوا إلى موضع يقال له قلعة ياسين أوسى رجع سنقور وكون طوغدى إلى بلاد العجم وتخلف أرطغرل مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزآلب وصادربى وعثمان ومكث هناك يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صادربى إلى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي يستأذنه في الدخول إلى بلاده فأذن له وعين لترولهم جبال طومانيج وجبال هناك فأقبل أرطغرل مع أربعمائة من قومه فتوطنوا في قره جه طاغ سنة ٦٨٥ وفوض إليه الأمير علاء الدين أمر قلعة كوتاهية وكانت بيد الكفار ففتحها فازداد عنده قربا ومترلة ولم يزل أرطغرل يجاهد ويغزو إلى أن توفي سنة ٦٨٧.

فلما سمع السلطان وفاته تأسف وعين مكانه ولده عثمان الغازي وكان مولده سنة ٦٥٦ وأكرمه وكان كثير التردد إلى المولى أده بالى القرماني فرأى ليلة في منامه أنه خرج من حضن الشيخ أده بالي قمر ودخل في حضنه ثم نبتت من سرته شجرة سدت الآفاق وتحتها جبال راسيات وعيون والناس ينتفعون به فلما استيقظ وقص

رؤياه على الشيخ، قال الشيخ له: لك البشارة بمنصب السلطنة وإني زوجتك بنتي هذه. فقبلها عثمان وولد له منها أولاد منهم أورخان ثم إن السلطان علاء الدين عظم بناؤه من التاتار وشاخ وكبر سنه فتسلطن عثمان في البلاد التي افتتحها.

وقيل بل أجازه بذلك علاء الدين وكان هو مجازا من الخلفاء العباسية وخطب له فيها بالسلطنة ختن الشيخ أده بالي طورسون الفقيه في مدينة قره جه حصار سنة ٦٩٩.

وفي سنة ٧٠٠ توفي علاء الدين وتولى مكانه ولده وكثر الهرج والمرج في بلاده فلحق غالب عساكره بالسلطان عثمان وفتح سنة ٧٠٧ ناحية مرمرة وحصن آق حصار وحصن لفكه وغيرها

وفي سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوه وحصن تكوربيكاري وغيره

وفي سنة ٧٢٢ حاصر مدينة بروسا وتوفي سنة ٧٢٦ وجلس بعده على سرير السلطنة ابنه أورخان في ابتداء سنة ٧٢٧ وكان مولده سنة ٦٧٨ وفتح مدينة بروسا وكانت في يد الكفار وانتقل إليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا

وفي سنة ٧٣١ فتح حصون قيون حصاري ومدينة إزنيق وارنكميد وكانت بيد الكفار

وفي سنة ٧٥٨ بعث ولده سليمان إلى طرف روم إيلي للجهاد مع عسكر كثير ففتحوا حصن جمني ومدينة كليبولي وهي مدينة جليلة بينها وبين قسطنطينية ست وثمانون ميلا وتوفي سليمان سنة ٧٦٠ وذهب أخوه مراد خان إلى روم إيلي ففتح مدينة جورلي بينها وبين قسطنطينية ثلاث مراحل ومدينة ديمتوقه ثم توفي السلطان أورخان سنة ٧٦١ وتولى موضعه ابنه مراد خان وكان مولده سنة ٧٢٧ وفتح مدينة انكورية من بلاد حلب وفتح مدينة أدرنة من يد الكفار بينها وبين قسطنطينية خمس وتسعون ميلا وقتل بعد سنة ٧٩١

وجلس بعده ابنه يلدرم بايزيد خان وفتح قره طوه وبلاد سكوب وقسطموني

وقونية وقيصرية وسيواس وأماسية وتوقات ونيكسار وسامسون وغيرها ودخل تيمور بلاد الروم سنة ٨٠٤ ووقع بينهما بقرب مدينة أنقره حرب عظيم إلى أن غلب تيمور وحبسه وذهب به معه إلى العجم فتوفي في أثناء الطريق بمدينة آق شهر سنة ٨٠٥ ونقل جسده إلى بروسا

ثم جلس بعده ابنه محمد خان سنة ٨١٢ ومولده سنة ٧٧٧ وفتح بعض البلاد وتوفي سنة ٨٢٤ وجلس بعده ابنه مراد خان وتوفي سنة ٨٥٥

وجلس بعده ابنه محمد خان ولم يزل يهيئ أسباب القتال لفتح قسطنطينية إلى أن فتحها في جمادي الآخرة سنة ٨٥٧ بعد المحاصرة إحدى وخمسين يوما وظهر كنيسة فيها مسماة بأياصوفية وبنى هناك جامعا وبنى فيها المدارس الثمان.

وفتح غيرها من القلاع الواسعة والبلاد الشامخة منها بلاد حسن الطويل سلطان العجم وبلاد كفه وتوفي سنة ٨٨٦ واستقر بعده ابنه بايزيد خان ومولده سنة ٨٥٢ وفتح عدة من البلاد وبنى الجوامع والمدارس وفوض السلطنة في حياته إلى ابنه سليم خان وانتقل بالملك بعد وفاة أبيه سنة ٩١٨ وفتح بلاد ماردين والموصل وحصن كيفا وجزيرة ابن عمر وغيره وقصد سنة ٩٢٢ قتال الغوري ملك مصر والشام وحلب وغيرها والتقى العسكران بقرب حلب إلى أن قتل الغوري ودخل هو مدينة حلب وخطب له فيها ثم فتح بيت المقدس وغزة وطبرية ورقة وانطاكية وعينتاب وغيرها وملك مصر سنة ٩٢٣ وتوفي سنة ٩٢٦ وتولى بعده ابنه سليمان خان ومولده سنة ٩٠٠ وفتح عدة من البلاد وسار إلى بلاد تبريز ونخجوان ومراغة وغيرها من بلاد الشرق وسافر لفتح قلعة أسكدار سنة ٩٧٤ فمرض هناك ومات وفتحت بعد موته وجلس بعده ابنه سليم خان ومات سنة ٩٨٢. وجلس بعده ابنه مراد خان ومولده سنة ٩٥٣ وفتح كثيرا من بلاد العجم وغيرها وتوفي سنة ١٠٠٣ وجلس بعده ابنه محمد خان وتوفي سنة ١٠١٢. وجلس بعده ابنه أحمد خان هذا ما ذكره أحمد بن يوسف الدمشقي في كتابه أخبار الدول وآثار الأول وقد أطنب

الكلام في ذكر وقائعهم وحوادثهم ومحارباتهم ومحاسنهم فإن شئت الاطلاع على ذلك فارجع إليه وذكر أبو الفوز محمد أمين البغدادي في كتابه سبائك الذهب في أنساب العرب أن وفاة أحمد خان كانت سنة ١٠٢٦. وجلس بعده أخوه مصطفى خان ثم خلع نفسه عن السلطنة واختار جلوس ابن أخيه عثمان خان بن أحمد خان فجلس هو سنة ١٠٢٧ ومولده سنة ١٠١٣ ثم إن العسكر قاموا عليه وقتلوه في سنة ١٠٣٢ وأعادوا عمه مصطفى ثم خلع هو نفسه. وجلس مراد خان بن أحمد خان سنة ١٠٣٢ ومولده سنة ١٠٢١ وتوفي سنة ١٠٨٩. وجلس بعده أخوه إبراهيم خان بن أحمد خان ومولده سنة ١٠٢٤ ولم يزل على السرير إلى أن توفي سنة ١٠٥٨

وتولى بعده ابنه محمد خان ولد سنة ١٠٤٩ واستمر على ذلك إلى أن خلعوه وذلك في سنة ١٠٩٩. وأجلسوا مكانه أخاه سليمان خان ابن إبراهيم خان وتوفي سنة ١١٠٢. وجلس بعده أخوه أحمد خان بن إبراهيم خان وتوفي سنة ١١٠٧ ثم جلس بعده مصطفى خان بن محمد خان

وفي سنة ١١١٥ جلس أحمد خان بن محمد خان

وفي سنة ١١٤٣ جلس محمود خان بن مصطفى خان بن محمد خان

وفي سنة ١١٦٧ جلس عثمان خان بن مصطفى خان بن محمد خان

وفي سنة ١١٧١ جلس مصطفى خان بن أحمد خان بن محمد خان

وفي سنة ١١٧٨ جلس عبد الحميد خان بن أحمد خان بن محمد خان

وفي سنة ١٢٠٣ جلس سليم خان بن مصطفى خان بن أحمد خان

وفي سنة ١٢٢٢ جلس مصطفى خان بن عبد الحميد خان

وفي سنة ١٢٢٣ جلس محمود خان بن عبد الحميد خان

وفي سنة ١٢٥٥ جلس ابنه عبد المجيد خان

وفي سنة ١٢٧٧ جلس سلطان زماننا عبد العزيز خان ابن محمود خان وولادته سنة ١٢٤٥ أدام الله دولته وأحيى به سنته انتهى ملتقطا (قلت) ووصل الخبر

في جمادي الأولى من هذه السنة أن أراكين الدولة أجمعوا على عزله فعزلوه وأجلسوا مكانه ابن أخيه مراد خان فأحاطت بعبد العزيز خان الندامة والحسرة فاستشهد رحمه الله تعالى ونعم الرجل كان.

سلاطين عثمانية

هجري قمري			هجري شمسي	
من	إلى		من	إلى
٦٩٩	٧٢٦	سلطان عثمان خان غازي بن أرطغرل غازي.	٦٧٩	٧٠٠
٧٢٦	٧٦١	سلطان أورخان غازي بن عثمان غازي.	٧٠٥	٧٣٩
٧٦١	٧٩١	سلطان مراد غازي بن أورخان (خداوندگار).	٧٣٩	٧٦٨
٧٩١	٨٠٥	سلطان غازي بايزيد بن خداندگار (يلديرم).	٧٦١	٧٨١
		§		
٨١٦	٨٢٤	چلبي سلطان محمد بن يلديرم بايزيد خان.	٧٩٣	٨٠٠
٨٢١	٨٥٥	سلطان غازي مراد خان الثاني بن چلبي سلطان محمد	٨٠٠	٨٣٠
٨٥٥	٨٨٦	سلطان أبو الفتح محمد خان غازي بن مراد ثاني.	٨٣٠	٨٦٠
٨٨٦	٩١٨	سلطان بازيد خان ثاني بن فاتح محمد خان.	٨٦٠	٨٩١
٩١٨	٩٢٦	سلطان سليم خان غازي بن بازيد ثاني (ياوز).	٨٩١	٨٩٩
٩٢٦	٩٤٥	سلطان غازي سليمان خان بن سليم أول (قانوني)	٨٩٩	٩٤٥
٩٧٤	٩٨٢	سلطان غازي سليم خان ثاني بن سليمان قانوني.	٩٤٥	٩٥٣
٩٨٢	١٠٠٣	سلطان غازي مراد خان ثالث بن سليم ثاني.	٩٥٣	٩٧٣
١٠٠٣	١٠١٢	سلطان غازي محمد خان ثالث بن مراد ثالث.	٩٧٣	٩٨٢
١٠١٢	١٠٢٦	سلطان أحمد خان أول بن محمد خان ثالث.	٩٨٢	٩٩٦
١٠٢٧	١٠٣٢	سلطان مصطفاى أول بن محمد خان ثالث (دفعة أولى)	٩٩٦	١٠٠٢
١٠٢٧	١٠٣١	سلطان عثمان خان ثاني بن أحمد خان أول.	٩٦٨	١٠٠١

١٠٣٢ - ٠٠٠٠ سلطان مصطفى (دفعة ثانية) ١٠٠٢

١٠٣٢-١٠٣٩ سلطان غازي مرادخان رابع بن أحمد رابع بن أحمدخان أول ١٠٠٢-١٠١٨

§

١٠٤٩ - ١٠٥٨ سلطان إبراهيم خان بن أحمد خان أول. ١٠١٨-١٠٢٧

١٠٥٨ - ١٠٩٩ سلطان محمد خان رابع بن إبراهيم خان (آوجى) ١٠٢٧-١٠٦٧

١٠٩٩ - ١١٠٢ سلطان سليمان خان ثاني بن إبراهيم خان. ١٠٦٧-١٠٧٠

١١٠٢ - ١١٠٦ سلطان أحمد خان ثاني بن إبراهيم خان. ١٠٧٠-١٠٧٣

١١٠٦ - ١١١٥ سلطان مصطفى خان ثاني بن محمد خان رابع ١٠٧٣-١٠٨٢

١١١٥ - ١١٤٤ سلطان غازي أحمد خان ثالث بن محمد خان رابع. ١٠٨٢-١١١٠

١١٤٤ - ١١٦٨ سلطان محمود خان أول بن مصطفى خان ثاني. ١١١١-١١٣٤

١١٦٨ - ١١٧١ سلطان عثمان خان ثالث بن مصطفى خان ثاني. ١١٣٤-١١٣٦

١١٧١ - ١١٨٧ سلطان مصطفى خان ثالث بن أحمد خان ثالث. ١١٣٦-١١٥٢

١١٨٧ - ١٢٠٣ سلطان عبد الحميد خان أول بن أحمد خان ثالث. ١١٥٢-١١٦٧

١٢٠٣ - ١٢٢٢ سلطان سليم خان ثالث بن مصطفى خان ثالث. ١١٦٧-١١٨٦

١٢٢٢ - ١٢٢٣ سلطان مصطفى خان رابع بن عبد الحميد خان أول ١١٨٦-١١٨٧

١٢٢٣-١٢٥٥ سلطان غازي محمودخان ثاني بن عبد الحميدخان أول ١١٨٧-١٢١٨

١٢٥٥ - ١٢٧٧ سلطان غازي عبد المجيد خان بن محمود خان ثاني. ١٢١٨-١٢٣٩

١٢٧٧ - ١٢٩٣ سلطان عبد العزيز خان بن محمود خان ثاني. ١٢٣٩-١٢٥٥

١٢٩٣ - ١٣٢٧ سلطان عبد الحميد خان بن عبد المجيد خان

١٣٢٧ - ١٣٣٦ سلطان محمد رشاد خان بن عبد المجيد خان

١٣٣٦ - ١٣٤٠ سلطان محمد وحيد الدين خان بن عبد المجيد خان

الله ﷻ محمّد ﷺ

بســــم الله الرّحمن الرّحيم

توكلت على الله وعليه نتوكل لا حول ولا قوة إلا بالله

المسلمون المعاصرون

محمد سيّد گيلانى

ماچستير من كلية آداب جامعة القاهرة

جاء القرن العشرون وقد وقعت معظم الشعوب الإسلامية في قبضة الاستعمار الأوربي يحكمها حكما مباشرا، ويبتز خيراتها ويسخرها تسخير العبيد، فأخذ بعض مفكري المسلمين يبحثون عن أسباب تخلف أبناء دينهم وتأخرهم عن ركب الحضارة الغربية، فمنهم من عزا ذلك إلى جمود الأحكام الفقهية وعدم مسايرتها لطبيعة العصر الحديث. وطفق الناس يتساءلون عن أوجه الحلال والحرام فيما بين أيديهم من أنواع الحضارة والعمران، هل المساهمة في الشركات، وشراء السندات، وإيداع الأموال في المصارف وصناديق التوفير نظير ربح سنوي مما يحلله الدين؟ وهل خروج المرأة سافرة واختلاطها بالرجال في المدارس والمعاهد والمصالح الحكومية وغير الحكومية مما يبيحه الإسلام؟ هل تقابل الفتى مع الفتاة وخروجها معه إلى الحدائق ودور اللهو قبل زواجها مما يتفق مع الإسلام؟ هل لبس القبعة حلال أم حرام؟ هل التصوير والنحت وإقامة التماثيل وحلاقة اللحية وتشريح جثة الميت للكشف عن سبب وفاته، وعرض المرأة على الطبيب؛ مما تجيزه الشريعة الإسلامية؟ هل يجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية؟ وهل يجوز إذاعته من محطات الإذاعة؟ هل يجوز حل الأوقاف الأهلية؟

انقسم علماء المسلمين بإزاء هذه الموضوعات إلى قسمين:

١- قسم متزمت يقول بالتحريم على طول الخط. وكان هذا الفريق إذا رأى بعض مظاهر الجدة أخذت طريقها بين المسلمين ربط بينها وبين ضعف الشعوب الإسلامية وخضوعها للمستعمرين، وعزا هذا الضعف وتلك الاستكانة إلى عدم تمسك المسلمين بتعاليم دينهم، وتقليدهم للفرنجة في كل شيء. وتعاليم الدين التي كانوا يقصدونها هي حالة الجمود والنفور من كل جديد ولو كان نافعا، فأخذ الربح على الأموال المودعة في المصارف وصناديق التوفير، وعن الأسهم والسندات، والسماح للمرأة بالخروج للتعلم أو العمل؛ كل هذا عندهم من أسباب ضعف المسلمين، ذلك الضعف الذي أدى بهم إلى الوقوع في قبضة المستعمرين.

٢- وقسم كان يرى أن الدين الإسلامي لا يمنع معتنقيه من الأخذ بأسباب المدنية كلها، ومجاراة الفرنجة في ميادين العمل المختلفة، ومن رأيهم فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وكان على رأس هذا الفريق الشيخ محمد عبده، ويؤثر عنه أنه قال: «أما ما جاء في القرآن فعلى العين والرأس، وأما ما جاء في الحديث فعلى العين والرأس. وأما ما قاله الأئمة، فهم رجال ونحن رجال». ومن ثم أخذ يوفق بين الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر الحديث.

ويقول تلميذه محمد رشيد رضا:[١] إن توسع الفقهاء في مسائل الربا، وإدخالهم فيها ما لم يكن معروفا في عصر الوحي، وتضييق أكثرهم في أحكام العقود المالية، واستحداث الأمم التي يتعامل المسلمون معها لأنواع كثيرة من العقود والمعاملات، وترقي العلوم الاقتصادية، والأعمال المالية إلى درجة قضت بتفوق متبعي قواعدها ونظمها على غيرهم في الثروة والقوة والسيادة، كل أولئك كان سببا في تخلف المسلمين، ورافعا لغيرهم عليهم حتى في ديارهم، بل هو أظهر العلل لسلب ملكهم منهم، والسيطرة عليهم فيما بقي لهم من السيادة فيه. ولاعتقاد أكثر الذين يعرفون

---

(١) الخلافة ط المنار ص ٦٥

أحوال هذه الأمم العزيزة في علومها وأعمالها ويجهلون أصول الإسلام؛ أن الإسلام نفسه علة ضعف المسلمين بما شرعه من الجمود على أحكام عتيقة مالية واجتماعية توجب فقر ملتزميها، كل ما يجره الفقر في الأمم من الذل والضعف وفقد الملك».

«إذن لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من جحر الضب الذي دخلت فيه إلا بالاجتهاد، ووجود المجتهدين».

وقال محمد أبو زيد[١] من علماء الأزهر:

«كل يوم نسمع ضجة الناس وقولهم إن أحكام الدين لا تصلح لهذا الزمان، يضربون لذلك مثلا أحكام المحاكم الشريعة، وأنها أوجدت كثيرا من المشاكل، ولم تؤد المقصود من الإصلاح في الزوجية. وأن الزواج والطلاق أصبح الأمر فيهما فوضى».

«وقد فات هؤلاء الصائحين أن الأحكام التي يرونها مخالفة لمصالحهم ليست من نصوص الدين، وإنما هي آراء ومذاهب لبعض الذين سبقوا طبقوها على زمانهم بقدر ما وصل اجتهادهم إليه من الفهم والاستنتاج».

«فمن هذه الأحكام ما هو غير صالح الآن، لأن أصحابه لم يروه لعصرنا، وإنما رأوه لذلك الزمان».

«ومنها ما هو غير صالح من قبل، لأن أصحابه فهموه واستنتجوه من أحاديث لم تصح وظنوها صحيحة. أو لأنهم أخطأوا في فهم المراد من الآيات، أو في التطبيق على الحوادث. فالخطأ في الأحكام سببه بطلان الدليل، أو بطلان الفهم أو التطبيق».

«وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التي تروى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم فيها أحكام كانت خاصة بزمنها ومكانها، فلما نقلت فهم بعض الناس في مختلف العصور أنها يعمل بها، ولم يفهموا أنها مؤقتة، وأنها من سنة الرسول في التطبيق الذي قد تنسخه الحوادث، ويتغير بتغير الظروف والأحوال، وليست من الأمور التعبدية الدائمة التي أمر الله الناس أن يتقيدوا بها في كل زمان».

---

(١) الزواج والطلاق المدني في القرآن ص ١، ٣.

«ولقد[١] كان تقليد الناس بعضهم بعضا سببا كبيرا في الضلال والحيرة. فقد يفهم أحد الفقهاء فهما، ويكون خطأ، فيقلده الناس، ويصير هذا الفهم دينا تمشي عليه التقاليد وتؤلف فيه الكتب. وإنك لتجد كثيرا من المسائل التي اشتهرت وأجمع الناس عليها بالتقليد لا أصل لها في الدين إلا رواية ملفقة، أو حديثا مكذوبا. وكثيرا ما اندست روايات وأحاديث في تفسير القرآن، وتحكمت فيه بحسن نية المفسرين حتى صارت قاعدة يطبقون القرآن عليها. فما وافقها منه أخذوه، وما عارضها أولوه أو نسخوه».

فالمسلمون في هذا العصر قد انقسموا إلى فرقتين:

١- فرقة ترى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان. وكان ينتمي إلى هذه الفرقة كثيرون من المثقفين وبخاصة رجال القانون. قال علي أبو الفتوح: وكان من كبار رجال القانون في عصره، في مقدمة كتابه: «الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية».

«يظن كثير من الناس حتى من المسلمين أنفسهم أن المبادئ المقررة في الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذي بلغ فيه الإنسان من التمدن والترقي درجة رفيعة، ويتوهمون أن الأحكام والروابط الموجودة في القنوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها في الأصول الإسلامية، وإنما هي بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التي أنتجها فكر علماء الغرب، لم يسبقهم إليها أحد، ولكن الباحث في الفقه الإسلامي ولو قليلا لا يلبث أن يغير هذا الظن ويتحقق أن أسلافنا وصلوا في الرفاهية وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأوا قلما يجاريهم فيه أحد».

٢- وفرقة كانت ترى أن الأحكام الفقهية كما وصلت إلينا لا تصلح في كثير منها لهذا العصر؛ وكان على رأس هذه الفرقة محمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد أبو زيد وغيرهم ممن نادوا بفتح باب الاجتهاد، وقالوا بعدم الاقتصار على المذاهب

([١]) الزواج والطلاق المدني في القرآن ص ٢٨.

الأربعة المعتمدة عند أهل السنة، وعدم التقيد بالإجماع الذي لم يتحقق ثبوته في أي عصر من العصور.

قال عبد المتعال الصعيدي[١] «ولهذا أرى الاستغناء عنه بالكتاب والسنة، وهذا يحل لنا مشكلة كبيرة فيما نقصد من الجمع بين جميع الفرق عند فتح باب الاجتهاد، لنحصل على فقه يتعاون فيه اجتهادهم جميعا، ولا تنفرد به فرقة دون غيرها من فرق المسلمين؛ لأنا إذا أبقينا الإحتجاج بالإجماع رأينا أنفسنا أمام إجماع لأهل السنة، وإجماع للشيعة، وإجماع لغيرهم من الفرق المختلفة. ولا شك أن ذلك الإجماع المتعدد لا يمكن أن يتفق دائما. وهنا يصعب علينا أن نرجّح إجماعا على إجماع».

وقد كانت حركة تحرير المرأة التي قام قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) [من تلاميذ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده (المنجد)] أول حركة تثير جدالا ونقاشا شديدا بين المسلمين الذين انقسموا بصدد هذا الموضوع إلى فريقين:

١- الفريق الأول: أنصار الحجاب، وهؤلاء كانوا يرون في دعوة قاسم أمين كفرا صريحا، وخروجا على أحكام الدين الحنيف، وعاملا على نشر الفوضى الخلقية.

٢- والفريق الثاني كان يرى أن الدين الإسلامي لم يفرض الحجاب على النساء. وأولوا الآيات القرآنية التي نزلت في الحجاب على أنها خاصة بنساء النبي عليه الصلاة والسلام. قال قاسم أمين: في قوله تعالى (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ** * الأحزاب: ٣١ - ٣٢).

«ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من أي مذهب كانت، ولا في كتب التفاسير في أن هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلّى الله عليه وسلّم. أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب، وبين لنا سبب هذا الحكم؛ وهو أنهن لسن كأحد من النساء».

---

(١) في ميدان الاجتهاد ص ٢٤

«ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ وكانت أسباب التتريل خاصة بهن؛ لا تنطبق على غيرهن. فهذا الحجاب ليس بفرض ولا واجب على أحد من نساء المسلمين».

«إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية في جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد، أو للتعلق بالجديد لأنه جديد، وإنما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعي مدخلا عظيما في حياتها المعاشية».

«ولسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته. وإنما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة، أو ما به قوام حياتنا».

وقد استمرت هذه المعركة أكثر من ربع قرن. وألفت فيها الكتب الكثيرة، وحررت المقالات الطويلة، ونظمت القصائد الرائعة.

وقد اعتنق المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها آراء قاسم أمين في تحرير المرأة، بل زادوا على ما نادى به كثيرا فمنحوها حق المشاركة في الحياة السياسية فأصبحت عضوا في المجالس النيابية. إلا أن المسلمين ما زالوا مختلفين في أمر اختلاط الجنسين. فهناك من يمنع هذا الاختلاط منعا باتا، وهناك من يحدده، وهناك من ينادي به وينتصر له. ومن أمثلة المناقشات التي دارت بهذا الصدد ما كتبه إسماعيل مظهر في مجلته «العصور» عدد سبتمبر سنة ١٩٢٨ ناقدا كتاب «المرأة في الإسلام».

«...ويسائلك - أي مؤلف الكتاب - إذا كنت تخلو بامرأة، وبالطبع يقصد الجميلة؛ لا البشعة المنظر؛ في حديقة يحوط بكما الورد والنرجس، ماذا تحدثك به نفسك مهما كنت تقيا ورعا».

«ويظهر أن حضرته قد أغفل عمدا ذكر صفة الجمال، لأنه يعلم تمام العلم بأنه ليس من لزوميات النساء وحدهن، بل يوجد في الذكور من يتصف بهذه الصفة. فهل يسمح لي أن أسائله: ما الذي تحدثك به نفسك مهما كنت ورعا تقيا إذا

وجدت في ذلك المكان مع صديق جميل المنظر؟ بالطبع سيقيم الدنيا علي ويقعدها، ويصفني بأحطّ الأوصاف. ولكن هذا هو الواقع يا صديقي إذا أردتني أن أنسج على منوالك، وأتناسى وجود شيء اسمه الشرف والترفع، فإذا لم يوجدا؛ فلم لم تحصر الحجاب في الجميل من الجنسين؟ وهل تنكر يا سيدي أن عادة قوم لوط أكثر انتشارا في بلاد الحجاب من أي مكان آخر؟».

وقال عمر عنايت في ١٤٩ من العدد المذكور:

«الاختلاط ضروري للجنسين. فإذا تشبثتم بفكرة الفتنة وبفكرة ضعف المرأة؛ فهلا حاولتم حجب وجه الرجل دونها، لأنها أكثر منه تعرضا للفتنة؟ بل هلا حاولتم بالأقل الحجر على من هو جميل من الرجال؟ لأن الجمال هو الداعي الأكبر للافتتان، وليس مجرد الأنوثة، أريد أن أسر إليكم يا أنصار الحجاب الأتقياء بما هو معلوم لديكم وهو: أينما وجد التحجب انتشر اللواط».

هذه أمثلة مما كتبه أنصار الاختلاط بين الجنسين تأييدا لرأيهم. ويمكننا أن نقول إنّ اجتماع الرجل بالمرأة يأتي بثمرة، فلمن تنسب هذه الثمرة؟ ونحن ما زلنا نتمسك بالزواج من البنت البكر، وما زلنا نتحرى عن سمعة الفتاة قبل أن نتزوج بها، في حين أن أهل الفتاة لا يتحرون عن سمعة الشباب من الناحية الجنسية. ثم إن اللواط موجود بكثرة في أوربا وأمريكا، فبم نعلل ذلك؟ وهذه البلاد لا تعرف الحجاب. انظر إلى ما نشرته صحيفة الجمهورية في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان «الشذوذ الجنسي عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية» وهو: «وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التي كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسي الذي يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعا لا يعاقب عليه القانون. وكان كبير أساقفة كانتبرى «جوفر فيشر» هو الذي قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التي تمت الموافقة عليها في مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتا ضد ١٣٨».

وعلى كل حال فإن المسلمين اضطرهم ظروف الحياة، وبخاصة في المدن الكبرى؛ إلى التساهل فيما يتعلق بالزنا. وذلك لأن الشباب المسلم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز العشرين أو الخامسة والعشرين. وإذا وجد عملا فإن دخله لا يمكنه من الزواج إلا بعد أن يتجاوز الثلاثين. وعوامل الإغراء أمامه كثيرة، في الشارع، وفي السيارات العامة، وفي دور اللهو، وفي القصص والروايات والصور، وفي المعاهد والجامعات.

وأصبحت الفتاة المسلمة لا تجد غضاضة في أن تظهر مفاتنها وتكشف عن صدرها وظهرها، وتدهن بالمساحيق خديها وشفتيها. وتظهر على الشواطئ بملابس البحر. فالواقع أن الوازع الديني من هذه الناحية إن لم يكن انعدم تماما، فهو في طريق الانعدام.

واختلف المسلمون: هل يقيدون الزواج بواحدة؟ أم يتركون الناس على ما أباحه لهم الدين؟

وقد ظهر الرأى القائل بالتقييد فيما كتبه قاسم أمين ومن جاء على أثره من المفكرين. وكان من المسلمين من يرى في هذه الدعوة كفرا. وقد كتبت صحيفة المؤيد في ١٤ مارس سنة ١٩١٤ تحت عنوان «رد نزعة إلحادية» مقالا جاء فيه: «نشر الدكتور عبده البرقوقي مقالة في تعدد الزوجات افترى فيها على الدين ما شاء».

«لقد صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله (**تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، أَعْظَمُهَا فِتْنَةً عَلَى أُمَّتِي قَوْمٌ يَقِيْسُوْنَ الأُمُوْرَ بِرَأْيِهِم، فَيُحِلُّوْنَ الحَرَامَ، وَيُحَرِّمُوْنَ الحَلاَلَ**).

«فإن هذه الفرقة ظهرت على الناس في أوائل هذا القرن، ولكن لم يظهر تأثيرها إلا قريبا. وقد أفسدت على الناس دينهم بآرائها القائلة، وأباطيلها الغرارة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. بل هذه حملة مدبرة ضد الإسلام والمسلمين أقامها هؤلاء الفلاسفة ليقوضوا أركان هذا الدين الكريم».

إلا أننا نرى أحد علماء الأزهر، وهو الشيخ محمد أبو زيد يقول: «إن

الزواج[١] بواحدة هو الأصل في الفطرة، لأن فيه تبادل الحب بين الزوجين، وحصر أفكارهما في إصلاح أولادهما، وتعاونهما على المشاركة في الحياة».

«وأما تعدد الزوجات فمفرق للحب، وموجد للتراع بين الزوجات والأولاد، ومقلق لبال الرجل، وباعث على إفساد نظام الأسرة. وأن الله الذي يشرع الأحكام لتنظيم الفطرة يعلم أن المرأة لا تقل عن الرجل غيرة على الزوج وحبا في الانفراد به».

وقد انتصر الرأي القائل بعدم التقييد، وخاصة بعد أن اتضح إخفاق التجربة التي حدثت في عصرنا إذ اتضح للحكومة الملحدين أن تقييد الزواج بواحدة، أدى إلى انتشار زيجات سرية، كما أدى إلى اختلاط غير شرعي بين الجنسين.

واختلفوا كذلك في جواز ترجمة القرآن. فقال بعضهم: إن القرآن متى ترجم تكون ترجمته تبديلا لكلمات الله، وقد نهى الله عن ذلك. قال الشيخ حسنين مخلوف:[٢]

«...ومن أسوء هذه الأعمال، وأكثرها شرا، وأعظمها ضررا، وأشدها اجتراء على كتاب الله ترجمته ترجمة حرفية، فإنها ضرب من التحريف والتغيير والتبديل فيما تولى الله ورسوله حفظه، وأمرنا بالمحافظة عليه».

وهو يرى أن ترجمة التفسير جائزة بشرط أن يكون التفسير صحيحا. إلا أن الملحدين قاموا بترجمته، وهم يتلونه بلغتهم.

أما تسجيل القرآن على اسطوانات الحاكي، فقد تعرض لها الشيخ مخلوف فقال:

«وأي استهانة بكلام الله القديم، واستخفاف بشأنه أبشع من نقل ألفاظه الشريفة، وآياته المقدسة بآلات لا تدار إلا للطرب بالأناشيد الغرامية، والمداعبات الفكاهية، واللهو بالهجر من القول؟!».

ولما أقيمت دار الإذاعة كرر بعضهم هذه الأقوال، وزاد عليها أن المذياع يوضع في المقاهي، وفي الخمارات، وبيوت الدعارة وفي هذه الأحوال يتعرض كلام

---

(١) الزواج والطلاق المدني في القرآن ص ٢١.

(٢) رسالة في حكم ترجمة القرآن طبع مصر سنة ١٩٢٥.

الله لضروب من الاستهزاء والسخرية.

وفيما يتعلق بالنحت والتصوير وإقامة التماثيل فقد أجازها المسلمون وبخاصة في هذه الأيام، وقالوا إن الأغراض التي دعت إلى تحريمها قد انتفت، ولا خوف منها على العقيدة.

الإمامة

من المعروف أن المسلمين أجمعين قد اتفقوا فيما مضى على أن الإمامة واجبة شرعا وأن أمور الدين لا تستقيم إلا بوجود الإمام، ولم يشذ عن هذا إلا الخوارج.

وفي سنة ١٩٢٤ م. ألغت حكومة الجديدة الخلافة الإسلامية؛ وقد أصدر المجلس الوطني الجديد رسالة شرح فيها وجهة نظره في إلغاء الخلافة. إلا أن الرأي العام في العالم الإسلامي لم يقابل هذا العمل بالارتياح. وأخذ بعض مفكري المسلمين يتبادلون الآراء لإقامة خلافة إسلامية.

أما الرسالة التي أصدرها المجلس الوطني الإلحادي بعنوان: «الإسلام وسلطة الأمة»، فقد ترجمت إلى اللغة العربية وطبعت بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٤.

وفي سنة ١٩٢٥ أصدر علي عبد الرازق، وكان قاضيا بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية كتابه «الإسلام ونظام الحكم» وبين الاسمين تشابه كما ترى.

وقد جاء في كتاب «الإسلام وسلطة الأمة» ص ٥ ما نصه:

«إن هذه المسألة - الخلافة - دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية، وإنها من مصلحة الأمة نفسها مباشرة، ولم يرد بيان صريح في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية في كيفية نصب الخليفة وتعيينه، وشروط الخلافة ما هي...»

وقال علي عبد الرازق في ص ١٦ ما نصه: «إنه لعجب عجيب أن تأخذ بيديك كتاب الله الكريم، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس، فترى فيه تصريف كل مثل، وتفصيل كل شيء من أمر هذا الدين (**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** * الأنعام: ٣٨) ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الإمامة، أو الخلافة. إن في ذلك لمجالا

للمقال! ليس القرآن وحده الذي أهمل تلك الخلافة، ولم يتصد لها، بل السنة كالقرآن أيضا، قد تركتها ولم تتعرض لها».

وفي رسالة المجلس الوطني الإلحادي ص ٤ ما نصه: «إن الفرقة المسماة بالخارجية تنكر وجوب الخلافة، وتقول إن أمر نصب الخليفة وتعيينه، ليس واجبا على الأمة الإسلامية، بل هو جائز، ووجوده وعدم وجوده سيان».

ويقول علي عبد الرازق في ص ٣٣ ما نصه: «...فكيف وقد قالت الخوارج لا يجب نصب الإمام أصلا، وكذلك قال الأصم من المعتزلة، وقال غيرهم أيضا كما سبقت الإشارة إليه. وحسبنا في هذا المقام نقضا لدعوى الإجماع أن يثبت عندنا خلاف الأصم والخوارج وغيرهم، وإن قال ابن خلدون: إنهم شواذ».

وهكذا ردد علي عبد الرازق في كتابه ما جاء في رسالة المجلس الوطني الإلحادي، وزاد عليها شيئا من فساد الفهم، وسوء الأدب في حق النبي صلّى الله عليه وسلّم وحق كبار الصحابة.

وقد قابلت الدوائر الاستعمارية والمراكز التبشيرية المسيحية كتاب علي عبد الرازق بالترجيح والتصفيق، وذلك لخشيتها من كل فكرة ترمى تكتل العالم الإسلامي، وارتياحها إلى نشر مثل هذه الآراء الخبيثة التي ضمنها علي عبد الرازق كتابه، تلك الآراء التي تخدم أهداف الاستعمار وتحقق آماله في السيطرة على الشعوب الإسلامية، وإذلالها إلى الأبد. وقد كشف المؤلف عن نفسه الخبيثة في حديثه مع مراسل صحيفة «البورص إجبسيان» حينما سأله هذا المراسل:

- هل يمكن أن نعتبرك زعيما لمدرسة؟

فأجاب: «لست أعرف ماذا تعني بزعيم مدرسة. فإن كنت تريد بهذا أن لي أنصارا؛ يسرني أن أصرح لك أن الكثيرين يرون رأيي، لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي بأسره. وقد وصلتني رسائل التأييد من جميع أقطار العالم التي نفذ إليها الإسلام. ولا ريب أني رغم الحكم، لا أزال مستمرا في آرائي وفي نشرها، لأن

الحكم لا يعدل طريقة تفكيري».

«وسأسعى إلى ذلك بكل الوسائل الممكنة كتأليف كتب جديدة، ومقالات في الصحف، ومحاضرات وأحاديث».

والآراء التي أراد علي عبد الرازق أن ينشرها بين المسلمين، ويؤلف فيها الكتب تتلخص في الطعن في حكومة النبي صلّى الله عليه وسلّم، واتهام كبار الصحابة بأشنع التهم. ولم يكن من بين هذه الآراء الحض على مكافحة الاستعمار، والجهاد في سبيل الاستقلال والحرية، ولا عجب في ذلك، فبيت عبد الرازق كان في ذلك الوقت من البيوت العريقة في خدمة الاستعمار، فقد أنشأ **حسن عبد الرازق** حزب الأمة سنة ١٩٠٨ لمحاربة الحركة الوطنية. وبعد سنة ١٩١٩ م. انضم آل عبد الرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يعمل مع الإنجليز.

وقد انعقدت هيئة كبار العلماء برياسة المرحوم محمد أبي الفضل الجيزاوي، شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤ هـ. (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥) وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالما. ولما مثل علي عبد الرازق أمام الهيئة حياها بقوله «السلام عليكم» فلم يرد عليه أحد. وبعد مناقشة طويلة، أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم، وإخراجه من زمرة العلماء.

ويترتب على الحكم المذكور: محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى، وطرده من كل وظيفة، وقطع مرتباته في أي جهة كانت وعدم أهليته القيام بأية وظيفة عمومية، دينية كانت أو غير دينية.

أما حيثيات الحكم، فنوجزها فيما يلي:

١- أن الشيخ عليا جعل الشريعة الإسلامية، شريعة روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.

وقد ردت الهيئة على هذا الزعم الباطل بأن الدين الإسلامي هو إجماع المسلمين على ما جاء به النبي صلّى الله عليه وسلّم، من عقائد، وعبادات، ومعاملات لإصلاح

أمور الدنيا والآخرة، وأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة في أمور الدنيا، وأحكام كثيرة في أمور الآخرة.

وقالت الهيئة: وواضح من كلامه -المؤلف- أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة، جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط، وأن ما بين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به، وليس من مقاصدها.

وهل في استطاعة الشيخ أن يشطر الدين الإسلامي شطرين، ويلغي منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الكتاب العزيز، وسنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عرض الحائط؟!

٢- ومن حيث إنه زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلّى الله عليه وسلّم كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين.

فقد قال: «...وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين، ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله».

ثم قال: «...وإذا كان صلّى الله عليه وسلّم قد لجأ إلى القوة والرهبة، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين وإبلاغ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك».

على أنه لا يقف عند هذا الحد، بل كما جوز أن يكون الجهاد في سبيل الملك، ومن الشئون الملكية، جوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم، ونحو ذلك في سبيل الملك أيضا. وجعل كل ذلك على هذا، خارجا عن حدود رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم، لم ينْزل به وحي، ولم يأمر به الله تعالى.

والشيخ علي لا يمنع أن يصادم صريح آيات الكتاب العزيز، فضلا عن صريح الأحاديث المعروفة، ولا يمنع أن ينكر معلوما من الدين بالضرورة.

وذكرت الهيئة الآيات الواردة في الجهاد في سبيل الله، والآيات الخاصة بالزكاة، وتنظيم الصدقات، وتقسيم الغنائم، وهي كثيرة.

٣- ومن حيث إنه زعم أن نظام الحكم في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم كان موضع غموض، أو إبهام، أو اضطراب، أو نقص، وموجبا للحيرة.

وقد رضي لنفسه بعد ذلك مذهبا، هو قوله: «إنما كانت ولاية محمد صلّى الله عليه وسلّم على المؤمنين ولاية رسالة غير مشوبة بشيء من الحكم». وهذه هي الطريقة الخطيرة التي خرج إليها، وهي أنه جرد النبي صلّى الله عليه وسلّم من الحكم.

وما زعمه الشيخ علي مصادم لصريح القرآن الكريم. فقد قال الله تعالى (**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** * النساء: ١٠٥) ثم أوردت الهيئة آيات كثيرة تتضمن معنى الآية السابقة، وتنحو نحوها.

٤- ومن حيث إنه زعم أن مهمة النبي صلّى الله عليه وسلّم، كانت بلاغا للشريعة مجردا عن الحكم والتنفيذ، ولو صح هذا لكان رفضا لجميع آيات الأحكام الكثيرة الواردة في القرآن الكريم. ومخالفا أيضا لصريح السنة، ثم أوردت الهيئة كثيرا من الأحاديث التي تهدم مزاعم المؤلف، وختمت ذلك بقولها: «فهل يجوز أن يقال بعد ذلك في محمد صلّى الله عليه وسلّم، إن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان وإنه لم يكلف أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه؟».

٥- ومن حيث إنه أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لابد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا. وقال إنه يقف في ذلك في صف جماعة غير قليلة من أهل القبلة، يعني بعض الخوارج والأصم؛ وهو دفاع لا يبرئه من أنه خرج على الإجماع المتواتر عند المسلمين. وحسبه في بدعته أنه في صف الخوارج، لا في صف جماهير المسلمين.

٦- ومن حيث إنه أنكر أن القضاء وظيفة شرعية، وقال إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية، جعلوه متفرعا عن الخلافة، فمن أنكر الخلافة أنكر القضاء.

وكلامه غير صحيح، فالقضاء ثابت بالدين على كل تقدير، تمسكا بالأدلة

الشرعية التي لا يستطاع نقضها.

٧- ومن حيث إنه زعم أن حكومة أبي بكر، والخلفاء الراشدين من بعده رضي الله عنهم، كانت لادينية، وهذه جرأة لادينية، ودفاع الشيخ علي بأن الذي يقصده من أن زعامة أبي بكر لادينية، أنها لا تستند إلى وحي، ولا إلى رسالة، مضحك موقع في الأسف، فإن أحدا لا يتوهم أن أبا بكر رضي الله عنه، كان نبيا يوحى إليه، حتى يعني الشيخ علي بدفع هذا التوهم.

لقد بايع أبا بكر رضي الله عنه، جماهير الصحابة من أنصار ومهاجرين، على أنه القائم بأمر الدين في هذه الأمة بعد نبيها محمد صلّى الله عليه وسلّم.

وإن ما وصم به الشيخ علي أبا بكر رضي الله عنه، من أن حكومته لادينية، لم يقدم على مثله أحد من المسلمين! فالله حسبه، ولكن الذي يطعن في مقام النبوة، يسهل عليه كثيرا أن يطعن في مقام أبي بكر وإخوانه الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

هذه خلاصة الحيثيات التي بنت عليها هيئة كبار العلماء حكمها السالف الذكر، ولما كان الحكم قد صدر في شهر أغسطس، أي في وقت الصيف حيث كانت دار المندوب السامي خالية من كبار رجالها؛ لم يستطع هؤلاء أن يعملوا شيئا لإنقاذ الشيخ علي وبخاصة بعد صدور حكم هيئة كبار العلماء، وثورة الرأي العام ضد المؤلف فتخلوا عنه كما هي عادتهم في مثل هذه الظروف، وبذلك فصل من وظيفته، وقد كشفت صحيفة «ليفربول بوست» البريطانية عن هذه القبائح والمنكرات التي دبرها الاستعمار البريطاني، واتخذ علي عبد الرازق وسيلة لتنفيذها، تعاونه طغمة من حزب الأحرار الدستوريين. نشرت الصحيفة المذكورة في ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٥ مقالا جاء فيه: «...ولما عجز الأزهر عن حمل الحكومة على محاكمة الشيخ علي عبد الرازق؛ أصدر قرارا بفصله من زمرة العلماء، ولكن الرأي العام المصري لا يؤيد تحفز الأرثوذكسية الإسلامية للشجار، وقد بذلت مساع جدية

لإحباط خططها، وسنرى إذا كانت هذه الأرثوذكسية ستنجح في فصل رجال الدين العصريين عن غيرهم وربما هزت حادثة مصطفى كمال أدمغة المصريين وأحدث لغطا بينهم».

وبعد اثنين وعشرين عاما؛ غيرت هيئة كبار العلماء رأيها في الشيخ علي عبد الرازق؛ فبعد أن كان سنة ١٩٢٥ كافرا خارجا على الإسلام، منكرا لكثير مما ورد في القرآن والسنة، إذا هو في سنة ١٩٤٧ مؤمن يستحق العطف ويستوجب العفو انظر إلى ما نشرته صحيفة الأهرام في ٢٦-٢-١٩٤٧ تحت عنوان «العلماء يلوذون بالعرش في مسألة علي عبد الرازق بك» وهو:

«عند ما أصابت الأزهر تلك الصدمة التي نزلت فجأة في شيخه الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق؛ اتجهت نية كبار العلماء إلى تكريم ذكراه في شخص شقيقه الأستاذ علي عبد الرازق بك، وذلك بأن يلوذوا بالسدة الملكية ملتمسين عفوا ملكيا عن أثر القرار الذي اتخذته هيئة كبار العلماء من قبل، فما اختمرت هذه الفكرة حتى أخذت سبيلها إلى التنفيذ، وأعدت صيغة الالتماس الذي يرفع في هذا الشأن، وحمله إلى القصر العامر جماعة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر».

«ومما هو جدير بالذكر؛ أنه روعي في رفع هذا الالتماس أن تتقدم به الهيئتان العلمية والتنفيذية في الأزهر. تمثل الأولى: جماعة كبار العلماء، وتمثل الثانية: المجلس الأعلى للأزهر، وأن يكون الملاذ في ذلك؛ هو جلالة صاحب العرش، بعد أن تبين أن جماعة كبار العلماء لا تملك بوضعها الحالي أن تتخذ قرارا جديدا بإلغاء قرارها الأول في مسألة الأستاذ علي عبد الرازق بك؛ إذ أن مثل هذا القرار يجب أن يصدر بأغلبية ثلثي أعضائها، على أن يكون من بينهم شيخ الأزهر. وذلك يقضي قرارا من عشرين عضوا، على حين أن الأحياء من أعضاء الجماعة لا يبلغون هذا العدد».

هذا ما نشرته الصحف في ٢٦ -٢-١٩٤٧، ومنه نرى أن علماء الأزهر، بما فيهم هيئة كبار العلماء كانوا مدفوعين من تلقاء أنفسهم إلى طلب العفو عن علي

عبد الرازق، وأن هيئة كبار العلماء لم يتوفر فيها العدد القانوني الذي يمكنها من إلغاء قرارها الصادر في ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥، فلذلك لجأت إلى الملك. والحق أن هذا كله محض كذب وافتراء، فقد أراد الملك فاروق أن يعين علي عبد الرازق وزيرا للأوقاف، فأمر شيوخ الأزهر بأن يقوموا بهذه الحركة، فأطاعوا وتبرعوا بالكذب.

وفي يوم ٣ مارس سنة ١٩٤٧ نشرت الصحف مرسوما بتعيين علي عبد الرازق وزيرا للأوقاف.

والعجب أن يكون تكريم ذكرى مصطفى عبد الرازق على حساب الدين؛ هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى القرار الصادر سنة ١٩٢٥. وإلى الضجة الهائلة التي أحدثها علماء الأزهر حول الكتاب ومؤلفه.

وعلى كل حال فإن المؤتمرات التي عقدت للنظر في إقامة خلافة إسلامية قد باءت بالفشل، وذلك بفضل دسائس الاستعمار. والمسلمون من أهل السنة قد انصرفوا عن النظر في هذا الموضوع نهائيا. فيبدو أنهم اعتنقوا مذهب الخوارج في الإمامة.

تناول بعض الباحثين المسلمين القرآن الكريم والسيرة النبوية تناولا أدى بهم إلى الكفر الصريح على أن منهم من رجع عن آرائه وتبرأ منها وعاد إلى حظيرة الإسلام، والله أعلم بالسرائر.

وممن نحا هذا النحو:

١- منصور فهمي (١٨٨٦ – ١٩٥٩)

سافر منصور فهمي إلى فرنسا سنة ١٩٠٨ في بعثة على نفقة الجامعة المصرية، فوضع رسالة للحصول على درجة دكتوراه الدولة، موضوعها: «حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها».

La Condition de la femme dans la tradition et l’evolution de l’islamisme.

وقد جاء في ص ١٥ ما ترجمته:

«محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه» «ومع أنه – يعني محمدا – كان

المشرع الذي ينبغي أن يخضع لما يدعو إلى تطبيقه على الآخرين، إلا أنه كان له ضعفه، واختص نفسه ببعض المزايا».

وقال في الصفحة المتقدمة ما ترجمته:

«...وفي الساعة التي كان يعود فيها إلى شعوره كإنسان، كان ينبغي عليه أن يدرك أن من الصعب عليه أن يخضع للقوانين التي جاهر بها باسم الرب. ومع ذلك فإنه عزم باعتباره رسولا، أن يلزم بقوانينه الأمة التي يريد أن ينشئها، إلا أنه سرعان ما وجد حلا لتلك المشكلة، فاختص من حمل برسالة إلهية بميزات لا يحظى بها العاديون من الفانيين».

وقال في ص: ١٦ ما ترجمته:

«وهكذا نجد أنه - يعني محمدا - بعد أن ينام نوما عميقا، يقوم ليؤدي صلواته دون أن يجدد طهوره ووضوءه، على حين أن المؤمنين الآخرين، كان عليهم الشروع في وضوء وطهور جديد. ومن أجل أن يبرر الاستثناء الذي عمل لصالحه؛ اكتفى بأن قال: (**إن عيني تنام، ولا ينام قلبي أبدا**)».

وقال في ص ١٨ ما ترجمته:

«ولقد حد النبي من نظام تعدد الزوجات، إلا أنه تعدى بالنسبة إلى نفسه ما وضعه من حدود للآخرين. فمع أن بقية المؤمنين لم يكن في مقدورهم أن يتزوجوا بأكثر من أربع نساء، فإن محمدا أجاز لنفسه أن يتزوج بأكثر من ذلك. هذا كما أنه استلزم لشرعية الزواج: دفع مهر، ووجود شهود، إلا أنه في زواجه أعفى نفسه من المهر والشهود».

وهكذا مضى منصور فهمي في كتابه على هذه الوتيرة. ونشره في باريس سنة ١٩٠٣.

وقد كتب المرحوم «محمد لطفي جمعة» مقالا طويلا نشرته صحيفة المؤيد في ٢٨ يناير ١٩١٤ وفيه رد قوي على مزاعم منصور فهمي الذي اعتمد على

الأحاديث الموضوعة والضعيفة، ومع ذلك فلم يشأ أن يفهمها على وجه صحيح، بل فهمها على وجه خطأ، لأغراض قبيحة انطوت عليها نفسه الخبيثة.

وبين المرحوم محمد لطفي جمعة الحكمة في زواج النبي صلّى الله عليه وسلّم بأكثر من أربع، والظروف التي أحاطت بكل زواج، وما ترتب على ذلك من فوائد سياسية واجتماعية عززت مكانة الإسلام، ووطدت أركانه في شبه الجزيرة. وذكر أن حياة النبي عليه الصلاة والسلام، من يوم مولده إلى أن بعث وهو في الأربعين من عمره، كانت حياة طهر وعفاف، وصلاح واستقامة. ولو أنه كان شهوانيا مفرطا في حب النساء لاقتنى أكثر من امرأة، وبخاصة وأنه كان شابا، ولم توجد أمامه عقبة تحول بينه وبين التمتع بالنساء. أما وأنه قد تزوج بأكثر من امرأة، وهو بعد الأربعين، وبعد أن شغل بنشر الرسالة، وحمل أعباء الجهاد، فهذا لا يرجع إلى نزوات حيوانية، وإنما يرجع إلى ظروف خاصة، هي التي سبقت الإشارة إليها. واستشهد كاتب المقال بأقوال المنصفين من كتاب الغرب، وكلها في مدح النبي صلّى الله عليه وسلّم، والثناء عليه، والإشارة بطهره وعفافه، واستقامته ونزاهته.

على أن فترة الشك لم تطل عند منصور فهمي، فقد رجع إلى حظيرة الإسلام منذ سنة ١٩١٥، وله خطبة ألقاها في الاحتفال بعيد الهجرة سنة ١٣٦١ هـ. جاء فيها:

«...ذلك لأننا في هذا اليوم المحتفى بمقدمه؛ قد نتسمع في صميم وجداننا المرهف صوتا مدويا ينبعث من خلال هذه القرون الخالية، ليلقى في سمعنا أنشودة البطولة لمحمدية الرائعة، ويهز عواطفنا لمطلع دين جديد، إنساني سمح عظيم. ويذكرنا بروائع الجهاد البالغ، وحين حمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمانته، فحملها واثقا لكي يبلغها إلى الناس كاملة. ولكي تتشخص على الأرض نعمة الله، حين يضع للناس دستورا، ويرسم لحياتهم نظاما يؤمنهم من وساوس الشك، وينقذهم من تضليل الارتياب». وله خطب كثيرة ومقالات تدل على عمق إيمانه بالله، وعلى تمسكه بالدين الإسلامي.

٢- طه حسين

في سنة ١٩٢٦ م أصدر طه حسين كتابه: في الشعر الجاهلي. وقد جاء في ص ٢٦ ما نصه:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي».

ثم قال أيضا في الصفحة المذكورة:

«...فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة، إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية، ويبثون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين، وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من الملاينة، ونوع من المحالفة والمهادنة، فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد؛ منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، لاسيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئا من التشابه غير قليل، فأولئك وهؤلاء ساميون».

قال في ص ٢٧ ما نصه:

«وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح».

وقد استدعت النيابة العمومية المؤلف وحققت معه، وكان التحقيق منحصرا في النقط الآتية:

١- مسألة وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما، وأن هذه القصة

أسطورة مختلقة لأغراض دينية وسياسية.

٢- مسألة أن القراءات السبع للقرآن الكريم لم تنْزل، وأنّها وردت على لسان القبائل، كما هو ظاهر من لهجاتها.

٣- قوله إن الإسلام ليست له سابقة وجود في البلاد العربية.

٤- نفي إسناد نسب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى أشراف قريش.

وقد أجاب المؤلف في التحقيق بأنه يقرر صدق هجرة إسماعيل عليه السلام إلى مكة، يؤمن بقصة بناء الكعبة كما وردت في القرآن، ويؤمن بتنْزيل القراءات، بصفته مسلما معتقدا، ولكنه لا يقرها بصفته عالما أديبا، وقال إن عدم إقرارها هو الطريق الوحيد العلمي للوصول إلى حقائق الشعر الجاهلي وتاريخه. وأنه عند ما ألف كتابه قال صراحة: إنه لن يعرض للدين، وأنه سيقصر بحثه على العلم والاستدلال بالعلم.

وسأله المحقق عما إذا كان يعتقد أن القرآن وحده كاف لإثبات الوقائع التي وردت فيه فأجاب على ذلك مقسما الوقائع إلى قسمين:

١- الحوادث المعاصرة لنُزول القرآن، وهو صحيح.

٢- الحوادث التي حدثت قبل نزول القرآن. فهي عبارة عن قصص أراد الله بها إقناع عبيده وهدايتهم، وهي تنطبق على مسألة الهجرة وخلافها من المسائل.

فطه حسين يقرر أنه كمسلم مؤمن بالإسلام، يعتقد بصحة كل ما جاء في القرآن الكريم عن إبراهيم وإسماعيل، ولكنه كعالم وأديب لا يؤمن ولا يقر بشيء مما تقدم. فهو يعيش بعقلين في وقت واحد: عقلية المتدين المؤمن، وعقلية العالم الذي يكفر بما جاء به دينه.

وإن الآراء التي أوردها المؤلف عن القرآن الكريم مأخوذة من كتب المبشرين، وأعداء الإسلام من المستشرقين وبخاصة اليهود. وقد فندها كثيرون من الباحثين، ورد عليها كتاب مشهورون ردودا قوية مسهبة.

ولطه حسين مؤلفات دينية مثل: على هامش السيرة، ومرآة الإسلام.

٣- أمين الخولي

عين الشيخ أمين الخولي، وهو من خريجي مدرسة القضاء الشرعي؛ مدرسا بقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية، فرأى طه حسين يدعو إلى دراسة القرآن دراسة فنية عبر عنها بقوله[١]: «إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرؤوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني. فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم، ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة، فلا يغض منها، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد. وبعبارة أوضح: لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضع للبحث الفني والعلمي، بقطع النظر عن مكانتها الدينية؟!.»

فاعتنق أمين الخولي هذه الآراء، وراح يروج لها، ويدعو إليها. وقد كان يدرس مادتي التفسير والبلاغة، وظل أمره مستورا إلى سنة ١٩٤٧، لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقنه أمين لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال.

ففي هذه السنة -١٩٤٧- تقدم أحد الطلبة برسالة موضوعها: «الفن القصصي في القرآن الكريم» للحصول على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية، وكان أمين هو المشرف على هذه الرسالة، والموجه للطالب فيما كتب. وقد رفضت الرسالة، فرفع الطالب الأمر إلى وزير المعارف الذي أحال الرسالة إلى الشيخ محمود شلتوت، عضو جماعة كبار العلماء؛ للنظر فيها وإبداء الرأي.

فكتب فضيلته تقريرا جاء فيه:

يذكر المؤلف أن الذي دفعه إلى هذا البحث ما رآه من:

١- أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار، يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخي الذي يعلمون، وأنها تدل على جهل محمد بالتاريخ.

٢- وأن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبي صلّى الله عليه وسلّم

---

(١) في الصيف لطه حسين.

قد استقبلوا كل ما ذكر في القرآن على أنه تعبيرات جادة؛ يراد بها معانيها فيما جاءت به. وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التي لم يكونوا يعرفونها، فقالوا إن أخبار الأولين آية صدق النبي، ودليل على إعجاز القرآن.

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين، وأولئك المستشرقين في حكم واحد، إذ يقول:

«وليس من شك عندي في أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء، وصدق كل ما فيها من تاريخ، أو من أنكرها وادعى أنها أخطاء تاريخية، أو قصص ملفقة، جهل أولئك وهؤلاء، أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات».

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلا آخر في فهم القرآن، سماه «الفن القصصي» ورأيه في ذلك يتلخص في أن القصص القرآني نمط من أنماط القصة الفنية التي لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحري الواقع، وإنما يعطي نفسه من الحرية ما يغير به ويبدل، ويزيد ويخترع.

ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها، ولكنه يطرد هذا الشأن في كل ما قصه القرآن، سواء في ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم، وما جاء عن غيرهم، فيذكر قصة آدم وإبليس، وقصة الخليقة والملائكة، وقصة كلام عيسى في المهد، ونجاته من اليهود، وأنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، وقصة موسى والعبد الصالح، وقصة أهل الكهف، وقصة سليمان والهدهد، وقصة ناقة صالح، إلى غير ذلك.

ثم لا يقف عند القصص القرآني، بل يطرد هذا الحكم، أيضا على غيره مما جاء في الكتاب الكريم من أوصاف، ونسب ماضية كانت أو مستقبلة. فيذكر سؤال الله لعيسى يوم القيامة (**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ** * المائدة: ١١٦) ويذكر مثل قوله تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** * البقرة: ٦) يذكر ذلك وأمثاله في مجال ما يقرره من أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلي، أو لا تلتئم، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق. وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء

ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة، أو مشايعة الواقع النفسي الذي كان سائدا عند المعاصرين، استغلالا لمعلوماتهم، وإن لم تكن صحيحة؛ في سبيل تأييد الدعوة التي جاء بها.

وقد زعم أن هذا تأويل للآيات، وخاصة آيات القصص التي هي عنده من المتشابه، يجري فيها مذهب السلف، ومذهب الخلف من التسليم، أو التأويل.

ويستند إلى ما عرف عن العرب من التمثيل، وما جاء في بعض تمثيلات القرآن وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذي لا ينظر إلى الواقع، وإنما يجري الكلام فيه على ما ألفه العرب في هذا الباب، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا، إيحاء أو تصريحا، وقد ذكر منهم الإمام الرازي، والإمام محمد عبده.

هذه خلاصة فكرته، وأهم عناصرها وعواملها.

ولا ريب أن هذه الأسس التي بنى عليها الكاتب بحثه، أسس فاسدة. فما كان القرآن ليخضع فيما قصه من الأنبياء لما زعموه من تاريخ يناقض أو يخالف ما جاء فيه فإن حال التاريخ قبل الإسلام، كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده نفسه: «كانت مشتبهة الأعلام، حالكة الظلام. فلا رواية يوثق بها ولا تواتر يعتد به بالأولى». يقول هذا الشيخ محمد عبده في نسبة قصص القرآن إلى التاريخ، ومقارنتها به، وقد قال في هذا الصدد قبل ذلك: «يظن كثير من الناس الآن، كما ظن كثير من قبلهم، أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق، أو كتب التاريخ. ثم يقول في هذا الشأن نفسه. وإذا ورد في كتب أهل الملل، أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح، هو الحق وخبره الصادق، وما خالفه هو الباطل وناقله مخطئ أو كاذب، فلا نعده شبهة على القرآن، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه».

وقد ذكر الأستاذ الإمام هذا المبدأ الذي لا يعرف مؤمن سواه في كثير من

مواضع التفسير. وإذن فلا قيام لشبهة يوردها المستشرقون على قصص القرآن وتاريخه، كما لا قيمة لما يوردونه على تشريع القرآن وعقائده. فالقرآن مهيمن على كل ما سواه من تاريخ وكتب سماوية.

وهو مصدق لها فيما لم يحرف، ومبين لما كانوا يخفون ويحرفون (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ** * المائدة: ١٥) (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** * النمل: ٧٦) (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** * المائدة: ٤٨).

تلك عقيدة المؤمنين. وما كان القرآن، وقد قامت الأدلة على أنه من عند الله، بالذي يتحاكم في قضاياه إلى تلك الجهالات التاريخية، لاسيما في حقبة اشتبهت أعلامها، واشتد ظلامها كما يقول الشيخ محمد عبده. أو بالذي تضره مثل هذه الدعاوي التي ألفها الإسلام من خصومه منذ عهده الأول إلى يومنا هذا.

ولننظر بعد هذا فيما رمى به المسلمين منذ العهد الأول، عهد المعاصرة للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وعهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، ومن إليهم من أصحاب النبي، وأهل اللسان العربي، وقد سمعوا من رسول الله، وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم، وفهموا معانيه التي يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية، وقد طبعوا عليها، ورضعوا لبانها. واستمر هذا هو الشأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربعة عشر قرنا.

ننظر فيما رمى هؤلاء جميعا به من جهل أو تجاهل، أو تأثر بما يخالف الواقع أوقعهم في فهم القرآن على غير وجهه الذي فطن إليه الأستاذ وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات. وختم الشيخ شلتوت تقريره قائلا:

وإن القرآن؛ إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط، فقد اقتحمت قدسيته، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد، وتشريع، وأخبار، وأحوال مستقبلة كالبعث، والحشر، والحساب،

والجنة والنار، ونحو ذلك. وانفتح لكل إنسان أن يقول في كل هذا: ليس له مدلول، ولا واقع يدل عليه، ولكنه سيق لمجرد بعث الرغبة، أو الرهبة، أو العظمة، أو تقويم النفوس، وإصلاح المجتمعات (**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** * النور: ١٦) (**إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** * الأعراف: ١٥٥) ذلك هو الرأي في هذه الرسالة، وفيما تجرأ به مؤلفها على كتاب الله. وإنها لشر مستطير، من شأنه أن يفتح أبوابا من الفتن إذا مكن لها، اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن فكانت هي الخالقة.

وقد وقعت رسالة الطالب في يد بعض علماء الأزهر، فأفتوا بكفره، وبكفر أستاذه الذي أشرف على تحضيرها ووافق عليها.

الحركات الإلحادية بين المسلمين المعاصرين

منذ قامت حكومة جديدة الإلحادية عملت على تشجيع الحركات الإلحادية أدبيا وماديا. فألقت هناك كتبا كثيرة تهدف إلى التشكيك في حقائق الأديان كلها، والدعوة إلى تركها. وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة «إسماعيل أحمد أدهم» الذي جاء إلى مصر وحاول نشر الأفكار الإلحادية بين أهلها. وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها: «لماذا أنا ملحد؟» وطبعها في مطبعة التعاون بالإسكندرية ومما جاء فيها: «أسست جماعة نشر الإلحاد الجديد وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منها: ماهية الدين، قصة تطور الدين ونشأته، العقائد، قصة تطور فكرة الله، فكرة الخلود».

«وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية، وكان نتيجة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى: «المجمع الشرقي لنشر الإلحاد» وكان صديقي البحاثة إسماعيل مظهر في ذلك الوقت -١٩٢٨- يصدر مجلة «العصور» في مصر، وكانت تمثل حركة معتدلة في نشر حرية الفكر والتفكير، والدعوة للإلحاد».

وقد عرف الإلحاد بقوله: «الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم». إلا أن الدعوة الإلحادية بين المسلمين في

مصر يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٢٤ حينما قام محمود عزمي، وكتب في صحيفة الأهرام داعيا إلى ترك الأديان لأنها قيود تعوق عن التقدم والرقي.

وقد جعل إسماعيل مظهر مجلته، «العصور» منبرا لنشر الأفكار الإلحادية وترويجها. والطعن على العرب والعروبة طعنا قبيحا، واتهام العقلية العربية بصفة خاصة، والعقلية الآسيوية بصفة عامة بالتخلف والجمود والانحطاط. كما سخرها ويا للعار، في خدمة المطامع الصهيونية، والإشادة بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم. وأخيرا سخرها في خدمة التعاليم الشيوعية والآراء الفوضوية التي ينجم عنها التحلل من قواعد السلوك والتجرد من الفضائل المتفق عليها.

وقد حدث أن ظهر في البلدة كتاب عنوانه (القوم الجديد) للكاتب «قابيل آدم» وفيه مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي. كما تضمن اتهام العقلية الآسيوية بما هي منه بريئة كل البراءة. فلخص إسماعيل مظهر هذا الكتاب في مجلته، وقدم له بكلمة طويلة جاء فيها:

«من وراء الانقلابات التاريخية والثورات الاجتماعية تكمن البواعث النفسية والانفعالات والمعتقدات، وفلسفة الحياة التي تقسر الجماعات على أن تهدم ما هو قائم لتشيد عليه بناء من لبنات تربط بينها الأفكار والمنازع العقلية والنفسية التي تكون قد استحدثت على مر الأيام. وليس في التاريخ الحديث كله من انقلاب هو أشبه بالطفرة منه بأي شيء آخر كالانقلاب الإلحاد الحديث. وهو ككل انقلاب أو ثورة فجائية تكمن وراءه بواعث نفسية ومعتقدات وانفعالات تكون لدى الواقع في مجموعها فلسفة توجه الفكرات والآراء إلى وجهة في الحياة لا يظهر منها إلا نتائجها التي تتجلى في المعاهد التعليمية والنظامات السياسية والاجتماعية.

«بهذا يؤمن كل من درس حوادث التاريخ مطبقة على علوم الاجتماع الحديثة. فإذا كان هذا هو الواقع، وإذا اعتقدنا بأن وراء الظواهر الملموسة في الانقلاب الإلحادي الحديث قد كمنت فلسفة ساقت إليه؛ كان الوقوف على حقيقة هذه

الفلسفة أمر ضروري للحكم على قيمة هذا الانقلاب، ومقدار ثباته وقوته، ومقدار تأثيره في الإدراك العام، أو كما يدعونه اصطلاحا: العقلية العامة التي تتكون من مجموع الأغراض التي يرمي إليها زعماء الانقلاب».

إلى أن قال: «وضع هذا الكتاب - أي كتاب القوم الجديد مؤلف من الظاهر أنه أحاط كثيرا بتاريخ تطور الفكر الإنساني، وعلى الأخص بتاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم في العصور الوسطى. ولقد طبق المبادئ التي استخلصتها العقلية الأوربية من طريق جهادها الطويل إزاء اللاهوت على الحالة الواقعة في الشرق أحسن تطبيق، وعرف كيف يظهر آراءه وأفكاره في قالب جلي واضح، ونجح كل نجاح في إظهار الفرق بين العقلية الآسيوية كما سماها، وبين العقلية الأوربية، وقضى بأن العقلية الأوربية ارتقائية في حين أن العقلية الآسيوية رجعية جامدة».

أما الآراء التي أوردها المؤلف الملحد في كتابه، والتي وصفها إسماعيل مظهر بالأصالة والصحة فنذكر منها:

«...وما من سبب لذلك التنابذ الشديد الذي قام بين فريقي الأمة الجديدة إلا وجود هذه العقلية -أي العقلية الأوربية- في ناحية، حيث تقوم في ناحية أخرى العقلية الدينية العربية».

«لم تسلم الأمم الآسيوية يوما ما من الفقر والتعاسة، وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت أن تستقرئ أحكامها المعاشية كلها من تشريعها الديني المقدس. ولن تقف على طابع آخر غير هذا إذا ما قلبت تاريخ مصر، والهند، وفارس واليابان القديمة، والصين، وطوران، وبلاد العرب. فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلاطينها، أو لغيرهم من مقدمي الانتهازيين صفات قدسية حينا، أو سلطة إيحائية حينا آخر. وكان من نتائج هذه العقلية إن ترددت الأمم الآسيوية في هذه التعاسة والشقاء».

«...والحالة جلية واضحة. فلست تجد في أوربا مثقفا أو غير مثقف يمضي في أعماله متواكلا على سلطة الوحي. أما في آسيا فإنك لا تجد شيئا اللهم إلا الأنبياء

والقديسين، والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة، تجد الأوامر والنواهي القدسية متغلغلة في تضاعيف العديد الأوفر من الشؤون الخاصة الصرفة للناس، متحكمة في كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والإدارية. ولديهم أن هذه الأوامر والنواهي هي أوامر الله ونواهيه، وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها»

«فإذا تبدل الزمان وتكيف، وجمدت هذه الأوامر والنواهي مقصرة عن اللحاق بروح العصر نشوءا وارتقاء؛ لا تجد من شيء اللهم إلا نبيا آخر مرسلا بتعاليم جديدة. ولا مرية في أن تتابع ظهور الأنبياء في آسيا طابع خاص بها، لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض».

«على أن أعجب ما ترى في كل هذا أن كل نبي من هؤلاء الأنبياء قد نصح للناس وأهاب بهم أن ينكروا حقيقة هذه الحياة بكل ما فيها، وأن يتلظوا حرقة إلى الحياة الآخرة. وفي هذا ينحصر كل ما يقصد بوذا من النرڤانا، وكل ما يقصد الإسلام من الفردوس. وهذه العقلية قتلت في الشرق فكرة النقد، كما غشت على العقول والأفهام بأغشيتها الثقيلة».

«بيد أن هؤلاء الأنبياء الذين حكموا الدول، وساسوا الممالك؛ لم يقنعوا بأن يفرضوا على الناس أوامر الدين ونواهيه، بل صبغوهم بأخلاقهم. ودهنوهم بطلائهم. فإن الإسلام مثلا قد صبغ المسلمين، فضلا عن الدين، بصبغة الحياة العربية الاجتماعية في كل مكان وآن: واضطر الناس على أن يقبلوا مذعنين، لا الله ولا الدين وحدهما، بل حياة العرب العائلية والاجتماعية، والخلق العربي، والعادات العربية بصورة كلية، واللغة العربية بصورة جزئية».

«لقد لعن بوذا هذه الحياة. وكذلك مذاهبنا القديمة، فإنها لم تعمل إلا لتمهد الطريق للحياة الأخرى. ولقد أخذت أمم آسيا كلها بموحيات هذه التعاليم النظرية. وعلى هذه القاعدة قيد اللاما أمة الصين، والبراهمة أمم الهند، والآخوند أمة الفرس، وأئمة الإسلام تركيا. أما العقلية التي اختفت وراء هذه التعاليم فتتكون في الاعتقاد بما يأتي:

١- إن الحقيقة لا يمكن معرفتها بالعقل، بل بالتقاليد.

٢ - إن الحياة لا يجب أن تحكم بمقتضى المبادئ الإنسانية المستمدة من غرائز الإنسان، بل بمقتضى الشرائع المترلة التي لا تتبدل ولا تتغير.

٣- هذه الحياة فانية، والأخرى باقية.

٤- نسبة كل شيء إلى القضاء والقدر.

٥- رفض الاعتقاد بضرورة الحياة القومية، والعكوف على الخضوع للتقاليد الدينية.

٦- الخضوع الكامل للرئيس الروحي».

«وهذه القيود الحديدية، والأصفاد الثقيلة لم تترك للأمم الآسيوية من فرصة للخلاص. ولقد كانت هذه العقلية بمثابة تجربة حاول واضعوها أن يعرفوا إن كانت بذاتها وسيلة ناجحة للقضاء على الحياة والإنسان. ولا مرية في أنها قطعت كل علاقة كائنة بين الناس والحياة الدنيا».

«إن أهل الكلام من المسلمين لم يعنوا بتحرير الضمائر والأفكار، كما أن التشريع الإسلامي لم يحبُ أهل الإسلام بحق الحياة والعمل. إن أهل الكلام قد أعاقوا العقل عن النماء والتطور، كما أعاقت النظم التشريعية تطور الشعور الاجتماعي، فنتج عن ذلك أن أصبح من أقصى المستحيلات أن يقع في آسيا انقلاب ثوري لا في الصورة العقلية، ولا في النظام الاجتماعي».

«لم تكن الديانات في تاريخ آسيا كلها إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التي تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين. إن ديانات آسيا كافة واحدة في جوهرها. فإن تعاليم بوذا، وكونفوشيوس، وبراهما، وموسى، وعيسى، ومحمد، كلها واحدة. فإن اختلفت فإنها إنما تختلف في التفاضل، لا في القواعد»

«ما هي الأسباب الأولية التي أحدثت تلك الفروق الكائنة بين العقلية الآسيوية والعقلية الأوربية؟»

«يجب علينا أن نعي بداءة ذي بدء أنه لم يقم في أوربا من نبي مثل بوذا، أو كونفوشيوس، أو موسى، أو عيسى، أو محمد، ممن حملوا إلى الناس أوامر ونواهي إلهية، ثم ألزموهم الخضوع لها قسرا وجبرا»

هذه هي بعض آراء المؤلف الملحد التي أخذها إسماعيل مظهر بعقليته الحمارية كأنها قضية مسلم بها، لا تقبل الجدال ولا النقاش، وشرع يطبل لها ويزمر.

ولو أن هذا الكاتب ألف كتابه في هذه الأيام لجاءت آراؤه مغايرة لما تقدم. فالشعوب الآسيوية قد تحررت وهي سائرة في طريق النهضة والتقدم والرقي، وبذلك حطمت النظرية القائلة بتخلف العقلية الآسيوية وقصورها. والشعوب الآسيوية استطاعت أن تحافظ، مع نهضتها، على كيانها وتقاليدها وأديانها وعاداتها القومية. والشعب الياباني الذي تفوق على الشعوب الأوربية حضارة ومدنية كان إلى وقت قريب يعبد الميكادو، والمعابد البوذية منتشرة في جميع أنحاء اليابان.

ولماذا أهمل المؤلف الكلام على العقلية الأفريقية؟ وإذا كان سبب تخلف الشعوب الآسيوية يرجع إلى وجود الأديان بها. فما هو السر في تخلف الشعوب الأفريقية؟ وما هو السر في اندثار شعوب أمريكا واستراليا؟ وها هي تركيا قد تخلت عن الأديان، وتبرأت من السمات الشرقية، واتخذت الأساليب الأوربية في جميع مرافق حياتها، ومر على ذلك أكثر من ثلث قرن. فما هي الاختراعات التي توصل إليها الأتراك بعد انقضاء هذه المدة الطويلة؟ وأين هي المصانع الجديدة؟ وما قيمة مصنوعاتها بالنسبة للمصنوعات المصرية والهندية؟ وما هو مبلغ الاقتصاد الجديد من القوة والمتانة؟ وكم تبلغ ميزانية التعليم في ملكه إذا قيست بميزانية التعليم في الجمهورية العربية المتحدة مثلا؟ وهل اختفت مظاهر البؤس والشقاء من ملكه؟ وهل يمكن أن يقال إن الشعب الجديد بلغ من حيث الرقي والتقدم إلى مستوى شعب السويد مثلا؟ وهل غزت الصادرات الجديد الأسواق، وأصبحت منافسا خطيرا لغيرها من الصادرات؟ إن الجواب عن كل هذا قطعا بالنفي. وإذا كان الأمر كذلك، فما هو السر في بقاء تركيا متخلفة عن الشعوب

الأوربية مع أنها اتخذت أساليب أوربا، وعاشت بعقليتها منذ مدة طويلة؟

إن اتهام الأديان بأنها كانت سببا في تخلف الشعوب الآسيوية اتهام باطل ولا يستطيع عاقل أن يقول إن بولندا مثلا أقوى من الصين، أو بلغاريا أقوى من الهند، أو رومانيا أقوى من الجمهورية العربية المتحدة، أو اليونان أقوى من العراق. والشعوب الآسيوية هي التي هزمت الاستعمار الغربي وأجلته عن بلادها.

أما القول بأن الإسلام كان سببا في تخلف الجديد فإنه يدل على جهل بالتاريخ فالإسلام كان مصدر قوة عظيمة للعرب، وبفضله استطاعوا أن يخرجوا من بلادهم الصحراوية، ويؤسسوا إمبراطورية واسعة وما ذنب الإسلام إذا كان الجهال لم يفهموا منه سوى الدروشة وتكبير العمائم وتطويل اللحى، وإمساك المشايخ، وإنشاء التكايا؟ هل هناك آيات قرآنية تحرم علينا إنشاء المصانع والمدارس؟ ويكفي في هذا المقام أن نسوق شهادة شبلي شميل، وهو ملحد من أصل مسيحي. قال في عدد يناير من مقتطف سنة ١٩١٠ ما نصه:

«خذ مثالا شريعة القرآن، فإنها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة الاجتماعية العملية المستوفاة التي ترمي إلى أغراض دنيوية حقيقية؛ بمعنى أنها لم تقصر على الأصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع، بل اهتمت اهتماما خاصا بالأحكام الجزئية، فوضعت أحكام المعاملات، حتى فروض العبادات أيضا. وهي من هذه الجهة شريعة عملية مادية؛ حتى أن الجنة نفسها لم تخرج فيها عن هذا الحكم».

اعتنق إسماعيل هذه الآراء وراح يروج لها في مجلته، وينسج على منوالها، فكتب في عدد مارس سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه:

«لم تحدد الأديان فكرة كاملة في واجب الوجود يرضي بها العقل المستقبل في دور ما من أدورا النشوء الفكري، بل إن الأديان ألزمت الناس فيما ألزمتهم به الاعتقاد بوجود الله متخذة من سلطتها الاستعلائية مبررا إلى هذا الإلزام»

ثم قال: «أما تفكير الإنسان الجدي فأصبح في تحديد علاقته، لا بواجب

الوجود، ولكن بالكون، فبعد أن أسقط العلم الإنسان عن عرش الملائكة العلوي، وأنزله إلى أفق الحيوان، أخذت الإنسان فكرة جديدة: ليست بأقل إشكالا من الفكرة التي ملكت زمامه من ناحية الأديان»

«بعد أن أظهر النشوئيون أصل الإنسان الحيواني، وأثبتوه علميا، وبعد أن أثبت الجولوجيون قدم الأرض، والفلكيون قدم النظام الشمسي، وأظهر هؤلاء بأبحاثهم سلسلة التدرج الطويل التي مضى عليها الكون لينتهي بظهور الحياة فوق الأرض، أخذ العقل الإنساني سمته نحو التفكير كما هي عادته فيما يختفي وراء هذه السلسلة الطويلة من قصد، وهل كانت متجهة بكل ما فيها من الصور لأن تنتهي بالإنسان على أنه القصد الأخير منها؟»

«أما الثابت حتى اليوم فليس مما يرضى نزعة التفاؤل في مصير الإنسان، ولست أدري لماذا لا يشارك الإنسان الحيوانات في نهايتها المحزنة؛ ما دام يشاركها في بداياتها الجميلة؟» وكتب في عدد مايو سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه:

«...على أن ظهور الأنبياء والرسل كان محدودا في بقعة واحدة من بقاع الأرض، تحدها شمالا جبال طوروس، وجنوبا صحراء اليمن، وشرقا صحراء نجد، وغربا البحر الأحمر، في هذه البقعة الصغيرة ظهر كل الأنبياء والرسل الذين اختار الله أن يكونوا هداة البشر منذ أبعد العصور التي نزل فيها الوحي على قلب إنسان. ولست تجد في ذلك من حكمة تقع عليها، أو أثر للتدبير وحسن القصد»

«فهل كانت الشعوب التي ظهرت فيها الأنبياء والرسل الذين حملوا رسالة من الله؛ هي أكثر شعوب الأرض ضلالا وعدوانا، وأشد كفرا وطغيانا؛ ليستقوي الله عليهم بهذه المجموعة الكبيرة من الأنبياء والرسل؟ وهل كان سكان سوريا وجزيرة العرب أكثر استحقاقا لعناية الله من سكان الصين أو غرب أوربا؟ وهل كان هداية الشعوب التي سكنت هذه البقاع كافية لهداية شعوب الأرض كافة إذا ما اهتدوا؟»

«حقا! إن هذه الظاهرة وحدها كافية لأن تبعث العقل على التأمل والاسترسال

في سلسلة طويلة من التفكير لا ينتهي بها إلا حيث انتهى فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر» «قد نتساءل: كيف ترك أهل الهند نهها لمذهب بوذا وبراهما؟ وأهل الصين غرضا لمذهب كونفوشيوس؟ وأهل كل بقعة من بقاع الأرض خاضعين لأساطير وخرافات ما أنزل الله بها من نبي ولا رسول؟ أكان هذا لحكمة لا تدركها العقول البشرية؟ هذا آخر ما يلجأ إليه اللاهوتيون، ونهاية ما تنتهي إليه مجادلاتهم»

«تكونت في عقلية الإنسان فكرة؛ أنه مركز الكون، ومحور دائرة الوجود من أجله خلقت السماوات والأرض. ومن أجله سخرت الرياح والأشجار والحيوانات. ومن أجله وضعت الجبال لئلا تميد به الأرض. ومن أجله جرت الأنهار مترعة بالماء، وغورت البحار لتصلح لها جو كرته الأرضية»

«ولعمرك أي شيء أكثر قربا من بداهة العقل في غرارته الأولى من معتقد كهذا يقوم نتيجة لما ثبت في روع الإنسان من أنه خلق على مثال الله، وأنه خلق وحده مميزا على جميع الكائنات، وأن الله حبا فيه وشفقة عليه؛ أخذ يرسل إليه بالرسول تلو الرسول ليهديه الصراط السوي، وليدخله وذراريه إلى الجنة زمرا خالدين فيها أبدا. وأنه أعد له هنالك الأنهار تفيض عسلا ولبنا، وقصورا بنيت بالفضة والذهب، وحورا عينا لم يطمثنهن قبله إنس ولا جان، وولدانا مخلدين يطوفون بأكواب من فضة؟»

«هذا الأثر الذي خلقته هذه المعتقدات في عقلية الإنسان في العصور الوسطى، كان نتاجا لمعتقدات ذاعت في ديانات الوثنية في بابل وآشور، والكلدان، ومصر، والهند، والصين». «كانت موحيات الأديان في صورها الأخيرة آخر ما كفل هذا الرأي لترضعه بلبان الكتب المقدسة، وتغذيه بتفسيرات المفسرين لها. لهذا لا نتلكأ مطلقا في القول بأن المعركة التي دارت حول أصل الإنسان؛ هي في الواقع معركة قامت بين العلم والدين، فانتصر العلم وهزم الدين، ونزل الإنسان عن عرش الملائكة إلى عرش الحيوانات». وكتب مقالا آخر تحت عنوان «الغاية من وجود الإنسان» جاء فيه:

«هذا السؤال هو أعضل المشكلات، وسر الأسرار، اكتفت الأديان بالقول

بأن الغاية من خلق الإنس والجن: هي أن يعبدوا الله، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة. إذ لو صح هذا إذن لاعتقد بجانبه بأن الله في حاجة لأن يعبده الإنس والجن، ولظهر النظام الكوني في مجموعه بمظهر شيء ما خلق إلا ليعضد الحياة الإنسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله. وهذا في معتقدي أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الإنسان» وكتب في العدد الأسبوعي من «العصور» الصادر في ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «استفتاء». «جاء في القرآن الكريم (**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** * الملك: ٥) وقد دل العلم الصحيح على أن السماء غير مزينة بمصابيح، بل هي فضاء غير متناه، تناثرت فيه كرات عظيمة هائلة الأبعاد، ومنها ما يستمد ضوءه من غيره. ومنها ما هو ملتهب كشمسنا. فهل الاعتقاد بأنها ليست مصابيح مخالف للدين؟». «وجاء في القرآن الكريم (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ** * القمر: ١١) وقد أثبت العلم أن السماء لا أبواب لها، وأن الماء إنما يتساقط على الأرض بعد أن يتكاثف سحابا، وبعد أن يعلو متبخرا من مياه الأرض. فهل هذا الاعتقاد تجديف؟ وهل يجب أن نعتقد أن للسماء أبوابا من فوقها بحار، إذا فتحت انهمر المطر، وإذا أقفلت أمسك عن الانهمار؟». «وجاء في القرآن الكريم (**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا** * الجن: ٨-٩)». «والثابت الآن أن الشهب عبارة عن نازك هي قطع منفصلة عن سيارات أو كرات أخرى هامت في الفضاء. فإذا بلغت منطقة جاذبية الأرض تحولت نحوها، فإذا اصطدمت بجوها احترقت من قوة الاحتكاك، فلاحت كأنها نار تخترق الفضاء. فهل هذا الاعتقاد وهو من المبادئ الأولية في العلم، إذا استمسك به أحد وحب جره إلى محكمة الجنايات؟»

«وجاء في القرآن الكريم (**وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَسْجُدَانِ**)[1] وقد عرف الآن أن

---

(1) الذي جاء في القرآن الكريم (**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** * الرحمن: ٦) وفي سورة يوسف آية ٤ (**إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**) وهي مجرد رؤية رآها سيدنا يوسف عليه السلام في المنام.

الشمس والقمر كرتان، احداهما ملتهبة، والأخرى صماء، فكيف يسجدان بمعنى السجود المعروف؟ ولم يقتصر إسماعيل مظهر على نشر الأفكار الإلحادية، والطعن في الكتب المقدسة وتكذيبها، وبخاصة القرآن الكريم، بل أخذ يروج للإباحة والاستهتار بمقومات الأخلاق. انظر إلى ما كتبه تحت عنوان: «قصة الشيخ حسين، وكيف شك ثم ألحد؟» وهو:

«...وصاحب شيخنا ذات مرة بعض الشبان إلى سوق المدينة حيث اشترى أحد الذين معه فسيخا، فلم يضبط الشيخ نفسه، بل شاركه الطعام على نية أنه سيصوم بدل اليوم يومين، وكان ذلك في رمضان. وكم كان ألمه عظيما عند ما حل موعد الإفطار فأنّبه ضميره أشد التأنيب على مخالفته لأبسط قواعد الدين وبات ليلته كالملسوع خوفا من أن يمسخه الله قردا، أو عمودا من ملح، كما ذكر في بعض بطون الكتب. ولكن الشمس أشرقت فقام على رجليه معافى، فلمعت عيناه استهزاء بمخاوفه التي لا محل لها، فأغرق في الإفطار ما شاء له نهمه، وانقضى رمضان، والأهل يبحثون عن سارق المأكولات بين أولادهم، ولم يخطر ببال أحدهم أن الشيخ العفيف هو اللص».

«وقرب وقت امتحان الشهادة الابتدائية، فدخله صاحب الفضيلة وأسنانه ترتعد فرقا من السقوط فيه للمرة الثالثة. فزين له الشيطان، على حد قول العلماء الأعلام، أن يوقف الصلاة طيلة مدة الامتحان ليجرب حظه دون صلاة، وبالفعل أشاح بوجهه عن مقام السيدة الطاهرة الذي طالما قصده قبل دخول الامتحانين السابقين، متشفعا عساها ترشد يديه لكتابة إجابات صحيحة. وفي ذات ليلة بينما كان منفردا بأحد أترابه الذين نالوا حظا من الجمال، سولت له النفس الأمارة بالسوء أن يرتكب أمرا إدا. ففعل مدفوعا بيد سوداء أعمت عينيه عن الطريق السوي. ولكنه فوجئ ببشرى النجاح في الامتحان فسر كل السرور. ومن سوء حظه أوصله عقله إلى الاعتقاد بأن حسن السيرة لا يؤهل الإنسان للنجاح، أو بالأقل لا توجد صلة بين هذا وذاك. وهكذا قطع صلته بفروض الله ولكن في الخفاء».

إلى أن قال «...فوجد أن كل المعجزات ليست إلا خرافات وسخافات، وهكذا طلق الدين ثلاثا، وأصبح ملحدا».

وكان يعاون إسماعيل مظهر في تحرير مجلته: حسين محمود، وعمر عنايت، وكامل كيلاني. انظر إلى ما كتبه عمر عنايت نقدا لكتاب: «تاريخ اليهود في بلاد العرب» لإسرائيل ولفنسون في عدد ديسمبر سنة ١٩٢٧ وهو:

«إن روح الموضوع ولا شك تنحصر في مقدار الأثر الذي تركه اليهود في بلاد العرب، ومبلغ تأثيرهم في إعداد العقلية البدوية لاقتبال تعاليم الإسلام، وهو - أي المؤلف- معذور لعدم مسه هذه النقطة جديا، لأن الجو غير قابل لهضم أمثال هذا البحث، خصوصا وأن صاحبه موسوي».

إلى أن قال: «وكم كنت أود لو أخرج الدكتور بحثه هذا بلغة أجنبية ليقرأه وسط أرقى من هذا الوسط، حتى كانت تتجلى مقدرته تماما في كلامه عن روح هذا العصر».

فعمر عنايت بلغ حقده على الإسلام والمسلمين إلى درجة أنه تمنى لو أن إسرائيل ولنفسون ألف كتابه بلغة أجنبية وطبعه في خارج مصر وملأه بالمطاعن القبيحة في الإسلام ونبي الإسلام. فهذا هو العمل القيم في نظر عمر عنايت. والوسط الأجنبي عنده أرقى من الوسط المصري، لأن الوسط الأجنبي يرحب بكل ما يكتب طعنا في الإسلام، وهدما لأركانه أما الوسط المصري الذي لا يقبل مثل هذه المطاعن، فهو وسط منحط عند إسماعيل مظهر وعمر عنايت. أو هكذا سولت لهما النفس الخبيثة. وإن المقالات التي دبجها عمر عنايت في الدعوة للصهيونية، والتي أوسع لها إسماعيل مظهر صدر مجلته؛ لتدل أكبر دلالة على ما كانت عليه تلك الجماعة من الخسة والنذالة، والخيانة والغدر، والجحود لا بالله فقط، ولكن بالوطن كذلك. وإني لآنف أن أنقل للقارئ شيئا من هذه المقالات.

أما كامل كيلاني فإنه ترجم فصولا من كتاب: «نظرات في تاريخ الإسلام» للمستشرق «بندلي جوزي» ونشرها في «العصور» في عدد مايو سنة ١٩٢٩، وقدم

لها بقوله: «هذه فصول مختارة من كتاب العلامة المستشرق «جوزي» آثرنا نقلها إلى العربية لتبيان وجهة تفكير عالم أوربي كبير. وهي وإن خالفت آراءنا أحيانا، جديرة بأن تقرأ بعناية فائقة. فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقا بالطرح والإهمال».

ومما جاء في هذه الفصول التي اختارها كامل كيلاني ليتحف بها المسلمين: «كان موت النبي، الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر؛ مؤذنا بالثورة في كل مكان. ولقد كنت ترى الثائرين في حيثما ذهبت رافعين علم الثورة والتمرد».

إن بندلي جوزي باحث كبير في نظر كامل كيلاني وأمثاله، لأنه تحقق عنده بعد البحث والتمحيص أن العرب كانوا ينتظرون موت النبي محمد عليه الصلاة والسلام منذ زمن طويل بفارغ الصبر.

إن الفصول التي اختارها كامل كيلاني ونشر ترجمتها في مجلة «العصور» بالذات، تدل على سوء نيته، وفساد طويته، وقبح سريرته، وعظيم جريرته ولعله دخل من هذا الباب بدافع من نزق الشباب. وقال مترجما عن الإنجليزية:

كَمْ مِنْ شَرَائِعَ أَبْلَى الدَّهْرُ جِدَّتَهَا * وَأَصْبَحَتْ بَعْدَ حِينٍ طَيَّ أَرْمَاسِ

لِكُلِّ جِيلٍ جَدِيدٍ مَا يُلاَئِمُهُ * مِنَ الشَّرَائِعِ وَٱلْأَخْلاَقِ وَالنَّاسِ

لم يجد كامل كيلاني ما يعبر به عن نفسه التي كانت ثائرة على الأديان سوى هذه المعاني التي صاغها في البيتين السابقين. فهو يريد أن يقول إن الأديان لم تعد صالحة لهذا العصر.

وأسست جماعة لنشر الإلحاد تحت ستار الأدب، واتخذت دار العصور مقرا لها، وكان سكرتيرها كامل كيلاني، واسمها «رابطة الأدب الجديد». والحق إن إسماعيل مظهر لم تكن له شخصية مستقرة. فبينما هو يسخر قلمه في خدمة الاحتلال البريطاني، فيكتب منتقدا موقف المصريين الذين رفضوا مشروع ثروت تشمبرلين، حيث يقول:

«الرفض المطلق الذي يشعر بأن مصر أصبحت سيدة البحار، وأن الشمس لا تغرب عن ممتلكاتها. وأن انجلترا أصبحت بمثابة مديرية بسيطة من مديريات الصعيد الأقصى». «إذن فرفض المعاهدة لم يكن إلى ناحية السعي العملي إلى المصلحة

العامة، أدنى منه إلى ناحية التظاهر الأجوف، لخدمة فكرة الحزبية».

إذا هو يكتب مقالات تظهر فيها روح الدعوة الشيوعية. وفي الوقت ذاته يؤلف كتابا عنوانه: «الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنساني»

وقد انتهز فرصة إجراء انتخابات حرة في أوائل سنة ١٩٣٠ تمهيدا لقيام حكومة نيابية وألف حزبا دعاه «حزب الفلاح» وأخذ يردد في مقالاته شعارات الشيوعيين. وكان بعض عملاء الشيوعية من الأرمن واليهود قد جاؤوا إلى مصر لنشر آرائهم. قالت صحيفة السياسة في ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ ما نصه: «...ومنذ أيام قلائل لفتنا نظر الحكومة إلى ظهور الدعوة الشيوعية فوق صفحات بعض الجرائد المحلية، ولفتنا نظرها بالأخص إلى صحيفتين بعينهما؛ هما جريدة تسمى «روح العصر» وهي كما تصف نفسها اشتراكية سياسية. وملحق «العصور» الأسبوعي، وهو الذي يزعم أنه ينطق بلسان الفلاح المصري. ونبهنا إلى أن هاتين الجريدتين تخصصان أنهرهما لمباحث اشتراكية وشيوعية محضة، وتستعملان الأساليب الاشتراكية والشيوعية صراحة»

ولما رأى إسماعيل مظهر وعصابته أن أمرهم قد انكشف، وأن الشرطة تراقب حركاتهم واجتماعاتهم، أغلق مجلته «العصور» وتفرقت عنه جماعته، وأنكره أصحابه ومعارفه. وكاد كامل كيلاني يفصل من وظيفته بوزارة الأوقاف بسبب ما ترجمه عن بندلي جوزي، وبسبب اتصاله بتلك الجماعة، لولا أنه ارتمى على أقدام بعض الكبراء، وبذلك نجا من ضرر محقق. وقد عرفت كامل كيلاني بعد أن تجاوز مرحلة الشباب فوجدته إنسانا فاضلا، متدينا، شديد الإيمان بالله، رحمه الله رحمة واسعة.

ومن الشعراء الذين نشروا بعض شعرهم في مجلة «العصور» الشاعر عبد اللطيف ثابت، ويبدو من بعض شعره أنه كان يشك في حقيقة الأديان، قال:

وَمَنْ يَدْرِ عَلَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ تَكَذَّبُوا * وَمَا ٱلأَصْلُ فِيمَا بَلَّغُونَا هُوَ ٱلأَصْلُ

وَنَاصَلَنَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ مُنَاضِلٌ * وَفَوْقَ الَّذِي قَالُوا لِنُوقِنَهُ سَدْلُ

وكان الزهاوي عميد الشعراء المتشككين في عصره، ومما نشرته له «العصور»:

لَمَّا جَهِلْتَ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَمْرَهَا * وَأَقَمْتَ نَفْسَكَ فِي مَقَامِ مُعَلِّلِ
أَثْبَتَّ رَبًّا تَبْتَغِي حَلاًّ بِهِ * لِلْمُشْكِلاَتِ فَكَانَ أَكْبَرَ مُشْكِلِ

وقدمت «العصور» في أكتوبر سنة ١٩٢٨ قصيدة للزهاوي بقولها: «للزهاوي مبدأ معروف، هو أن القصد المظنون وجوده في الطبيعة، هو من عمل الأثير المحرك لأجرام الكون، كما أنه في الحيوان، ولاسيما الإنسان من عمل الكهربائية التي هي صورة من صور الأثير». «ويرى أن الأثير هو «الله» و «الكون» معا. وأن هناك حياة راقية عامة لخلايا الأجرام في كيان اللانهاية، وهي صبغة الأثير الذي «لا إله إلا هو». وأن حياة الحيوان والنبات هي صور ابتدائية لتلك الحياة القائمة بخلاياها من أجرام السماء. وأن الطبيعة لا تتناهى. فمن الشطط الاعتقاد بوجود خالق مدبر خارج عنها، أو غير خارج عنها، ولا داخل فيها، يدبرها بحكمته البالغة تعليلا لحوادث الكون المختلفة، وهو في هذه الفكرة قريب جهد القرب من فكرة الذين يقولون بوحدة الوجود مجردة عن الغيبيات التي تقوم عليها الأديان». ومما جاء بهذه القصيدة:

قَالُوا سَيَجْزِينَا عَلَى أَعْمَالِنَا مُفتَتِنَا * فَقُلْتُ هَذَا بَاطِلٌ مَا إِنْ يَكُونُ مُمْكِنَا
هُوَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ نُسِيءَ أَوْ أَنْ نُحْسِنَا * وَهْوَ الَّذِي صَيَّرَ مِنَّا مُلْحِداً وَمُؤْمِنًا
إِذَا جَنَيْتُ مُكْرَهاً فَهَلْ أَنَا الَّذِي جَنَى؟ * وَهَلْ عِقَابُهُ مِنَ الْعَدْلِ الَّذِي قَدْ أَعْلَنَا؟
وَهَلْ لَنَا إِنْ شَاءَ أَنْ نَغْوِي سِوَى أَنْ نُذْعِنَا؟ * وَهَلْ عَنِيْنَا فِي حَيَاةِ الأَرْضِ إِلاَّ مَا عَنَى؟
أَلَمْ نَكُنْ لِمَا قَضَى بِهِ مِثَالاً حَسَنَا؟

أحدثت هذه الحركات الإلحادية رد فعل بين المسلمين. فتأسست الجمعيات الدينية لنشر الوعي الديني ومقاومة الإلحاد. ففي سنة ١٩٢٩ تألفت في مصر جمعية الشبان المسلمين وظهرت على أثرها جمعيات كثيرة، منها ما هو قائم إلى اليوم، ومنها التي اختفت لأنها تركت مهمتها التي أنشئت من أجلها واشتغلت بالشئون السياسية.

ونشطت حركة التأليف الديني نشاطا لم يسبق له مثيل.

أما هذه الحركات الإلحادية التي ظهرت في ملكه وفي مصر وفي غيرهما من

البلدان الإسلامية، فقد انتهت إلى الإخفاق التام، وأصبح المسلمون أكثر فهما للإسلام، ولروح الإسلام من الأجيال السالفة.

ولقد رجع إسماعيل مظهر إلى حظيرة الإسلام. انظر إلى ما كتبه في صحيفة «الأخبار» في ١٩٦١/٩/٨ تحت عنوان: «الإسلام ومفهوم النظم الاجتماعية».

«الإسلام دين جامع. أقصد بذلك أن الإسلام رسالة للبشر أجمعين، لا لقوم دون قوم، ولا لقبيل دون قبيل، ولا لأبيض دون أسود، بل دعوة شاملة للعالمين، تقيم بين الناس العدل، وتهيئ كل الفرص لجميع الذين تظلهم بسلطانها أن يعيشوا بكرامة آدمية. والنصوص على ذلك كثيرة معتددة (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** * سبأ: ٢٨) ثم قال: «هذا هو الإسلام، وها هي ذي روحه التي يقوم عليها: دين حر، ودولة حرة»

ثم قال: «إن الإسلام بروحه هو دين المقاربة في فرص الحياة بين الناس، ودين المساواة في معنويات الحكم. فلكل من يظله الإسلام كرامة مساوية لكرامة غيره، وله على الدولة حق الحياة بكافة معانيها، روحية ومادية. ولا شك في أن نظم التفارق الطبقي الصارخ الذي ورثته دولات الإسلام عن الرومان وفارس قد عطلت المعنى الأسمى الذي ينشده الإسلام لكل مجتمع إنساني، بلا تفرقة بين عقيدة، أو لون، أو جنس، أو أي من تلك الفوارق التي تنخر الآن عظام الحضارة الحديثة».

«ومنها: إن المسلمين بعدوا عن الإسلام، ومن ثمة بعدوا عن الحياة. لقد بعدوا عن روح الإسلام، ولن يستعيدوا مجدهم إلا بعد أن يفهموا روح هذه الرسالة النورانية، على أنها رسالة إنسانية جعلت أصلا من أجل الإنسان». «...فالإسلام في حقيقته رسالة بسيطة ظاهرة المعالم، بينة الحدود، بعيدة عن مماحكات المنطق وسرحات الباطنية والتصوف. أساس الإسلام: إله حق، ورسول أدى رسالة، وإنسان أديت إليه. والإنسان في الإسلام هو المحور الذي تدور من حوله رسالة الإسلام وتعاليمه العليا».

فهرست الكتاب

الموضوع **رقم الصفحة**

دُعَاءُ التَّوْحِيدِ

يَا اَللهُ يَا اَللهُ لاَ اِلَهَ اِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ يَا عَفُوُّ يَا كَرِيمُ فَاعْفُ عَنِي وَارْحَمْنِي يَا اَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَاَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلآبَائِي وَأُمَّهَاتِي وَلآبَاءِ وَاُمَّهَاتِ زَوْجَتِي وَلأَجْدَادِي وَجَدَّاتِي وَلأَبْنَائِي وَبَنَاتِي وَلإِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي وَلأَعْمَامِي وَعَمَّاتِي وَلأَخْوَالِي وَخَالاَتِي وَلأُسْتَاذِي عَبْدِ اْلحَكِيمِ اْلآرْوَاسِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ اَلاَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالاَمْوَاتِ «رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ» بِرَحْمَتِكَ يَا اَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَاْلحَمْدُ للهِ رَبِّ اْلعَالَمِينَ

دُعَاءُ اْلاسْتِغْفَارِ

اَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَ اِلَهَ إِلاَّ هُوَ اْلحَيَّ الْقَيُّومَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ

إن ناشر كتب - **دار الحقيقة للنشر والطباعة** - هو المرحوم حسين حلمي ايشيق عليه الرحمة والرضوان المتولد عام ١٣٢٩ هـ * ١٩١١ م] بمنطقة -**أيوب سلطان إستانبول**- وأعداد الكتب التي نشرها ثلاث وستون مصنفا من العربية وأربع وعشرون مصنفا من الفارسية وثلاث مصنفات أوردية وأربع عشرة من التركية ومقدار الكتب التي أمر بترجمتها من هذه الكتب إلى لغات فرنسية وألمانية وإنجليزية وروسية وإلى لغات أخر بلغت مائة وتسعة وأربعين كتابا وجميع هذه الكتب طبعت في -**دار الحقيقة للنشر والطباعة**- وكان المرحوم عالما طاهرا تقيا صالحا وتابعا لمشيئة الله وقد تتلمذ للعلاّمة الحبر البحر الفهامة الولي الكامل المكمل ذي المعارف والخوارق والكرامات عالي النسب السيد عبد الحكيم الارواسي عليه رحمة الباري وأخذ منه وظهر كعالم إسلامي فاضل وكامل مكمل وقد لبى نداء ربه المتعال وتوفي ليلة ٢٥ على ٢٠٠١/١٠/٢٦ (الثامن على التاسع من شهر شعبان المعظم سنة إثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية) ودفن في محل ولادته بمقبرة أيوب سلطان تغمده الله برحمته الواسعة واسكنه فسيح جناته آمين

اسماء الكتب العربية التي نشرها مكتبة الحقيقة

اسماء الكتب	عدد صفحاتها